هيثم حسين

قد لا يبقى أحد

أغاثا كريستي....
تعالي أقل لك كيف أعيش

سيرة روائية

هيثم حسين

قد لا يبقى أحد

أغاثا كريستي... تعالي أقل لك كيف أعيش

سيرة روائية

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

تم إنجاز هذا المشروع بمنحة من اتجاهات- ثقافة مستقلة
بالشراكة مع معهد غوته، وتم نشر الكتاب بدعم من دار
ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.

مدوّنة

أجد نفسي متقاطعاً مع الروائية الإنكليزية أغاثا كريستي (1890 - 1976)؛ التي أتوجه إليها في مناجياتي، في التحذير الذي وجّهته لقرائها في مقدّمة يومياتها «تعال قل لي كيف تعيش»، التي تطرّقت في فصول منها إلى حياتها في مدينتي عامودا في سوريا وفي عدد من المدن المحيطة بها في ثلاثينيات القرن العشرين، حين كانت برفقة زوجها؛ عالم الآثار البريطاني ماكس مالوان (1904 - 1978).

كانت كريستي قد نوّهت، كي لا يصاب أحد بالخيبة، إلى أنّ كتابها ليس عميقاً، وهو لا يلقي الضوء على علم الآثار من زوايا مثيرة للاهتمام، ولا يقدّم وصفاً جميلاً للمناظر الطبيعية، ولا يتصدّى للمشكلات الاقتصادية، ولا يتأمّل في القضايا العرقية، وليس فيه تاريخ. وصفته بأنّه في الواقع «مجرّد كأس صغيرة من الجعة، مجرّد كتاب صغير للغاية يحفل بالأعمال والأحداث اليومية». وربّما عليّ أن أنوّه كذلك مثلها.

كما أجد نفسي متقاطعاً مع ما أورده أمين معلوف في مقدّمة كتابه «اختلال العالم» حين أشار إلى أنّه لن يعالج الاضطرابات المختلفة كملفّات منفصل بعضها عن بعض، ولا على نحو منهجي. وذكر: سيكون مسعاي أقرب إلى مسعى ناطور ليلي لبستان غداة مرور عاصفة، وفيما تنذر بالهبوب عاصفة أخرى أشدّ عنفاً. يجول الرجل بقدمين حذرتين، حاملاً مصباحه، ناقلاً ضوءه من مكان إلى آخر، مستكشفاً الممرّات، منحنياً فوق شجرة عتيقة اقتلعتها العاصفة؛ ثم يتوجّه إلى مرتفع، ويطفئ مصباحه، ويحاول إلقاء نظرة شاملة على المشهد بكامله.

وأجد نفسي كذلك متجسّداً بصيغة ما في توصيف المفكّر زيغمونت باومان (1925 - 2017) في كتابه «الأزمنة السائلة» حين قال: اللاجئون في المكان ولكن ليسوا منه.... فهم معلّقون في فراغ مكاني توقّف فيه الزمن، فلا هم مستقرّون، ولا هم متنقّلون، ولا هم من أهل القعود، ولا هم من أهل الترحال.

أنا غالباً أقع أسير هذا الشعور بالضبط، فأجد نفسي من المكان ولست منه، فيه ولست فيه، كأنّي معلّق في فراغ يؤرجحني بينما الزمن ينسلّ ويتبدّد لأتلاشى معه، أرتحل في الذاكرة والذكريات، أحفر في ذاتي عساي أستدلّ إلى مصالحة مفترضة مع نفسي وأمكنتي، وأراني، بينما أزعم أنّني أجد نفسي متقاطعاً مع سابقين ومعاصرين، أتوجّه لنفسي بسؤال مباشر لا يقبل التملّص أو التأويل: هل حقاً أنني وجدت نفسي؟!

هل حقاً أجد نفسي حين أكتب ذلك أو أصرّح به؟!

تجتاحني الأسئلة التي تنبش علاقة الروائيّ بذاته وبكتابته والشخصيات التي يخترعها، وإلى أيّ مدى يتحرّر من ذاته أو يتقوقع عليها؟ وإلى أيّ مدى يمكن أن يعترف بالوقائع والحقائق وهو الذي اعتاد على تلبيسها لشخصياته؟ أين الحقيقة وأين الخيال في ما يسرده الروائيّ حين يكتب جانباً من سيرته الذاتية؟

ما الذي نحاول تدوينه؟ هل نكتب ذواتنا أم حيوات الآخرين المضمرة في حكاياتنا؟ لماذا نسعى إلى زعم النهوض بمهمّة التأريخ؟ لماذا نحمّل السيرة مشقّة التوثيق، ونقيّدها بقيود الشهادة والوثيقة والحقيقة؟ أين التوثيق من التلفيق في العالم الروائيّ - السيريّ؟ لماذا نكتب؟ كي نروي حيلنا أم حقائقنا المسرّبة تحت غطاء الفنّ؟ نهرب ممّن إلى مَن؟ أين واجب التعرية ونزع الأقنعة؟ هل من موضع مستقرّ بين الإيلام والإيهام؟ هل مطلوب من الروائيّ أن يؤلم في وصف الوقائع ويفتح الأعين المغمضة؟ وكيف ذاك؟ ألا تعتبر مجازفته مثيرة للشفقة وهو يسعى إلى التنوير في حين أنّه يحفر في عتمته وظلاميات من حوله بحثاً عن نوره الخاص؟

يريد بعضهم أن يكون الأدب وسيلة للترميم والترقيع. يريدون من الأديب أن يوهم قارئه أنّه يعيش في عالم مثاليّ من المبادئ والمثاليات. يبحثون عن سبل لاستدراج الناس إلى فخاخ القراءة بغية التوجيه عن بعد، وبطرائق غير مباشرة، عبر سرد العبَر والحكم، ما يقصيه عن التأثير ويفصله عن واقع السوق. لا بدّ من مبدأ الصدمات المتصادية. يحتاج المرء إلى ذرّ الملح على الجرح للإبقاء على اليقظة الواجبة الدائمة، عساه يغدو نقطة تلاقٍ وسبيل تصالح وجسر تواصل بين الذات والآخر.

ما الذي يمكن للروائيّ أن يسرده وهو القابع في قوقعته، الشاهد الشهيد على ضفاف الخراب المستشري. يتحرّك برجع الصدى. تظلّ الرواية خدعته ولعبته وملاذه لتمضية يومه وتزجية أوقات أناس ملولين يبحثون عن شيء من الترويح، وإن كان ذلك عبر قراءة قصص مريعة. الرواية ثورة الداخل وانفجار العتمة. تظهير للنيّات المبيّتة والرغبات المكبوتة، وانتقال بها كسلاح إلى تحدّي خراب النفوس. تصفية مرحليّة بغية الانتقال إلى إطلاق غيلان الأحقاد والثارات وإيقاد نيرانها على الورق عساها تجنّب بعضاً من الاصطدام والتحطيم.

لا يخفى أنّ الكتابة تحت ضغط الآنيّ تحتمل كثيراً من الارتباك، ذلك أنّ زاوية الرؤية تكون محدودة ومحصورة بمسافات وأبعاد معيّنة، يظلّ

كثير من الجوانب المظلمة التي لن تنكشف للكاتب، ما يبقي العمل مليئاً بالثغرات، وقد يبديه ذلك كقلعة مهجورة منذ زمن.

ما الذي يستطيع الكاتب أن يفعل إزاء هذا الخراب؟!

كان الوطن سوق نخاسة معاصر. صارت الثورة سوقاً سوداء على الضفة الأخرى. كان المسعى هو تلويث مَن لم يتلوّث بعد، ليصبح الخيار بين القتلة والمجرمين، بين الأقلّ سوءاً وإجراماً. كلّ طرف يقدّم نفسه على أنّه المنقذ. لا بدّ من التخلّص من ركام الاستبداد بجرف مخلّفاته من أصحاب الشعارات البالية.

الدماء، الأرواح، الشعارات، البشر، الرهانات، المدن، وما يمكن أن يخطر للمرء من أشياء كثيرة أخرى، تكون في أسواق العالم موادّ للمساومة وبضائع للمقايضة، توضع على الرفّ حين التفاوض، يبدو أنّها لا تتعدّى اعتبارها مقدّمات للإيصال إلى الطاولة والحديث عن الأثمان.

الوطن ساحة احتراب جماعات من القتلة. وطن للإيجار! هذا ما نتوجّه إليه. أوطان مهاجرة نحو ماضيها. كيف يمكن عبور عفن السوق وحمولتنا قاتلة من أعباء الجهل وأوهام العظمة والفرادة؟

إفراغ المدن من أهلها، إعادة رسم الخرائط والحدود بينها. إنّه نوع مستجدّ من هندسة الجحيم بزعم التخطيط للفردوس المفقود. الثورة أولعب الشهداء لا غير، كلّ مَن عدا الشهداء يبحرون في مستنقعات السوق، يحرسون بوّابات العدم.

أصبحت حياة اللاجئين عبارة عن دمية روسيّة تعيد محنتها، ونسخها المشوّهة، وتنتج مآسيها المتجدّدة تباعاً. أفكّر أنّ أسرتي أصبحت أسرة عالميّة، انتشرت في عدّة قارّات، وفي عدد من الدول بين الشرق والغرب. لي أخت في السويد، وأختان في تركيا، وواحدة في كردستان العراق، وخامسة في سوريا. ولي أخ في النمسا، وآخر في الإمارات، وثالث في تركيا... أمّي وأبي في سوريا... وأنا هنا في بريطانيا.

حين أحاول تخطيط لقاء عائليّ مفترض في خيالي، أجد ذاك موضوعاً في باب الاستحالة، وأنتكب حين أتذكّر اجتماعنا حول مائدة الطعام البسيطة ونحن صغار نتسلّى بالمشاكسات، وأجد ذاك حلماً بعيداً جدّاً. أقول لنفسي إنّ مجرّد التفكير في الترتيب لأيّ لقاء عائليّ واقعيّ، وليس مفترضاً، سيكون عبثاً وتضييعاً للوقت والجهد. أكتفي بالتحسّر. أواسي نفسي أنّنا جزء بسيط محظوظ من كثير من الأسر السوريّة التي شرّدتها الحرب. وهناك أسر أفنتها الحرب، وتلك مأساة عظمى.

أحاول إيجاد جوانب «إيجابيّة» لهذا التشريد الرهيب الذي تعرّضنا له – نحن السوريين - وأجد نفسي سعيداً؛ سعادة ممزوجة بأسى ومرارة، أنّ هناك فقراء كثيرين أعرفهم، كانوا ضحايا تاريخيّين للجهل والفقر وصلوا بأسرهم إلى أوروبا التي ستغدو بالنسبة إليهم وإلى أبنائهم ملاذاً من الحرب والفقر والجهل معاً. هؤلاء خسروا فقرهم وربحوا مستقبل أبنائهم وراحتهم. الحرب بالنسبة إلى هؤلاء نعمة بمعنى ما.

للحرب نِعمها وللقدر سخرياته!

هناك كثير من الأحداث التي وددتُ الكتابة عنها، والحكايات التي رغبت في توثيقها، لكنّني وجدت نفسي سائراً في دروب أخرى، ملتقطاً حكايات مختلفة ونابشاً في ما وراءها. من ذلك مثلاً حادثة حفرت عميقاً في حياتي وجسدي وذاكرتي وما أزال متهرّباً من مواجهة نفسي ومواجهتها. أكثر من سبع عشرة سنة مرّت على حادثة الحرق التي تعرّضت لها في أثناء خدمتي العسكريّة الإجباريّة في سوريا، وما زلت غير قادر على تدوين تفاصيلها، أستعيد آلام الحرق كلّما حاولت كتابة تلك التجربة المريرة وتوثيقها. أؤجّل الكتابة حتى إشعار آخر، عسى أجد سبيلاً للمصالحة بين الذاكرة والآلام المتراكمة. حوادث أخرى يشكّل آخرون أطرافاً فيها، أتحاشى أن تكون الكتابة عن حكاياتنا المشتركة إحراجاً بصيغة ما لهم، لذا أواسي نفسي بأنّ عليّ تأجيل الكتابة إلى وقت آخر... أو ربما أقوم بتوظيفها في الروايات وأخفّف نفسي من أعبائها، بأن ألقي بأعبائها على كواهل الشخصيات الروائيّة التي يمكن رسمها وتخيّلها في أعمال مقبلة.

ألسنا سكّان كهوفنا الداخليّة المعتمة؟ ألا نحاول تحرير الجنّيّ القابع في قمقمه المظلم لنرفع عنه الحظر ونتيح له التعبير عن وساوسه والتصريح عن رغباته، ثمّ نقف أمامه مراقبين لثورته وانطلاقه وتحرّره؟ أيّة ثورة تلك المأمولة وأيّ تحرّر ذاك المتخيّل؟

الوطن. ما هو الوطن؟ هل حقّاً يمكن تعريف ما لا يحتاج لتعريف في أغلب الأحيان؟

كومة أحجار، عذة شوارع، حفنة بيوت، فقر، جوع، تشرّد، اغتراب، استلاب، بؤس، إذلال، إهانة، سجن؟ طاولة قمار، علبة كبريت، مستودع بارود؟

في الغربة يلحّ علينا هذا السؤال؛ سؤال الوطن. الانتماء الذي ننشده، الأمان الذي نحلم به.

في هروبنا من الوطن قد نعثر عليه. تُرينا الغربة الانتماء في عدسة الذات والآخر، يكون البعد سبيلاً إلى الاقتراب والتماهي أكثر.

قد يصبح الوطن في بعض الأحيان حجاباً... قد تغدو الغربة مرآة وسبيلاً إلى الوطن.

وطن حقيقي؛ لحظة أمان، بسمة صادقة، نوم عميق، فراش وثير. شوقٌ للغد يحلّ محلّ الخوف منه. رعشة العاشق ولهفته لرؤية الحبيبة. تفاصيل بسيطة تبني عظَمة الوطن الحقيقية.

الشوق للوطن جملتنا المفتاحية – نحن اللاجئين. الحديث عن الروح المفتقدة التي كانت مبثوثة فينا ونحن في ديارنا موضع تحليلنا وافتقادنا. كلّ جملة تنتهي بآهات وحسرات. كلّ محاولة تعريف تسقط لعدم التسامي. كنّا نفتقد الانتماء إلى وطن مسلوب، بتنا نفتقد أنفسنا ونستقوي بالقادم الضبابي.

هل أنت سعيد لأنك هنا؟

عزيزتي أغاثا، هل كنت سعيدة هنا؟ هل كنت سعيدة هناك؟ هل كنت سعيدة في حياتك؟

تقولين في كتابك عن ذاك الجزء من العالم: أفكر في كم هو بسيط هذا الجزء من العالم وكم هو، بالتالي، سعيد! الغذاء هو الهمّ الوحيد. فإن كان الحصاد وفيراً، فأنت ثريّ حتماً، وتستطيع أن تقضي بقية العام بكسل ووفرة حتى يحين موعد حراثة الأرض وبذارها من جديد.

كما تؤكّدين أنّه كان يصعب على أمثالكم ممّن ألفوا الأفكار الغربية عن أهمّيّة الحياة أن يكيّفوا أفكارهم مع نظام مختلف للقيم. ومع ذلك، فالعقل الشرقيّ بسيط للغاية. فالموت قادم لا محالة، إنّه مصير محتوم كالولادة. أمّا أن يأتي الموت باكراً أو متأخّراً فهي مشيئة الله. وتعتقدين أنّ هذا التفكير، هذا التسليم، يبعد عنهم – عنّا - ما أصبح لعنة العالم الذي كنت تعيشين فيه؛ الحصر. وتجدين أنّ الإنسان هناك قد لا يكون متحرّراً من العوز، لكنّه متحرّر بالتأكيد من الخوف – والكسل مبارك وهو حالة طبيعية – في حين أنّ العمل ضرورة غير طبيعية.

تلفتين إلى أنّك بدأت كتابة يومياتك غير المتسلسلة قبل الحرب، وأنّك بعد أربع سنوات من الحرب قد وجدت أنّ أفكارك تحملك شيئاً فشيئاً إلى تلك الأيام التي أمضيتها في سوريا وشعرت بنفسك مدفوعة إلى استخراج ملاحظاتك ويومياتك غير المصقولة كي تكملي ما بدأته ثم نحيته جانباً. وتقولين إنّه بدا حسناً أن تتذكّري أنّه كانت هناك أيام كهذه وأماكن كهذه وأنّ في تلك اللحظة بالذات يزهر تل القطيفة الصغير ذاك، ويسير رجال مسنّون بلحاهم البيضاء خلف حميرهم دون أن يدروا، ربما، بوجود حرب.

أحوّل إليك أسئلة كثيرة تُوجّه إليّ هنا عن السعادة.

هل أنت سعيد لأنّك هنا؟ هل أنت سعيد في أدنبرة؟ هل أنت سعيد لأنّك وصلت إلى بريطانيا وأنقذت نفسك وأسرتك من جحيم الحرب؟ هل أنت سعيد في حياتك؟

أسئلة أتعرّض لها بين الحين والآخر، يوجّهها إليّ أناس ألتقيهم مصادفة، وتراهم بعد السؤال عن البلد وأحواله، والصور المريعة التي تحضر بمجرّد ذكر اسم سوريا، تكون أسئلة عن السعادة التي يفترض أنّها تغمرني هنا بعيداً عنها، أو تلك السعادة التي يفترض أنّني أتنعّم في فراديسها.

على الرغم من أنني أتجنّب أن يكون جوابي مُحبطاً لسائلي، لكنني لا أستطيع أن أخادع نفسي وأخترع إجابات تزعم السعادة وتقوم بتكلّفها. أكتفي أحياناً ببسمات تحتمل التأويل، لكنّ الحزن في عيني مستوطن لا يمكن إخفاؤه.

هل يكون الجواب عنها بنعم أو لا؟ ما السعادة؟

حين يلحّ عليّ بعضهم بضرورة الإجابة، أتهرّب إلى أسئلة عن ماهيّة السعادة ومعانيها. أقول إنّ السعادة حلم الإنسان المستحيل. وإنّ هناك لحظات سعيدة يسرقها المرء من واقعه، ويستحيل أن تكون تلك اللحظات ذات قدرة خارقة على النفخ في قِربة الزمن المثقوبة. تلك اللحظات تضخّ نوعاً آخر من السعادة حين تتحوّل إلى ذكريات سعيدة. أو تبثّ شيئاً من البهجة والأمل بالحياة ومفاجآتها.

أجيب بأنّ السعادة نسبيّة، وأنّ هناك لحظات أشعر فيها بالسعادة نتيجة أخبار سعيدة – وهي قليلة منذ سنوات – أو جزاء مواقف أتعرّض لها وأعيشها، وأنّ هذه النسبيّة لا ترسم خطّاً تصاعديّاً ولا شكلاً كاملاً لصورة السعادة المتخيّلة في الأذهان، وهي صورة رومانسيّة حالمة.

أراني أفسد السؤال بالتفلسف، لكنّني أعيش حقيقتي ولا أزيّف نفسي، ولا أتعامل بتسطيح وتمييع مع اللغة والمفاهيم، أحرص على أن يكون سهم اللغة مصوّباً على قلب الحقيقة التي أؤمن بها، والتي هي بدورها نسبيّة متأرجحة من شخص إلى آخر، حقيقة السعادة التي يتخيّلها أو يعيشها أو يبحث عنها.

حين أحوّل السؤال إلى مَن يسألني قبل أن أجيب ألاحظ ارتباكهم، حيرتهم، تحرّجهم من الجواب، أعيد إليهم قنبلة السعادة المتخيّلة المزعومة وقد نزعت مسمار الأمان عنها.

وهل أنت سعيد؟ قد أسمع إجابات مفعمة بالحزن والحيرة، وبعيون هاربة من المواجهة يكون إلقاء جمر السؤال على الآخر وعدم الاستهتار بلغة الحياة.

هنا في المدارس يحرصون على أن يكرّر الأطفال أنّهم سعداء. أحياناً أتسلّى مع ابنتي وأغضبها بسؤالي: هل أنت سعيدة؟ فتقول ببراءتها الطفوليّة التي أعشقها: نعم أنا سعيدة. وأكرّر عليها السؤال عدّة مرّات، فتجيب بملل: أنا سعيدة... سعيدة. وحين أسألها: هل أنت حزينة؟ غاضبة؟ تجيب بغضب: أنا سعيدة يا أبي. أسألها: أنت غاضبة؟ تصرخ غاضبة مستاءة: أنا سعيدة ابتعد عنّي أرجوك!

لا شكّ في أنّ هناك اختلافاً كبيراً بين وسائل التربية هنا وهناك، وقد يكون لنشأتي في محيط يحرص على عدم إظهار المشاعر أثر كبير في توجيه مشاعري نحو الداخل. فإن كنت سعيداً لا يحقّ لك التعبير عن سعادتك خشية الحسد أو إتلاف السعادة أو تبديدها بالحديث عنها. وإن كنت حزيناً عليك أن تكتم حزنك وتخفيه كي لا تكون موضع شفقة وضعف أو تشفٍّ وعرضة للانتقاد.

هنا ربّما يكون العمل بمقولة إنّ السعادة عادة، وكلّما كرّرت لنفسك بأنّك سعيد ستخفّف من المشاعر السلبيّة التي تجتاح المرء في واقعه، وتبعد نفسك عن دائرة الحزن والقهر.

يظنّ بعضهم أنّني في أدنبرة قد أصادف وحش لوخ نيس الأسطوريّ الشهير ذات مرّة، وأسجّل مشاهداتي وأطلب منه تحقيق أمنياتي، أو لعلّي أصادف ويليام والاس الذي أعجبتهم وأبهرتهم صورته السينمائيّة في فيلم «القلب الشجاع» لبطله ميل جِبسون أكثر من حقيقته التاريخيّة.

لا حدود للإيمان بالخرافة! لا مكان محذداً للخرافة في هذا العالم. الخرافة عابرة للتاريخ والحقب والجغرافيات.

أتذكّر، يا كريستي، ما تحدّثتِ عنه في يومياتك عن مفهوم السعادة في مناطقنا في ذاك الوقت الذي كنت فيه هناك، وقولك: أفكّر في كم هو بسيط هذا الجزء من العالم وكم هو، بالتالي، سعيد! الغذاء هو الهمّ الوحيد. فإن كان الحصاد وفيراً، فأنت ثريّ حتماً، وتستطيع أن تقضي بقية العام بكسل ووفرة حتى يحين موعد حراثة الأرض وبذارها من جديد.

أجزم أنّ ذاك الزمان بمفاهيمه قد ولّى إلى غير رجعة. وتلك السعادة المضلّلة قد تبدّدت بحكم كثير من تفاصيل الحياة، وكثير من المستجدّات والعنف والدماء.

هل السعادة سؤال أم حلم؟ أليست غاية المنى؟

عليّ أن أكون سعيداً من وجهة نظر السائلين الدائمين، ولا أجهل الأعذار التي يقدّمونها لأنفسهم والتي تصيغ لهم إجابتي المفترضة قبل أن أقولها، والتي تحتّم السعادة عليّ.

في الحقيقة أنا لست سعيداً. وحين أقول إنّني لست سعيداً فهذا لا يعني أنّني حزين أو مكتئب. أنا أمضي راكضاً في دوّامة الحياة والزمن. أمرّ بمحظات سريعة خاطفة من السعادة النسبيّة، وبدروب طويلة من حالات أقرب للتبلّد، عبر الغرق في تفاصيل الحياة وروتينها الذي لا يفسح أيّ مجال للتفكير في سعادة أو حزن. تفقد المشاعر جمالياتها تباعاً. يكاد

الحياد يسود، فأجد نفسي متورّطاً في تجنّب الغوص في أعماقي ومساءلة نفسي عن حقيقة مشاعري تجاه حياتي وواقعي وماضيّ.

سعادتي تتمثّل في تفاصيل صغيرة. حين أرافق ابنتي إلى الروضة، أسمعها تردّد بعض كلمات أغاني فيروز التي نسمعها في السيّارة. حين أراها تقفز أمامي، تصف لي ما نصادفه في طريقنا، تبحث عن القمر تشير بيدها إليه سعيدة باكتشافها وتدلّني عليه. تركض أمامي وتطلب منّي اللحاق بها. تتقافز على الخطوط المرسومة في باحة المدرسة، وتطلب منّي تقليدها والتقافز معها. تقطع عليّ وعوداً بأن نمرّ في طريق العودة لشراء الشوكولاته لها.

أسعد حين أهدهد ابنتيّ؛ هيفي وروز، وهما تغفوان، وتسألانني أن أقرأ لهما قصصاً، وتكرّران على مسمعي ببين المقطع والآخر: «أحبّك بابا!».

أسعد حين أرافقهما إلى الشاطئ القريب من البيت لإطعام النوارس هناك. نأخذ الخبز اليابس ونمضي في رحلتنا لملاعبة النوارس الصاخبة المزعجة. تبدآن بإلقاء كِسر الخبز لها، تتجمّع النوارس من حولنا، أراهما تهربان إلى حضني حين تقترب منهما النوارس. هناك أعيش لحظات صفاء وسعادة. أشعر بانشراح صدري واستنشاقي هواءً نقيّاً.

أسعد حين أكتب فصلاً من كتابي أو روايتي. أسعد حين أقرأ جملة مؤثّرة في كتاب. أسعد حين ألمح تفصيلاً جمالياً هنا أو هناك.

لحظات السعادة هي فواصل الحياة اللغوية، علامات الترقيم التي تهندس سيل الكلمات وفوضاها المتناسلة وترتّب إيقاع الحبكة الدراميّة المتصاعدة الدائرة حول نفسها في بحيرة الروتين والتكرار والتبلّد.

تفاصيل صغيرة تمنح لحظات سعادة فارقة ومميّزة. هذه هي بعض تجلّيات السعادة وتمظهراتها الواقعيّة بالنسبة إليّ. هي سرقاتي الصغيرة من بحر السعادة المتخيّل في واقع الحياة المرير.

تتلعثم، تتردد في التقرب من مكاتب الاستقبال وختم الجوازات، تتشاغل بحقيبتك، تلجأ إلى الحمامات لتخفف بعضاً من الضغط البادي على ملامحك. تحاول التأني في تسليم نفسك وتقديم طلبك للجوء. تعرف أنك دخلت البلاد بطريقة غير شرعية، لذلك تشعر بنوع من التعدي، وتجاوز القانون. كيف تداري ارتباكك وتنتقل إلى ضفة أخرى وتبحر في رحلة جديدة نحو مستقبل مأمول؟

اخرون دخلوا عبر البحار والمحيطات، حالفهم الحظ ونجوا بأعجوبة من الموت المتربص بهم في قيعان تلك البحار، ونفذوا من أيادي عصابات تجارة الرقيق الأبيض، كانوا شهوداً على التهام حينان البحر لأصدقاء أو أناس كانوا يرافقونهم على متن قوارب الموت.

غيرهم دخلوا برّاً، مرّوا بعدة دول، ركبوا الأخطار وعاشوا الأهوال، خاضوا رحلة الموت طلباً لحياة حرّة كريمة، سعوا إلى عالم افترضوا أنّه رحب بعكس عالمهم الذي تركوه خلفهم، والذي ضاق بهم وعليهم، ودفعهم إلى هجره، والنظر إليه من بعيد على أنّه كرة نار ملتهبة، تحرق مَن فيها، وما فيها.

تتعدد سبل اللجوء وأساليبها، وتكون الغاية واحدة، وهي الوصول إلى برّ الأمان، بعد عناء طويل، والاكتواء بجحيم الموت بأكثر من صيغة.

ماذا يسمّي اللاجئ نفسه في بلاد اللجوء؟ هي محنة تضاف إلى محنه، فهو القادم الهارب من بلاد لفظته، ولم تترك له أيّ خيار بالبقاء والحياة، إلى بلاد استقبلته، وتمنحه كلّ سبل الحياة، وتحاول تهيئته للمستقبل كي يكون مفيداً لمجتمعه الجديد، ومساهماً بدوره في بنائه، لا أن يكون عبئاً عليه، متملّصاً من واجباته إزاءه، باحثاً عن دروب التهرّب من تلك الواجبات.

هل اللاجئ مهاجر؟ هل هو منفيّ؟ هل هو مغترب؟ هل هو مقيم لفترة مؤقّتة لحين انجلاء الأوضاع في بلاده؟ يقع اللاجئ في إشكالية تعريف نفسه، وتقديم صفته لنفسه ولمن حوله، فإن كان مهاجراً فإنّ المهجر لن يصبح وطناً، ولن يحلّ محلّه، وإن ظلّ لاجئاً فإنّه يبقي حواجز بينه وبين محيطه، وعالمه الجديد، ويظلّ على مسافة، يتأخّر في الاندماج وربّما لا يسعى إليه.

أمّا شعور المنفى فله أدوار قاتلة في إبقاء الغربة ملتصقة بالروح

وساكنة الوجدان، فمزاج المنفيين لا يفارق اللاجئ في حلّه وترحاله، ينظر إلى العالم بمنظار الغريب الذي لا يريد الاندماج، بل قد يعاديه.

تبقى التعريفات والتوصيفات دائرة في فلك التعبير عن الحالة، لكنها لا توصل إلى أيّ حلّ، لأنّ اختلاف الأمزجة والأهداف والرؤى يبقى متشعّباً بدوره، فبلاد اللجوء تظلّ للمرء محظة مؤقّتة، قد يمضي عمره كلّه وهو يشعر بشعور الزائر لا المقيم المستوطن، وهذا ينعكس على تفاعله مع مَن حوله.

لا تختلف حكاية أيّ لاجئ عن حكايات اللاجئين الآخرين كثيراً. تقودهم الأحلام نفسها، وإن كانت هناك تباينات في بعض التفاصيل، فالهارب من الحرب ليس كمن هرب من بعض الأوضاع الاقتصادية المتردّية في بلده، ولا يمكن وضع جميع اللاجئين في خانة البحث عن الثراء أو الرغبة في التنعّم بفردوس أوروبا المتخيّل.

يدخل اللاجئ البلاد الجديدة، محمّلاً بإرث من التصوّرات المسبقة والأحكام النمطيّة، مَقوداً بأوهام كبرى وأحلام عظمى، يصطدم بالواقع فتنجلي الغشاوات تباعاً، ويدرك أنّه ليس في فردوسه المنشود كما كان يتخيّل، بل أنّه في بلاد تختلف فيها أمزجة الموظّفين والناس، وتتباين الرؤى من حوله، منهم مَن يراه عبئاً وعالة، آخرون يرونه لوناً، أو تنويعاً مضافاً للوحة البلاد الغنيّة بالألوان.

وقعت في فخّ الانتظار المرير الذي بدا سلسلة عائمة في دوّامة متجذدة، أو متاهة ملعونة.

وصلت إلى مطار هيثرو في لندن. طلبت الحماية لي ولأسرتي. أخبروني أنّهم سينظرون في طلبي، وأنّهم يستطيعون توفيرها لي لأنّي أصبحت عندهم، ولا يمكنهم توفيرها لأسرتي لأنّها في بلاد أخرى.

ربّما كنت محظوظاً أنّي وصلت عبر الطائرة وهبطت في المطار مباشرة، من دون المرور بمحطّات الموت الكثيرة، ورحلات البحر القاتلة. وربّما أصبحت محسوداً أنّي وصلت إلى بريطانيا في ظلّ تعقّد أوضاع السوريّين.

كلّ اللاجئين تقودهم أحلام مشتركة، تتقاطع في رغبة الحصول على ملاذ آمن يمكّنهم من استكمال حياتهم بعيداً عن الموت المجّاني في بلادهم.

في غرفة الاحتجاز المؤقّت في المطار، مكتبة صغيرة، فيها كتب للأطفال، والكتب المقدّسة بعدّة لغات. الوقت يصبح ثقيلاً معانداً، منذ تلك اللحظة أصبحت أسير الانتظارات التي لا تنتهي. يوصف اللجوء بأنّه مسلسل انتظار مديد متجدّد. كلّ انتظار متبوع بانتظار ومسبوق بآخر.

لم أعتبر نفسي لاجئاً أو مهاجراً أو منفياً أو مغترباً في البلاد التي مررت بها وأقمت فيها لمدد متفاوتة، من دبي إلى بيروت إلى القاهرة إلى إسطنبول، لم أفكّر في تعريف نفسي هناك، لكن اختلف الأمر حين وصلت إلى بريطانيا. هنا مَن أكون؟ وماذا أكون؟

كنت محمّلاً بجانب ثقافيّ حضاريّ، مثقلاً بالقراءات والتصوّرات المسبقة، أزعم لنفسي أنّي أعرف هذه البلاد جزئياً من خلال التاريخ والفنون والأدب، وهناك الإرث الاستعماريّ الذي يظلّ حاضراً في كلّ تصوّر أو حديث. من أين أبدأ وإلى أين أمضي في رحلة الاكتشافات والانتظارات؟

بعد تحقيقات المطار، تمّ نقلي إلى فندق قريب من العاصمة لندن، وتصادف أنّه كان نهاية الأسبوع، لذلك بقيت في الانتظار هناك للنقل إلى المخيّم المؤقّت في مدينة ويكفيلد بوسط بريطانيا. وهناك كان خليط غير متجانس من اللاجئين، من مشارق الأرض ومغاربها، أفارقة وآسيويّون وغيرهم، وللعرب النسبة الكبرى منهم. من عدد من الدول العربيّة، وبخاصّة

السودان والصومال وإرتيريا وسوريا.

صادفت عدداً من الأشخاص الذين أخبروني بداية أنّهم سوريّون، وحين سألتهم عن مدنهم، من باب التعارف والتواصل، بدت الحيرة على ملامحهم، وحين أخبرتهم أنّ لهجتهم ليست سوريّة، حاولوا إنكار ذلك، والقول بأنّهم عاشوا لسنوات بعيداً عن سوريا، ثمّ بعد أن اطمأنّوا إليّ، أخبروني بأنّهم من دول عربيّة أخرى وقدّموا أنفسهم على أنّهم سوريّون كي يحصلوا على الإقامة، لأنّ ظروف السوريّين «جيدة» من حيث التحصّل على الإقامة.

كما كان هناك عرب من مختلف الدول العربيّة يحصلون على الإقامات على أساس أنّهم سوريّون، فهناك من أكراد العراق أو تركيا مَن يقدّم نفسه على أنّه كرديّ سوريّ، ويحصل على الإقامة كسوريّ، من دون أن يكون لديه أيّ إثبات على هويّته كسوريّ.

يحضر التوجّس بين اللاجئين في مركز التجمّع، هناك يخفون بعض التفاصيل عن بعضهم بعضاً، الشكّ والريبة يدفعان اللاجئين إلى اتّخاذ الاحتياطات والحذر من كلّ من يلتقونه، يتحدّثون عن مغامراتهم في الوصول إلى شاطئ الأمان، يحتلّ المهرّبون أدوار البطولة في تلك المغامرات، يكونون ملعونين غالباً، ومشكورين في بعض الأحيان.

المخيّم كسجن كبير، كثيراً ما يحاول اللاجئ الأقدم أن يصبح مرجعاً للاجئ الجديد الوافد، يخبره بما سيترتّب عليه القيام به، ويخبره بطريقة سير الإجراءات، وروتين المخيّم، ومن ثمّ يحكي له عن أشخاص سبقوه من بلده، وبعض حكاياتهم، وأين تمّ فرزهم ونقلهم، ثمّ يتحدّث كأنّه خبير في شؤون البلاد واللاجئين، في الوقت الذي يكون فيه على العتبات ليخطو خطوته الأولى بعد المخيّم باتّجاه الحياة الجديدة.

انتقلت من انتظار إخراجي من المطار إلى انتظار نقلي إلى المخيّم، ومن المخيّم إلى المسكن المشترك، ومن هناك إلى المدينة التي سأختارها بعد تحصّلي على الإقامة. هذا على صعيد انتظار الانتقال والارتحال بين الأمكنة. أمّا عن الانتظارات الأخرى، فهي سلسلة تدخل اللاجئ في متاهة الأوراق والروتين.

بعد المقابلة الأولى التي هي تحقيق مفصّل، هناك انتظار للمقابلة الثانية، هي الأهمّ، يقرّر فيها المحقّق، ووزارة الداخلية، إمّا منحك حقّ اللجوء أو رفض طلبك، وفي أثناء ذلك تظلّ معلّقاً في بحر الانتظار، تعيش مع أشخاص مختلفين من ثقافات ولغات مختلفة.

قد يطول انتظارك أسابيعَ أو شهوراً، أو ربّما بضع سنوات، من دون وجود أيّ مبرّر مقنع لذلك، فهناك مَن يُنظر في طلبه ويمنح حقّ اللجوء ويجلب أسرته في غضون أشهر قليلة، وهناك من يطول انتظاره لسنتين أو ثلاث لحين استكمال إجراءات الإقامة واللجوء ولمّ شمل الأسرة.

في أثناء انتظاري لاستكمال إجراءات طلبي للجوء، كانت انتظارات أخرى موازية تثقل عليّ، كانت أسرتي في إسطنبول، وكنت قد تركت زوجتي الحامل مع ابنتي خلفي، لأنّه لم يكن في الإمكان أخذهما معي في مغامرتي لطلب اللجوء والبحث عن حياة لائقة لي ولهما، وكنّا ننتظر طفلتنا الثانية؛ روز، تلك التي لم أرها بعد، وقد تجاوز عمرها الآن سنة وبضعة أشهر.

أنتظر البريد بشكل يوميّ، ككلّ اللاجئين، ففي بلادنا كان ساعي البريد قد أصبح جزءاً من الماضي، في حين أنّه بات أهمّ شخص أنتظره في مكاني الجديد. كلّ يوم يمرّ من دون تحديد موعد المقابلة، وانتظار الجواب، كان يزيد أعباء الغربة، وكان يعطّل سير الحياة بشكل طبيعيّ، ذلك أنّ الإنسان حين يكون منشغل البال، لن يستطيع التركيز على حياته الاجتماعيّة وسيبقى على مسافة من الاندماج في مجتمعه الجديد.

كثيراً ما يخيب الانتظار، وبخاصة حين تكون شدّة الشوق لما يلي كبيرة، وهذا ما تكرّر حصوله معي أكثر من مرّة. انتظرت الإقامة شهوراً، وحين حصلت عليها، انتظرت إجراءات لمّ الشمل، وصدمت بالرفض أوّل مرّة، بذريعة عدم تحقّق السلطات من أنّ هذه الأسرة هي أسرتي، فاضطررت لإجراء فحص الـ «DNA» كي أثبت لهم الأمر وأقدّم طلباً جديداً، عسى ألا يخيب الانتظار من بعده أيضاً، فأضطرّ إلى اللجوء إلى المحاكم والقضاء، وهنا، في بريطانيا، للقضاء كلمته العليا الفاصلة لا كبلادنا التي أتينا منها، كان القضاء لعبة بيد السلطات والأنظمة.

أهيّئ نفسي لاستقبال أسرتي، واحتضان بناتي، لكن تكون صدمتي بالتأجيل، أحاول تدارك المعضلة، واحتواء الأزمة التي تسبّبها لي كلّ مرّة، أتشاغل بالقراءة والكتابة وتعلّم اللغة واكتشاف المدينة وأهلها وأسواقها وتفاصيلها، لكن أظلّ مسكوناً بهمومي وانتظاراتي وقلقي وتوتّري واضطرابي.

في مرحلة الانتظارات المديدة، كانت السلطات المحلّيّة في المدينة تسعى إلى إدماج اللاجئين واحتضانهم، تعدّ الأنشطة والمهرجانات لتبديد مشاعر الغربة التي تسكنهم، وتدفعهم إلى التعزّف إلى محيطهم الجديد

أكثر فأكثر. الكنيسة تتعاون مع البلدية لإحياء أنشطة وفعاليات فنية ورحلات للاجئين، تحاول خلق جوّ أسريّ يخفّف ضغوطات الغربة ومعاناة اللاجئين.

ما زلت أنتظر، وسأبقى أنتظر طيلة ما تبقّى من الزمن في مدينتي الجديدة؛ إدنبرة، التي انتقلت إليها، والتي لم أعتد على مزاجية طقسها وغرابته، ولم أعتد على حمل المظلّة في جعبتي كأهلها، وما زلت مسكوناً بانتظار، يخبو بالتقادم، للعودة إلى بلادي بعد أن تكون الحرب قد وضعت أوزارها، لكنّني سأكون غريباً عنها حينذاك، وستكون هي بدورها غريبة عنّي. أذكر أحياناً ما قاله الروسي إيفان بونين (نوبل 1933)، الذي كان يقيم في فرنسا، للكاتب السوفييتيّ كونستانتين سيمونوف الذي طلب منه العودة إلى الوطن: أرجو أن تفهمني، من الصعب عليّ أعود إلى وطني شيخاً هرماً، فكلّ أصدقائي وكلّ أهلي يرقدون الآن في قبورهم، وسأسير هناك وكأنّني أعبر مقبرة.

أعيش ذاك الشعور منذ الآن.

نحن الذين نغيّر نظرتهم إلينا ونساهم في دفعهم إلى التشكيك بنا وبكلّ ما نقوله. هكذا في لحظات صراحة يخبر بعض اللاجئين بعضهم بالأمر. فهنا تصادف مَن أخبر السلطات بأنه متزوّج وله أولاد، في حين يكون أعزب، فتبادر السلطات إلى إجراء لمّ شمل له، ويكون ذلك باباً للمتاجرة عند بعضهم. وقد تصادف أشخاصاً يجلبون من خلال معاملة لمّ الشمل أبناء إخوتهم أو أقاربهم أو جيرانهم، أو بعضاً ممّن تقاضوا منهم مبالغ مثفقاً عليها، وحين يأتون بالأطفال، يكون الاتّفاق على أن يخبر الأطفال السلطات بأنّ والديهم الحقيقيين هناك، وهنا تضطرّ السلطات إلى جلبهم أيضاً.

كثيرة هي الخدع التي يلجأ إليها اللاجئون في بلاد اللجوء، منهم مَن يعتبرها شطارة أو فهلوة، ومنهم مَن يعتبرها تجارة، وهي في كلّ الأحوال تساهم بتغيير النظرة إليهم، من التعاطف والشفقة والاحتضان والحماية إلى النفور والتشكيك، وينعكس الأمر على جوانب حياتيّة مختلفة، كما ينعكس على اللاجئين القادمين تالياً، أولئك الذين سيقعون ضحيّة ممارسات مَن وصلوا قبلهم، ويدفعون ضريبة أعمال غيرهم.

بين مقولتي: «اللاجئ سيّئ حتّى يثبت العكس»، «اللاجئ جيّد حتّى يثبت العكس»، يتأرجح اللاجئون وأبناء البلاد الأصليّون، بحيث أنّ اللاجئ يكون معرّضاً للاختبار، وتحت المراقبة بمعنى ما، لحين إثبات كفاءته وقدرته على التعايش وتقبّل الآخر، والنظر إلى البلاد على أنّها بلاده، لا على أنّها محطّة مؤقّتة لا يهمّه ما يحلّ بها.

هناك من اللاجئين من يعيش في قواقع ضيّقة، يعيش بين ظهرانَي المجتمع الجديد، ويعاديه في قرارته، يشعر بأحقّيّته في كثير من الأمور والشؤون، يوقع نفسه في فخّ المقارنة والمفاضلة والتفوّق، وذلك لسدّ حاجته النفسيّة للشعور بدور ما أو أهمّية مفتعلة أو متخيّلة، ويتشبّث أكثر بعادات وتقاليد لم يكن يلتزم بها أو يمارسها حين كان في بلده. تصبح ردّة فعله عكسيّة، يشعر أنّ هويّته مهدّدة، وأنّ عليه إبرازها والتشبّث بها، وتفضيلها على هويّة المجتمع الجديد.

يصل الأمر ببعضهم إلى التصريح بأنّ بلاد اللجوء تمنحه اللجوء لأنّها في حاجة إليه وإلى قدراته وطاقاته، ويتغافل عن إمكانيّة هذه البلاد لجلب من تحتاجهم من الكفاءات بإعلان صغير. ويدفعهم ذاك الشعور المتعاظم بالأهمّيّة إلى التخمين بأنّ لهم حقوقاً كثيرة، من دون التفكير في

الواجبات والالتزامات الملقاة على عاتقهم.

البحث عن الاندماج لا يقتصر على الرغبة في تعلّم اللغة، بل يتجاوز ذلك إلى سعي اللاجئ لينقل صورة مناسبة عن حضارته وأهله، كي يُشعر الآخرين المضيفين أنّه إضافة للوحة البلاد، لا عبئاً مضافاً على كاهلها.

إن لم يفكّر كلّ لاجئ في أنّ البلد الجديد هو بلده الدائم، وفي أنّه سفير حقيقيّ لبلده الأصليّ وثقافته، فإنّه سيبقى غريباً بعيداً عن المجتمع وأهله، وسيظلّ مسكوناً بأوهامه الكثيرة وعلله الكبيرة التي تحجب عنه رؤية الواقع على حقيقته، وتبقيه أسير تصوّرات مرَضيّة، بالإضافة إلى تصوّراته المغالطة المسبقة، وسينطبق عليه توصيف «رهين المحبسين» بمعنى ما، بحيث أنّ التعامي عن الواقع وموجباته يعطّل أيّ تخطيط للمستقبل، ويعقم العمى عن كلّ التفاصيل الموازية والمصاحبة.

هناك مَن اللاجئين من ينتابه تفكير في أنّ اللاجئين الآخرين يأخذون حصّته من الامتيازات التي يحصل عليها، وهذا يدفعه إلى شعور بالنفور منهم، وكأنّه متفوّق عليهم، تتولّد لديه عنصريّة إزاء أقرانه وأشباهه، ولا يفلح في التخلّص منها إلّا بالوعي والمسؤوليّة، والوصول إلى قناعة بأنّ تنوّع الحياة وتلاقي الشعوب والأعراق في المهجر يدفع إلى بلورة هويّة إنسانيّة جديدة للمهاجرين وأبناء البلد الأصليّين، يجمعهم الأمل بمستقبل أفضل لهم ولأولادهم من بعدهم.

كلّ البلاد مَنافٍ بعد أن تهجر بلدك. هذه حقيقة يشعر بها اللاجئ في كلّ لحظة، لكن يبقى التحدّي بالنسبة إليه، هو كيف يحوّل المنافي إلى أوطان، بعد أن تحوّلت الأوطان إلى منافٍ؟!

تمزيق الأقنعة

في أثناء بحثي بين اللاجئين، واستماعي إلى حكاياتهم، لاحظت أنّ قسماً كبيراً منهم يؤكّد علي بين الحكاية والأخرى بضرورة توخّي السرّيّة، وعدم ذكر اسمه في أثناء سرد الحكاية أو كتابتها. لا أدري لماذا يخشى بعضهم من الحكايات والتوثيق! هل هو ذاك الرعب الأزلي الذي يستوطن نفوسهم وأرواحهم ويبقيهم مذعورين حتّى من ظلالهم - كما يقول مثل شعبي؟

يبدو أنّ الحكايات ثروات أصحابها، يتدفّؤون بها في مختلف الأزمنة والأمكنة، يستقون منها قوّة تمنحهم مزيداً من الصبر على أحوالهم، أو تكون تطعيماً لمؤانستهم في مجلسهم ولياليهم. قد تكون الحكايات نيران الأرواح المتّقدة، أو تلك الجمرات المستقرّة في أعماقهم يلوذون بها في صقيع الغربة ليبدّدوا من خلالها شيئاً من رهاب الوحشة والوحدة والاغتراب، لذلك فهم يتحفّظون عليها ويحتفظون بها ككنوز أثيرة جلبوها من مواطنهم وينبغي أن تكون معهم.

لا يمانع بعضهم في سرد حكايته بتفاصيلها المملّة، ينتشي بسرده وكأنّه يقدّم لمستمعه أسراراً عظيمة، لكنهم يمانعون في تدوينها وتوثيقها على ألسنتهم، هناك من يقول لا بأس بكتابة جزء منها من دون الإشارة إلى أسمائهم، وهناك من يلحّ بضرورة كتابتها لتكون عبرة للآخرين مع التأكيد على عدم ذكر اسمه الصريح كي لا يدخل في متاهة الاستجواب ودائرة الفضيحة المتوقّعة.

حين طُلب من علي، وهذا اسم مستعار، أن يحكي حكاية لجوئه لحين وصوله إلى برّ الأمان في بريطانيا، احتجّ بقوله إنّه ليس بضاعة ولا مادّة للتسلية لاستدرار التعاطف أو الشفقة، ولا وسيلة لكسب المال من قبل أولئك الذين يتاجرون بمآسي البشر تحت أقنعة منظّمات خيريّة أو حقوقيّة أو ما شابه..

يقول علي متباهياً إنّه وصل من بيروت إلى بريطانيا في غضون ستّة عشر يوماً فقط لا غير، يعتبر ذلك انتصاراً تاريخياً له، ويبتسم ابتسامة نصر وهو يؤكّد أنّ نجا من القتل والموت والغرق على سواحل ليبيا وفي عرض البحر أكثر من مرّة. يؤكّد لي أنّ حكايته فريدة ورحلته مميّزة وعجيبة، ولا يمكنه التفريط بها لأيّ كان كي لا يسطو عليها ويحوّلها إلى وسيلة للمتاجرة والتكسب.

أقول له صادماً إيّاه إنّ حكايته لا تحتوي على أيّة مغامرة أو بطولة،

وإنّ رحلته لا تتجاوز كونها واحدة من عشرات ألوف الرحلات التي خاضها أناس يائسون هاربون من جحيم يقتلهم ويفتك بهم إلى مجهول يتأملون أن يكون أرحم عليهم من وطنهم المسلوب. يحتجّ بقوله إنّه خاض مغامرة البحر، وركب الأمواج، وهو المقبل على الحياة، كان يضحّي بحياته على أمل أن يحيا حياته المأمولة.

عبد الكريم؛ أب لثلاثة أطفال، أكبرهم في التاسعة من عمره، يعاني من الوحدة والاكتئاب، تركته زوجته بعد وصولها إلى بريطانيا مباشرة، يقول إنّه لم يكن يقصّر معها أبداً، وإنّه كان يلبّي كلّ طلباتها حين كان في دمشق، إلّا أنّها تنكّرت للخبز والملح والعِشرة الطويلة وطلبت الطلاق، وها هي الآن تعيش في بيت كبير مع أولاده بينما يعيش هو وحيداً في بيت صغير ويجترّ غربته وكآبته ويأسه وإحباطه.

أكاد أنهش لحمي - يقول لي عبد الكريم – وأنا نادم لأنّني قدّمت طلب إجراء لمّ شمل لها، كان الأولى بي أن أقدّم الطلب لأولادي فقط وأحرق قلبها عليهم، وأحرمها منهم طيلة حياتها، لكن لأنّني طيّب القلب وغبيّ جلبتها وها هي تنتقم منّي على الماضي. لم يكن ذنبي أنّها كانت ابنة عمّي وأنا أولى بها من الغريب، وقفت في طريق زواجها من أيّ شخص آخر، وكنت قد سمعت أنّها على علاقة مع أحدهم، لكنّني منعتها بحكم سلطتي كابن عمّ راغب في الزواج بها، وكان المجتمع الذي أعطاني تلك السلطة من خلال عادات تاريخية متراكمة يكفل لي حقوقي المشروعة بفرض إرادتي عليها، لكنّها الآن تحاصرني بالقانون هنا.

يقول لي: تصوّر أنّها ألقت الحجاب وتحدّت سلطتي وإرادتي، وأخبرتني أنّها تكرهني كرهاً شديداً ولا تطيق رؤيتي أو العيش معي في بيت واحد، لكنّها لن تحرمني من رؤية أطفالي. هي طيّبة القلب لكن لا أدري مَن قام بتأليبها عليّ وتسويد صورتي في عيونها!

يقهقه وهو يقول إنّه مسرور على الرغم من كلّ ما ألحقته به من أذى على هجره وطلاقه، ذلك أنّ أولاده من صلبه ودمه، وهذا ما أثبته تحليل الحمض النوويّ الذي كان قد أجراه ليضيفه كمستند توثيقيّ إلى أوراق طلبه إجراء لمّ شمل لزوجته وأولاده. يذكر قصّة سمعها عن شخص يعرفه معرفة سطحيّة عابرة في دمشق، تفيد أنّ زوجة ذاك الرجل رفضت إجراء تحليل الحمض النوويّ لها ولأولادها، ثمّ تبيّن لاحقاً أنّ أولاده لم يكونوا أولاده... هذه نكتة قاتلة يا صديقي، أن تكتشف أنّ أولادك الذين ربّيتهم ومنحتهم كلّ شيء وحاربت من أجلهم في حياتك ليسوا من صلبك...

يضحك بأسى وتوجّع ويتأسّف لحال ذاك الرجل المنكوب بالحقيقة بعد سنوات من الزواج والأبوة المفترضة والمسؤوليّة الكبيرة والتشرّد واللجوء والمعاناة. يثني على زوجته ويقول إنّها لم تخنه، وإنّ أهمّ ما في الأمر أنّ أولاده هم أولاده وليسوا أولاد أحد آخر.

سادت ظاهرة طلاق عدد من النساء السوريّات بعد وصولهنّ إلى أوروبا، أعرف بعض الحالات في بريطانيا، والتقيت مع بعض النساء اللاتي قرّرن الانفصال عن أزواجهنّ، واستطلعت آراءهنّ ودوافعهنّ لذلك. هناك جانب من التراكم السابق، فكثير من حالات الزواج كانت تتمّ تحت ضغط الواقع والحاجة، بعض النساء لم يكنّ يملكن قرارهنّ باختيار الزوج، وكان الضغط الممارس على بعضهنّ في بيت الأهل سبباً لاختيار أيّ متقدّم للزواج، ناهيك عن الحاجة الاقتصاديّة الملحّة.

هنا انتفت الحاجة الاقتصاديّة، تبدّدت الضغوط الأسريّة من الأب أو الأخ، خفّت سلطة المجتمع من حولهنّ، شعرن أنّ في إمكانهنّ اختيار ما يحلو لهنّ، أو إعادة تصويب مسار حياتهنّ وفق صيغة جديدة تناسب الظروف والأجواء التي وجدن أنفسهن فيها، حيث الحرّيّة، وحيث الحكومة تتكفّل بتوفير مسكن لهنّ بالإضافة إلى المصاريف والمعونة الاقتصاديّة. أي أنّ الحاجة للزوج كحامٍ وصاحب بيت وفضل اقتصاديّ انتفت، وبات الطرفان متساويين في الحقوق والواجبات، وهذا ما منحهنّ قوّة وأعاد إليهنّ صوتهنّ المقموع وأبرز شخصيّاتهن التي كانت مهدورة ومقهورة.

هناك من وصف الأمر بالثورة النسائيّة، وأنّ هذه الحرب، ومحنة اللجوء الكبرى، بالإضافة إلى التشرّد المريع، شكّل فرصة تاريخيّة لكثير من النساء لنيل حرّيتهنّ وتحقيق ذواتهنّ، ولم يبدأ الأمر بتمزيق الحجاب أو نزعه، بل كان ذلك بداية لتحطيم القيود المتراكمة عليهنّ، تلك التي أفسدت حياتهنّ وأبقتهنّ أسيرات في سجون الأهل والزوج، وخادمات ومحظيّات.

كما أنّ هناك مَن يعتبر مطالبة بعض النساء بحرّيتهنّ، أو بنزعهنّ الحجاب، تمرّداً على قوانين المجتمع وخروجاً عن الإسلام، بحيث يتمّ ربط كلّ تصرّف بمركزيّة دينيّة أو سلطة اجتماعيّة، ليتخفّى خلفها ويقوم بتجريم المرأة الساعية إلى عيش حياتها وحرّيّتها واختيار النمط الذي يلائمها ويكون دربها إلى سعادتها المفترضة وشخصيتها التي كانت موؤودة في حياتها السابقة التي كانت بالنسبة إليها غربة وقوسة وضياعاً،

وشكّل اللجوء لها جسراً إلى ذاتها، ومعبراً للتصالح مع رغباتها وأحلامها وحياتها.

لعلّ من مفارقات الواقع أنّ هذا اللجوء هو امتحان للحبّ والتفاهم داخل الأسر وبين الأزواج، فما كان قد بني على خطأ سينهار تباعاً، ولن يصمد أمام قسوة الغربة، وما كان قد تأسس على أساس قويّ متين سيصمد في وجه إعصار اللجوء الذي سيحتاج إلى سنوات ليهدأ، فيستطيع اللاجئ هندسة حياته الجديدة وفق شروط وقواعد مختلفة، ولو خلا الأمر من الحبّ والتفاني لضاعت أسر في مهبّ العاصفة، وتبدّد الأبناء بين آباء باحثين عن أمجاد ماضية وأمّهات باحثات عن أمجاد متخيّلة مقبلة.

يبدو أنّ بلاد اللجوء تكون ميادين حرب جديدة للاجئين، حرب باردة بينهم وبين ذواتهم، وككلّ الحروب الدائرة والماضيّة لن يكون هناك أيّ منتصر سوى الدمار على مختلف الأصعدة... ومن هنا يكون اللجوء كاشفاً للحقائق والشخصيّات، وكشّافاً لوجوه البشر وجواهرهم، وتظهيراً لمعادن الرجال والنساء، كما يبقى السبيل لتمزيق الأقنعة التي دأب كثيرون على التقنّع بها وتبديلها بين الظرف والآخر.

سجن ويكفيلد الإنكليزيّ

في المخيّم المؤقّت في بلدة ويكفيلد، بقيت قرابة أسبوعين، تفاجأت بالمبنى المقابل. كان سجن ويكيفيلد الرهيب مقابل المخيّم.

حين اكتشفت أنّ السجن يربض على بعد أمتار قليلة من غرفتي لم أستطع النوم إلّا لماماً، كنت أفيق بين الساعة والأخرى متوجّساً، تساءلت كثيراً في نفسي هل من المصادفة اختيار هذا الفندق الكبير مقابل السجن الضخم ليكون عتبة مؤقّتة للاجئين في رحلة لجوئهم في بريطانيا، وما إن كان ذلك لدفعهم إلى التحفّظ في بداية حياتهم الجديدة، وترويعهم من رعب السجن المخيّم على المخيّم نفسه.

بدت المنطقة المحيطة بالسجن والمخيّم هادئة تماماً، لم أستطع منع نفسي من التفكير في حكايات المسجونين وماسيهم وأنا القادم من بلاد كانت سجوناً مفتوحة على العدم، سجوناً محاطة بأسوار من الخوف والرعب والترويع والجنون، تقهر الإنسان وتدمي روحه.

تذكّرت ليالي قضيتها في سجن القطعة العسكريّة في أثناء خدمتي الإلزاميّة، كان قائد الكتيبة أمر بسجني، وهناك كان القهر والإذلال على أشدّه، كان السعي على إشعار السجين أنّه ليس إلّا شيئاً للتسلية والتعذيب، وأنّه سيمضي حياته كلّها في مستنقع الذلّ ذاك، وعلى الرغم من أنّ السجّانين كانوا من العساكر الذين يعتبرون زملاء في الخدمة الإلزاميّة، إلّا أنّهم كانوا يتحوّلون إلى وحوش بمجرّد أن يتمّ إغلاق الأبواب علينا في السجن.

كانت تجربة فظيعة، مع أنّها لم تتجاوز بضع ليالٍ، إلّا أنّني أشعر بالعار حين أستعيدها، أشعر بالعار لانتمائي بطريقة ما إلى أولئك الجلّادين الذين تجرّدوا من إنسانيّتهم وأصبحوا أدوات للقمع والتنكيل.

استرجعت كثيراً من سرديّات السجون ويوميّات أدباء تعرّضوا لهذه التجربة الوحشيّة القاسية، كنت أتأمّل الجدار الشاهق المزروع بكاميرات المراقبة، أحاول تخيّل ما وراءه فأرتعب لمجرّد تصوّر أنّ يتماهى مع صور الواقع والذاكرة التي أحتفظ بها عن سجون بلدي الشهيرة بوحشيّتها وسفالتها وإجرامها.

أحاول تهدئة مشاعر نقمتي وغضبي، أهرب إلى المكتبة التي أجد فيها راحتي وملاذي، أهدّئ أعصابي هناك، أجلس بين رفوف الكتب أتأمّل حاضري وماضي، وأتخيّل صوراً متناقضة للمستقبل. هل بدأت خيباتي

حينها؟ هل كان المخيم عتبة للخيبة ومعبراً إلى سجن اللجوء وزنزانة الاغتراب؟

لم أرد لنفسي أن أكون سجين أي كابوس أو رعب أو واقع، حاولت تخطّي ذاك التوجّس الذي خلّفه جدار السجن في روحي، وأربكني وزعزع أماني المتوهّم، أعادني بطريقة ما إلى أرض الواقع بعيداً عن أوهام الانتقال إلى فردوس متخيّل.

يضع السجن حدّاً للوهم ويعشّش في الذاكرة بحضوره الدائم، فذكريات الأيّام الأولى لا تنسى، تخلّد في الذواكر، هي تماماً كذكريات الأيّام الأولى في الخدمة العسكريّة الإجباريّة في بلدي، يعيد صاحبها الحديث عنها حتّى يشيخ، ودائماً بالحماس نفسه، تفترش الذاكرة ولا تفسح أيّ مجال للنسيان كي يغافلها أو يمحوها. هكذا هي أيّام اللجوء الأولى، تبقى وشماً في الروح والذاكرة.

أحاول جاهداً أن أتصالح مع تناقضات الحياة، أؤكّد لنفسي أنّ السجون مؤسّسات ضروريّة للدول كي تحفظ توازنها، أتخيّل دولاً من دون سجون، أماكن يتطهّر فيها الإنسان من وحشيّته، يتسامى عن الروح الإجراميّة التي تعصف به، وأدرك أنّ تخيّلاتي قد تندرج في دائرة الوهم والمثاليات التي قد توصف بالمجنونة، إلّا أنّ الجنون أحياناً يكون ضروريّاً للحفاظ على شيء من التعقّل، ولا بأس أن يكون جنوناً مثاليّاً على أن يكون جنوناً مدمّراً إجراميّاً.

أدرّب نفسي منذ فترة على التخلّي عن روح الشرّ التي تسكن الإنسان، أقمع دوافع الغضب التي تجتاحني، أحاول أن أقنع نفسي بوجوب التحلّي بروح السماحة والتسامح، لا من مبدأ القوة أو الضعف، بل من موجبات استمرار الحياة نفسها، لأنّني حين أحقد على شخص ما أو أكرهه فإنّ ذلك ينال منّي، يحدث ارتجاجاً في روحي، أفقد توازني، أخرج عن مسار الأمان المأمول وأدخل طور الضياع الكارثيّ.

أقنع نفسي بأن أهمل من يسيء إليّ فالزمن كفيل بمعاقبته بطريقته الخاصّة، وأؤمن بدروس الزمن وعبره، واستحالة أن ينجو المرء من العقاب الذي يناسب ما يقترفه بحقّ غيره. أحاول أن أنسى، أو أبقي تلك الشعلة من دون أيّة تغذية بمشاعر الحقد والكراهيّة كي لا أفسح لها المجال لتحرق كياني وروحي وتعكّر صفو أيّامي.

دفعتني الأمكنة الجديدة التي وجدت نفسي فيها إلى الغوص في داخلي، ومراجعة ذاتي وأيّامي المنصرمة وذكريات الأسى والقهر والهدر

التي أحملها معي كأعباء تثقل كاهلي، أقنعت نفسي أنّ الزمن القادم لا يحتمل المضي تحت أعباء تلك الأحقاد والأحزان والمآسي، وأنّه يحتاج للتخفّف من حمولتها لأتمكّن من العبور إلى غدي بأقلّ الخسائر الممكنة.

حين يحقد امرؤ على آخر، وحين يسكن روحه بالكراهية اللعينة، يغدو مرتهناً للقلق والتوتّر، يفكّر في سبل الإيقاع بمَن يعدّهم أعداء له، يوقف مخطّطاته لتعكير حياتهم والانتقام لنفسه منهم، ينشغل بوسائل الشرّ ويقع في فخّ الأشرار الذين يخرجونه عن طوره ويغيّرون مسار حياته، يضعونه في مواجتهم ليكون انعكاساً لتشوّههم، ولا يستطيع التخلّص من هذا القيد إلّا بالتسامي على جراحه، ومحاولة التناسي، أو إهمال الجرح وإفساح المجال للزمن كي يداويه. صحيح أنّ الزمن خير دواء وعلاج، خير مداوٍ ومعالج.

كنت وما زلت أتذكّر بيت شعر مؤثّراً لجبران خليل جبران في قصيدته المميّزة «العواصف»: وقاتل الجسم مقتول بفعلته... وقاتل الروح لا تدري به البشرُ.

فلسفة الشاعر في أن تكون العقوبة متمثّلة بالجريمة نفسها، أن تكون جريمة القاتل عقوبته الجاثمة على صدره تنخر روحه رويداً رويداً لحين تفتيته وإغراقه بالعذاب.

كان الروتين اليومي في المخيّم أشبه بروتين السجن نفسه، أوقات الوجبات الغذائيّة محدّدة بدقّة، يتمّ توزيع المخصّصات على اللاجئين، تمكن مصادفة صور من الترفّع والتعفّف وأخرى من التكبّر والوضاعة في الوقت نفسه، يتكالب بعضهم على الطعام بطريقة مقزّزة، يظنّون أنّها شطارة، أولئك الذين ينخر الجوع أجسادهم لن يستدلّوا إلى أيّ طريق للشبع.

كنت أحمل بطاقة الوجبة وأقف في الدور منتظراً، أمارس هوايتي الدائمة في تأمّل البشر وسلوكيّاتهم، وكيف أنّهم يدخلون مضمار مسابقة لا نهاية لها، مسابقة تكمن في لعبة الحياة نفسها. كنت أفكّر في المساجين على الجانب الآخر من الشارع، وراء تلك الأسوار العالية، وكيف أنّهم ينتظرون دورهم أيضاً للحظوة بوجبتهم، وما يفرض عليهم من انضباط وتقييد، ثمّ أعود إلى مشاهد قاعة الطعام الكبيرة وأراقب اللاجئين من مختلف الجنسيّات، والاختلافات في طريقة أكل الطعام نفسه، وكيف أنّ الأكل ثقافة تعكس ثقافة تاريخيّة وحياتيّة واجتماعيّة وحضاريّة برمّتها.

مزيج غير متجانس من اللغات والشعوب، أفارقة من مختلف الدول

الإفريقية يتقوقعون على أنفسهم، إيرانيون يعلّقون صلباناً كبيرة يتعاملون بنوع من التعالي على غيرهم، ويشعرون بنوع من التفوّق عليهم، يعدّون كثيرين من اللاجئين الذين معهم في المخيّم جزءاً من ماضيهم قبل أن يغيّروا ديانتهم، وكثيراً ما كان يتردّد أنّهم إنّما يغيّرون دينهم من أجل الحصول على الإقامة لا غير، وكان الردّ التالي بأنّ مكسب الكنيسة يكون في الأجيال التالية وليس من الجيل الانتهازيّ الذي يقلب دينه من أجل غايته في الإقامة فقط... ثمّ كان هناك عرب وكُرد يخوضون نقاشاتهم السياسيّة التي لا تنتهي بالعادة، ولا ينفكّون ينظرون إلى أولئك الإيرانيّين بنوع من الاستهجان لانتهازيّتهم وتغييرهم دينهم وزعمهم تغيير جلودهم بتلك السرعة، ولا يعدم بعض منهم التعبير عن شعور بنوع من التفوّق عليهم لأنّهم ما زالوا متشبّثين بدينهم ويحاولون إبراز ذاك التشبّث وإظهاره بطريقة مباشرة للدلالة على قوّة عقيدتهم.

أحياناً أفيق من النوم مذعوراً، أستعيد ظلال جدران سجن ويكفيلد العالية وأتخيّل أشباحاً تنقضّ عليّ في غرفتي المقابلة لها. أحاول تحويل الذعر إلى طرفة أتسلّى بها، أقول لنفسي كأنّ ذكريات السجون وظلالها الكارثيّة وحكاياتها المريعة التي أختزنها في ذاكرتي لم تكن تكفي لإبقائي كائناً قلقاً مسكوناً بالخوف فجاءت ذكريات الأيّام الأولى للجوء لتكرّس ذاك المخزون من الأسى والخوف، وتزيد كوابيسي ووساوسي.

هكذا أبدّد حالة الخوف حين تتلبّسني، أحيلها إلى سخرية، أفقدها هيبتها ومعناها، أعابثها لأتمكّن من تعريتها والنظر إليها كعبث لن أسمح له بتعكير حياتي وأيّامي القادمة.

سجن ويكفيلد أحد معالم رحلتي إلى عالمي الجديد، طبعت جدرانه في ذاكرتي وخيالاتي، وتحوّلت إلى كابوس يعود لزيارتي بين الفينة والأخرى.

مرحباً بالكوابيس الجديدة التي لن تنافس بأيّ شكل من الأشكال كوابيسي المستوطنة في روحي وعقلي!

في مروج يوركشير

لربما كانت رواية «مرتفعات ويذرنج» للبريطانية إميلي برونتي (1818 – 1848)، دافعي الأول للقيام بمغامرة المشي بالقرب من تلك المرتفعات في مروج يوركشير وسط بريطانيا، وبين أدغالها وجروفها، حيث رهبة الطبيعة تطغى على كلّ شيء وتجلّل المكان بالفتنة والعظَمة.

تذكّرت روايات تخلّد الأماكن التي تختارها مسرحاً لأحداثها، وتبرز سطوة المكان وتأثيره على الشخصيّات، بحيث تنسج نوعاً من التماهي بين الطبيعة والبشر. تساءلت عن إمكانية اقتفاء آثار شخصيّات روائية على أرض الواقع، عمّا إذا كان ذلك رضوخاً لهيمنة الخيال الروائيّ في بحر من التخمين والتشكيك أم البحث عن الواقعيّة بعد اللذّة الأدبيّة؟

تظلّ رواية «مرتفعات ويذرنج» التي نشرت أوّل مرّة سنة 1847 علامة فارقة في الأدب تاريخ الإنكليزيّ، وهي الرواية الوحيدة لكاتبتها إميلي برونتي التي هي واحدة من الأخوات برونتي، وهن ثلاث كاتبات شقيقات «شارلوت، إميلي، وآن» عشن عزلة غريبة وكتبن أعمالاً مهمة. شارلوت برونتي كتبت «جين إير»، وآن برونتي كتبت «أغنيس غراي»، و«نزيل قاعة ويلدفيل».

ظلّت رواية إميلي مصدرَ استيحاء واقتباس لعدد من الأعمال الفنّية والدرامية، وتدور أحداث الرواية في منتصف القرن التاسع عشر، حيث كانت المنطقة تعجّ بالتناقضات والصراعات. وقد تم تقديمها سينمائياً في أكثر من عمل، كالعمل الذي أخرجه وليام يلر سنة 1939 ونال حينها العديد من الجوائز.

صوّرت برونتي الحبَّ الوحشيّ المدمّر، الذي يحطّم المرء ويحرّضه على الانتقام من كلّ شيء، والاقتصاص من كلّ ما يقف في طريق التواصل مع المحبوب، وذلك بالتوازي مع تصوير الضعفَ الإنسانيّ في بعض تجلّياته الوحشيّة، ذاك الضعف الذي يفيض جنوناً ودماراً، ويخلّف صاحبه خطام إنسان، أو أنقاض إنسان، بحيث يقف على أطلال روحه، ويعاود الرجوع إلى مواطن عشقه وولهه.

حكت برونتي واقع أن يجاهد المرء لاستعادة الماضي بتفاصيله ودقائقه، يعيشه ثانية، ويتبدّى في حالة بطلها هيثكليف أنّه ظلّ يعيشه منذ مغادرته المفاجئة التي لم تقلّ فجائعيّة وغرابة عن قدومه الغريب... تعالج وتصوّر كيف أنّ من الحبّ ما قتل، وأنّ من الحبّ ما دمّر... تستعرض

تكون الخاتمة المفتوحة على البدايات المختلفة المحتملة ارتحالاً بين تلك المرتفعات... ويظلّ هيثكليف رهين صورة كاثي الميتة المستمرة في الحياة داخله، وصوتها الشجي لا يفارق سمعه وخياله، ساهماً، مسكوناً بها، ويلوح له مستقبله أجوفَ موحشاً من دونها...

وأنا أنصت إلى خرير الينابيع ودويّ الصمت من حولي، حيث أكواخ متناثرة، كهوف ومغاور، حيوانات برّيّة تلوذ بمخابئها حين تشعر بشيء من المداهمة، أعدت رسم صورة هيكليف؛ بطل الرواية، وحالته التي تبعث على التعاطف والشفقة من جهة، وتحرّض على الإدانة والاتّهاميّة من جهة ثانية.

توجّسنا بداية من الانطلاق في جوّ غائم صباحاً، لكنّ بعد الوصول، كانت الشمس تشرق علينا بين الغيمة والغيمة، مع كلّ سطوع للشمس يتغلغل الدفء إلى أجسادنا، وقد نحتمي بظلّ بعض الأشجار لحظات، ثمّ حين تغيب نبحث عنها بين الغيوم، ونكمل مستمتعين بتقلّب مزاج الطبيعة وهوائها، ومع كلّ تغيّر ترتسم لوحة تبدعها ريشة الإله.

الجوّ العاصف المتقلّب ميزة تلك المرتفعات والمروج، نرتقي تلّاً، نتجاوز نهراً، نستمتع بموسيقى شلّال، ورقص الأغصان والأوراق على إيقاعات الينابيع المتفجّرة من مختلف الجهات، أزهار تتبرعم مبشّرة بربيع ساحر، سيمفونية طبيعية تبثّ الطمأنينة والسكينة في الأرواح والأجساد.

نمرّ بعشّاق يخيّمون بجانب النهر، يتآلفون مع الطبيعة ويتكيّفون معها أيّاماً ولياليَ، يتسقّطون آثار أبطال الرواية ويعيشون رواياتهم الفريدة ومغامراتهم المبهجة.

الطريق إلى عالم الرواية مفعم بالحكايات والغرائب والجماليات، الطريق إلى مسرح الرواية لا يقلّ إمتاعاً عن قراءة الرواية، فهنا الحياة والرواية تلتقيان، المغامرة والتاريخ يتداخلان، الأسطورة والملحمة تتصدّران صفحة السماء وتتبادلان أدوار البطولة في رحلتنا نحو الجمال، وبين الجمال.

منحت برونتي البطولة المطلقة للطبيعة التي تصقل البشر وتطبعهم بطباع تناسب الظروف التي يجدون أنفسهم في بحورها، وتبدي الطبيعة شريكة في اتّخاذ القرارات، أو مشاركة المصائر والنهايات، ولا تقتصر المرتفعات على الأبعاد الجغرافيّة والتضاريس الطبيعيّة، تتعدّى مدلولاتها الجغرافيّة لتجتاح الأرواح، وتعبّر عن ذراها ومرتفعاتها الغائرة في القلوب والدواخل. إنّه عسف الجبال وعصف الخيال.

كلّ شخصية لدى برونتي تشكّل مرتفعاً - ذروة قاهرة، كما تشكّل حلقة في سلسلة لا منتهية من المرتفعات الشاهقة البالغة الأثر والألم. كلّ امرئ هو جلّاد وضحية في الوقت نفسه. هو وحش وملاك معاً. يكون الحبّ سبباً للحقد الفيّاض المدمّر. تصوّر نوعاً جنونياً من الحبّ، تظهر كيفية أن يقتل أحدهم مَن يحبّ باسم الحبّ، وهو يظنّ أنّه إنما يدافع عن حبّه.

وبينما كانت رحلتنا القصيرة التي استغرقت بضع ساعات من المشي بين سحر الطبيعة وفتنة الأدب، استعدت الأسئلة التي عصفت بي حين قرأت الرواية، وتابعت أكثر من فيلم مستوحى منها: هل يصنّف هيثكليف قاتلاً مجنوناً؟ هل تبرّر له جرائمه، التي قد تصنّف في خانة ردّ الاعتبار؟ هل كان هيثكليف تائهاً قبل تعرّفه إلى كاثي وعشقه لها، أم أنّه غرق في المتاهة وضاع من بعدها؟ أيّ المتاهتين كانت أشرس وأعمق أثراً؟ هل سكن هيثكليف المرتفعات أم بات نزيل سجن ذاته وقتيل وحشته في أيّامه التالية؟

وربّما كان السؤال الأكثر استمراراً معي: كم في الطبيعة من ظلم؟ وكم من عاشق مظلوم مجهول كهيثكليف لم يسمع به أحد؟

مدفع أدنبرة

بووووووووم...

إنّها الساعدة الواحدة ظهراً بتوقيت أدنبرة. عليّ أن أعتاد هذا الدويّ الذي يشكّل طقساً ساحراً من طقوس المدينة. لحظات يستغرقها الصوت وصداه، تضفي على المكان بهجة وتبثّ في نفوس المارّين من هناك، والسامعين راحة واطمئناناً. لا يحتاج السامع إلى النظر إلى ساعته، لأنّ التوقيت معلوم بالنسبة إليه، ومع ذلك ترى كثيرين ينظرون إلى ساعاتهم بطريقة آليّة.

دويّ المدفع هزّ كياني. لوهلة شعرت أنّني في سوريا. رأيت الناس مبتهجين مسرورين بأشعّة الشمس. يستبقون في حديقة البرنسيس ستريت، وكأنّهم مستلقون على شاطئ من شواطئ المتوسّط. هنا حسناء شبه عارية مسلتقية على بطنها تقرأ كتاباً، كأنّها وحدها في غرفة نومها، تحرّك ساقيها حركات عفويّة، تبدو مندمجة جدّاً مع ما تقرؤه، مستمتعة استمتاعاً مركّباً؛ تستقبل أشعّة الشمس وتقرأ.

أحدّث نفسي كلّما أشاهد مشهداً كهذا، ماذا لو كان هذا المشهد في تلك البلاد، أما كانت ستوصف القارئة بالعاهرة المغوية؟ اختلاف الثقافة يلقي بظلاله على السلوكيّات والتصرّفات كلّها. هنا أنت تختار السلوك الذي تعتقد أنّه يناسبك، هناك تضطرّ إلى مسايرة ما يُختار لك، وما يُملى عليك، وما يقرّر نيابة عنك أنّه يناسبك أو لا يناسبك.

لم أعتد على صوت المدفع اليوميّ في مركز أدنبرة. كلّما تصادف وجودي بالقرب من القلعة الشهيرة، يفاجئني دويّ المدفع الذي أصبح طقساً يوميّاً منذ سنوات في المدينة. لا يمكنني الاعتياد على ما يترك وخزاً في الروح، فالذاكرة مفعمة بذكريات الأسى، ودويّ المدفع ينبش ذاك الركام ويحرّك جمره ليعيد إيقاده وإبقاءه مستعراً.

أذكر أنّي حين كنت في الشارقة في تشرين الأول 2012، وبينما كنّا في مقهى على كورنيش البحيرة، اجتاح أسماعنا دويّ المفرقعات الملوّنة المبهجة احتفالاً بالعيد، كدتُ وأنا أسمع أصواتها المرعبة لي حينذاك كدت أن أهرب، أو أختبئ، أو أنبطح... لوهلة ظننتُ نفسي في بيتي في دمشق، وأنا أتبادل مع الأهل نصائح الحرص ووجوب الاختباء! الحالة التي عشناها لأشهر تحت القصف ورعب الاشتباكات وقذائف الهاون... كانت البهجة عارمة بتلك المفرقعات، وكانت الابتسامات ترتسم على الشفاه في أثناء متابعة اللوحة الجميلة الملوّنة التي أدّتها. أشفقتُ على نفسي، تساءلتُ إن

كنت قد وقعت رهين وسواس الانفجارات! ترى هل سأشفى من هذه الحالة يوماً ما؟

هل أنا كائن الحرب الذي لن يشفى من علله وجراحه أبداً؟ هل ذاكرتي الصوتيّة باتت معتلّة بهواجس الحرب ودويّ الأسلحة؟

منذ سنوات ابتعدت عن أجواء الحرب في سوريا، لكن لا يمرّ يوم دون أن أستعيد تلك الأجواء بطريقة أو أخرى، أعيش الأسى جرحاً نازفاً ومأساة مديدة. قبل أن أنزح من بيتي في سوريا، كنت قد أنهيت كتابي «الروائيّ يقرع طبول الحرب»، أردتُ حينها كتابة جزء من الأحداث التي كنت أعيشها وأكون شاهداً عليها، لكنّني آثرت دراسة أدب الحرب، كيف عالج الروائيّون الحرب في أعمالهم، وكيف حاربوها بأدبهم، وحذّروا من جنونها؟

حين كانت هناك جثث مرمية في الشوارع ولا أحد يتجرأ على إزاحتها أو دفنها لعدّة ساعات، كنّا نقول لأنفسنا إنّها أيّام مأساويّة سوداء وستمضي إلى غير رجعة، وحين تصاعد الأمر إلى اشتباكات ليليّة متواصلة، كنّا نخادع أنفسنا بأنّ الصباح سيحمل أخباراً جديدة جيّدة، ولاسيّما أنّ كبار المنافقين الدوليّين من رؤساء وملوك كانوا يصرّحون باستعجال رحيل «المجرم». وحين وصل الأمر إلى القصف بالطيران اضطررتُ إلى ترك بيتي وأنا واثق من أنّني لن أعود إليه في وقت قريب، كنتُ أحدّث نفسي قبلها بأنّ الحرب قد لا تطول لسنوات، وأنّ «العالم الحديث» تجاوز حقبة الإبادات الشاملة، وبات أكثر ميلاً للسلام، ويستحيل الصمت أو تجاهل المجازر لوقت أطول.

لاشكّ في أنّي كنت حالماً ورومانسيّاً وساذجاً. الآن الدماء تستجرّ الدماء، مدن بأكملها أبيدت ودمّرت. ملايين السوريّين في العالم يشهدون أكاذيب زعمائه ويرسمون لوحة العار العالميّة بأهوالهم وأحوالهم. صيحات الثأر تعدم المستقبل.

أنا المسكون بأوجاعي وأصوات الحرب التي لا تتوقّف في داخلي، كنت في حاجة شديدة إلى البقاء مع نفسي، والخلود للوحدة، وبخاصّة كنت قد أمضيت أسابيع في لندن، متنقّلاً في بيوت بعض الأصدقاء، مفتقداً حميميّة غرفة خاصّة بي، وسرير أستمتع بدفئه وفوضاي التي أخلّفها عليه.

وضعوني في أدنبرة في قصر يعود إلى بدايات القرن التاسع عشر، كان مطلّاً على شاطئ البحر. حين أغلقت باب الغرفة على نفسي، ارتميت على

السرير، بقيت دقائق محاولاً استنشاق مزيد من الهواء، شعرت أنّني أفتقد تنفّسي الطبيعي. ربّما حين يفقد أحدنا مكانه الأثير، أو يظلّ متنقّلاً بين الأمكنة، يفقد شيئاً من توازنه النفسيّ. بقيت أتأمّل الشاطئ وأنا راقد على سريري، كانت الأصوات الآتية من الخارج مزيجاً من زقزقة العصافير ولقلقة النوارس وأصوات السناجب التي كانت تتنقّل بخفّة وسرعة بين الأشجار، وكانت الرياح التي لا تهدأ ترسم لوحة هارمونيّة متناغمة وتسكب الأصوات في سمفونية تهدهد الروح المضطربة، وتهدّئ قلقي المتعاظم.

الفضاء المفتوح في الشارع الرئيس لمدينة أدنبرة فاجأني، محطّة ويفرلي للقطارات تقف بين شطري أدنبرة، في هناك المدينة القديمة بآثارها العريقة، وأشهرها القلعة التاريخيّة وشارع الرويال مايل الشهير، بالإضافة إلى كثير من المعالم الأثريّة العريقة، والمدينة المبنية على شكل طبقات. وفي الجزء الآخر، المدينة الجديدة بتفاصيلها الكثيرة المميزة.

أعجبني هذا الفضاء الشاسع الذي يبثّ الدفء والجمال في مركز المدينة. أكرّر لنفسي لو أنّ هذه المدينة كانت في سوريا لعبث بها أولو الأمر وشوّهوها بأبراج تجاريّة بائسة، أو لقاموا بتأجيرها لشركات تسنزف المدينة وأهلها.

هناك ما يصعب في شرح العلاقة التي تنشأ بين المرء ومدينة يقع في عشقها. أدنبرة من المدن التي تنسلّ بهدوء إلى القلب، ولا تجد نفسك إلّا متعلّقاً بها، مسكوناً بهدوئها وجمالها وألفتها وطيبة أهلها وسماحتهم. بدأت فيها مرحلة انتظار جديدة، دخلت في متاهة الروتين، لكن بروح جديدة، لأنّني كنت قد خرجت من مرحلة طالب اللجوء إلى مرحلة لاجئ. أي كنت قد ترقّيت في سلّم اللجوء ومراتب اللاجئين. كانت بطاقة إقامتي في جيبي، أباهي بها، قدّمت على وثيقة السفر، وحين استلمتها بعد قرابة ثلاثة أشهر من الانتظار سارعت بالتقديم على طلب الفيزا في السفارة التركيّة في لندن، لكن خاب أملي وأصابتني نكسة جديدة برفض طلبي.

توجّب عليّ تعويد نفسي على تلقّي الصدمات المتتالية. كلّ ما يتعلّق بي يأتي متأخّراً. أوراق الإقامة حصلت عليها بعد أكثر من سنة وشهر. ثمّ طلبي للمّ شملي وأسرتي قوبل بالرفض في المرّة الأولى، واستغرق تقديم طلب آخر قرابة ستّة شهور إضافيّة، وفي تلك الأثناء مرّت سنة وتسعة أشهر لم ألتقِ فيها زوجتي وابنتيّ هيفي وروز.

لم تكن وسائل التواصل الحديثة لتفي بالغرض. لا يمكن تعويض أب عن احتضان ابنته التي لم يشاهدها بعد، ولا يمكن تعويض أب عن مناغاة

ابنته وملاعبتها. روز التي كانت قد ولدت في مدينة باطمان التركية، كنت أشاهد صورها، تكبر أمام عيني وأنا أتابعها من خلال الكاميرات والصور.

تأخّرنا أكثر من أربع سنوات لنرزق بابنتنا هيفي، مرّت زوجتي بعدّة حالات إجهاض، وكان الشوق لقدوم هيفي يبقينا في غاية التلهّف والسعادة.

تركنا بيتنا في ريف دمشق وكانت زوجتي حاملاً في شهورها الأولى، بقينا نتنقّل من بيت إلى بيت، من بيت أهلي إلى بيت أهلها، استقرّت للإقامة في بيت أهلها في الفترة المؤقّتة من النزوح، كان ذلك أكثر راحة لها. فبيت أهلي كان يحوي أكثر من خمسة وعشرين شخصاً، أخواتي وأزواجهنّ وأولادهنّ، وكان البيت يضيق بنا جميعاً، ويبقينا متوتّرين دوماً. وكانت زوجتي تحتاج إلى ظروف إقامة مريحة بحكم طبيعة حملها.

عملت في تلك الفترة على تأمين أوراق لا مانع من السفر من مديريّة التربية في الحسكة. كانت الرشى كفيلة بفتح الأبواب المغلقة. خرجت إلى الإمارات وأنا أوقن بأنّي لن أعود إلى البلد في وقت قريب.

كان صديقي حسن دريعي آخر من ودّعتهم في مدينتي عامودا. وكان ابنه أوّل من التقيته في أدنبرة. أدين لحسن دريعي بأنّه ساعدني كثيراً في تحريري من خوفي من اقتحام عالم الكتابة. ظلّ يؤكّد لي أنّ الكتابة هي سبيلنا الوحيد لحياة لائقة بنا. كانت تجربة معاونتي له في كتابه المهمّ «عامودا تحترق» مدخلاً لتقوية دفاعاتي النفسيّة والتخفيف من سطوة الخوف عليّ.

تجتاحني الذكريات دفعة واحدة، ألتقطها، أنثر بعضها هنا وهناك، أستعيد قرارات سابقة لي، وأفكاراً ظللت أكرّرها لنفسي مستقوياً بها ضدّ اليأس والضعف.

لا أشكّ في أنّ صاحب الحقّ لا ينتظر اعترافاً من أحد بحقّه، بل ينتزعه، ويمضي إلى غده من دون أن يولي أيّ اعتبار لما سيطاله من اتّهامات وتشكيكات. كذلك صاحب الموهبة، لا ينتظر إقراراً من أحد بموهبته، عليه أن يكون واثقاً من نفسه وموهبته ويمضي إلى غده ليصنع مصيره... وحدهم البائسون الفاقدون الثقة بأنفسهم وحقوقهم يستجدون اعترافاً وإقراراً من الآخرين الذين يجاهدون لإبقائهم أتباعاً لهم، ويتعاملون معهم بمنطق الوصاية والغدر.

أردّد لمن حولي من باب الدعابة أحياناً إنّنا إذا توجّهنا إلى بلد فإنّه يتعرّض لزلزال بطريقة ما. أشير إلى أنّنا حين انتقلنا إلى دمشق بدأت الحرب وتركناها، وحين توجّهنا إلى القاهرة كان الصراع على السلطة على أشدّه هناك، واضطررنا إلى مغادرتها قبيل أحداث 30 يونيو. وبعدها كانت إقامتنا في إسطنبول مؤقّتة في انتظار الخروج إلى أوروبا، تلك الإقامة المؤقّتة التي استمرّت قرابة ثلاث سنوات لأسرتي.

أشعر أنّ العمر يتسرّب من بين يدي في غمرة الإقامات المؤقّتة. هي حياة مؤقّتة يكون وصف المؤقّت إشارة إلى المزمن وتدليلاً على الدائم الذي يتخفّى برداء المؤقّت نفسه.

التقيت، وألتقي عادة، بكثير من الناس من الشرق والغرب، ممّن انتقلوا من مواطنهم الأصليّة إلى مدن أو دول أخرى، يسكنهم هاجس العودة، ويعتقدون أنّ إقامتهم في مكانهم الجديد، ذاك الذي قد يكون مرّ على مكوثهم فيه عقود، لن يطول إلا فترة مؤقّتة، وسيعودون بعدها إلى مواطنهم حتماً.

تلك الحتمية المفترضة تعكس مغالطة ذات ومخادعة بصيغة غير متقصّدة، لأنّ الزمن لا ينتظر المرء كي يكمل إنجاز مشاريعه، ليقف بعدها هاتفاً لنفسه إنّه قد أنجز ما كان يسعى إليه، وأكمل دائرة أهدافه وأحلامه، وبقي عليه الشروع بحلمه الأول والأخير، وهو العودة إلى حياته الدائمة المفترضة هناك، في المتخيّل، ليبدأ منها تأثيث حياته وعالمه من جديد، ونفض غبار الإقامات المؤقّتة ووضع حجر الأساس لحياة مستقرّة دائمة. حينذاك يكون الزمن قد أنهك المرء وأبقاه على تخوم العمر، فيجد نفسه نزيل تلك الإقامات التي وصفها بأنّها مؤقّتة، سجين عاداته المتكرّسة فيها، فيقع أسير غربة جديدة، وهو المتوهّم أنّه ماضٍ لتبديد غربته الملازمة له، تلك الغربة التي تظلّ دائمة في بحر المؤقّت الذي يستطيل إلى دائم.

حين كنت أسأل جدّتي عن سبب اختيار جدّي لبيته على طرف المدينة الشماليّ الغربيّ، كانت ترد بأنّه اختار هذا المكان ليكون أقرب إلى قريته شمال الخطّ الحدوديّ، ويرى أضواء مدينة ماردين التي اعتاد عليها، وأنّه كان يقول إنّ إقامته هنا ستكون مؤقّتة ولن تطول كثيراً، لذلك لا بأس في ذلك. وكانت مجمل مخطّطاته المستقبليّة التي كان يعتبر أنّها ستكون دائمة هي هناك في مكانه المتخيّل المستعاد. وكان حينها على أعتاب عقده السابع، ويتخيّل أنّه إقامته مؤقّتة وأنّه سيعمّر ليبدأ من هناك بداية

جديدة، ينشدها دائمة.

بالطبع لم يعد جدّي إلى مكانه المتخيّل، ولا إلى قريته السابقة ليستعيد أرضه ويقوم ببطولاته المفترضة، ولا عاد أبناؤه من بعده، وتشرّد أحفاده بين كثير من الدول، وينتاب كثير منهم شعور أشبه بذاك الشعور الذي كان بدوره أشبه بيقين لدى الجدّ، بأنّه عائد إلى مكانه وحلمه من كلّ بدّ، ويعتقدون أنّ إقامتهم مؤقّتة، وأنّ أضواء مدنهم التي كانت ملاجئ ومنافي ومغتربات لسابقيهم تناديهم، وأنّ عليهم تلبية نداء العودة، الذي يعكس نداء الوهم القاهر السابق نفسه.

هناك بعض التأسّي والمواساة والتأمّل في جملة: اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً. تراها تستبطن التركيز على العمل دوماً. وتكون هذه الجملة مفتاحاً لضخّ نوع من الحتميّة على العمل من أجل العودة إلى الإقامة الدائمة في المكان المأمول الدائم، لكن هذه الإقامة تضيع في زحام الإقامات المؤقّتة، ولن يعود في مقدور الجيل الحالم فرض رؤاه وأحلامه بمكانه المتخيّل على الجيل التالي وما بعده، لأنّ اللاحقين سيجدون أنفسهم أبناء المكان الجديد، الذي يعتبره السابق مؤقّتاً، يكون انتماؤهم إليه وشعورهم بالاستيطان فيه، تتأسّس فيه ذاكراتهم، التي قد تحتفظ ببعض الحكايات التي تقترب من الخرافيّة في أذهانهم، لكنّها تبني أحلامهم الدائمة في أماكن سابقيهم المؤقّتة. وهنا يكون جدل المكان ومكر الزمن وصراع الأجيال والأحلام والذاكرات.

هناك مَن يضيّع عمره في لعنة المؤقّت، يوجب على نفسه شعور المقيم الضيف ويغفل عن موجبات المكان والزمن واستحقاقاته، يبقي نفسه طارئاً معرّضاً للترحال في مواسم قريبة، وتراه يضيّع بوصلته بين جعل مكانه المؤقّت مقرّه الدائم أو وطنه البديل، وذاك المكان الذي يجد نفسه أصيلاً فيه، وفي الحقيقة تكون العودة بعد سنوات غربة مركّبة، لأنّ التغيّر لا يستثني أيّ تفصيل.

يشعر كثير من اللاجئين بشعور المؤقّت، يسكنهم هذا الشعور ويقضّ مضاجعهم، يفقدهم توازنهم أحياناً، يعتقدون معه أنّهم راحلون في أقرب وقت للعودة إلى أوطانهم، وفي الوقت الذي يعتادون على عادات ملاجئهم، ويدخلون دائرة الروتين اليوميّ فيها، يخرجون أنفسهم عن مساراتهم المعيشة ليمضوا في مسارات متخيّلة.

هناك مَن يستاء من حالته كلاجئ، يبقي شعوره الملازم له بالغربة مهيمناً على عقله وروحه، يقصي نفسه عن واقعه بحجّة عدم انتمائه إليه

وغربته عنه، يخشى من فقد هويته وشخصيته وما يعتبره تفرّداً وتميّزاً. يدس ذلك الشعور بين ثنايا بيته ومحيطه، يعمّم ويعمّق ولاءه للعودة المأمولة التي لن تتحقّق على حساب تعميق الشرخ بينه وبين حاضره.

يتمّ تبديد الحاضر من أجل مستقبل يكون صورة عن ماضٍ ولّى إلى غير رجعة. لا يشعر مبدّد الزمن أنّه يحارب طواحين أوهامه، يمضي خلفها، يطحن حاضره وحياته بزعم البحث عن الزمن المنشود، ذاك الذي كان فيما مضى غارقاً في البؤس.

التقيت ببعض الشرقيّين هنا في بريطانيا، يريدون أن يحظوا بامتيازات الحرّيّة والدعم والحماية هنا في إقاماتهم التي يعتبرونها مؤقّتة، ولا يخفون استياءهم من كثير من الأشياء والأفعال والأفكار ويحاولون تغييرها، أو هجاءها، يقعون في فخّ الشعور بالتفوّق الممزوج بالعزلة والغربة، يتقوقع بعض اللاجئين بحجّة أنّهم يحمون هويّتهم وشخصيّتهم وأسرهم من المحو والاندثار، لكن في حقيقة الأمر يكون الأمر نابعاً من خشية من الذات والآخر، وعدم ثقة بالنفس، وهي أوهام تقود المرء في رحلة حياته نحو الضياع في فكرة العودة إلى إقامة دائمة في مكان لم يرأف به في ماضيه وحاضره، ويعتقد أنّه قد يتغيّر ليوافق حلمه أو يطابق رغبته التي قد تكتسب طابعاً مرضياً بتقادم الزمن.

هل هنالك توجّه عالمي جديد بهندسة وطن متخيّل للاجئين عبر العالم، وهل يشكّل اشتراك اللاجئين بحالة اللجوء عاملاً حاسماً لبلورة تصوّر عن وطن ما في الأذهان؟ هل إشراك منتخب للاجئين حول العالم في أولمبياد ريو دي جانيرو في البرازيل 2016 كان لدعم قضية اللاجئين أم للإيحاء بأنّ اللجوء بات وطناً بديلاً للاجئين؛ وطناً عابراً للأوطان والحدود والأزمنة والأجيال؟ وهل يعتبر ذلك تأكيداً على فشل السياسات الدوليّة التي تزعم السعي إلى الحدّ من أزمات اللاجئين، ومحاولة التخفيف من أعدادهم ومعالجة قضاياهم؟

كان هناك ممثل كوميديّ سوريّ في السبعينيات والثمانينيّات في القرن العشرين، اسمه نهاد قلعي، واشتهر بشخصية حسني البورظان، يكرّر في مشهد له أنّه إذا أردنا أن نعرف ماذا يحدث في إيطاليا يجب أن نعرف ماذا يحدث في البرازيل. وكانت تلك الجملة تستقبل بالبسمة والسخرية والتسطيح.

بشيء من التحوير لتلك الفكرة، يمكن الاستدلال على أنّه لا شيء بعيداً عن لعبة المصالح والنفوذ عبر إيجاد وكلاء شراء الذمم والتلاعب

بسلامة البشر، فالحرب التي تنقل كرتها الناريّة المتدحرجة من بلد لآخر، تعثر دوماً على ذرائع مقنعة لمختلف أطرافها بوجوب الاستمرار فيها حتّى تحقيق نصرهم المتخيّل، الذي يكون نكسة تاريخيّة على البلد وأهله. وإذا أردنا بالفعل أن نعرف ماذا يجري في بلد الحرب وتصدير اللاجئين يجب أن نعرف ماذا يدور في أروقة الدول اللاعبة بمصائر الشعوب، وماذا يدور في دهاليز سوق النخاسة – السياسة العالميّ، وبين أمراء الحروب الكبار المتخفّين بربطات عنق، والذين يكونوا مندوبين عن شركات السلاح والتجارة العالميّة العابرة للحدود، المتعدّية على كلّ شيء في طريق تغوّلها وتوحّشها من أجل المزيد من المال، ولا ضير إن كان الثمن المزيد من الدمار، والمزيد من هدر الدماء، والمزيد المزيد من الإجرام المتناسل.

اليوم، وفي عالمنا المعاصر، وقد بلغت أعداد اللاجئين حول العالم أرقاماً مرعبة، تنطلق معها دعوات لحماية الدول من تدفّق اللاجئين، كما حصل في بعض الدول الأوروبيّة التي تعالت فيها نداءات بضرورة تشييد جدران عازلة تحدّ من تدفّق اللاجئين إليها، وتحميها من رعب عدوى الأوبئة التي ينقلونها معهم، وتكون الإشارة إلى التهديد الذي يشكّلونه على طابع تلك الدول، سواء كان القومي أو الديني.

هل يتحمّل اللاجئون جناية كونهم لاجئين؟ لماذا يتمّ الحديث عن الضحايا وتصويرهم كأنّهم جلّادون لغيرهم ومهدّدون لسلامتهم في أوطانهم الآمنة؟ ألم يكن هؤلاء اللاجئون أنفسهم أناساً آمنين في أوطانهم وبيوتهم سابقاً قبل أن تلعب أيادي الحروب القذرة والصراعات المتقنّعة بأقنعة مختلفة بائسة بمصيرهم وتدفعهم إلى التشرّد واللجوء إلى أماكن جديدة بعيدة؟ إلى أيّ حدّ ينطبق المثل الكرديّ القائل: اجتماع العصافير على خبز الدراويش. معبّراً في حالة تكالب قوى ناهبة لقوت البسطاء المدمّرة لأوطانهم وأحلامهم؟

لماذا يتمّ البحث عن حلول لأزمة اللاجئين ولا يكون هناك بحث جدّيّ لحلول للحروب والجرائم التي تدفع إلى اللجوء؟ هل يكون الحال كطبيب يضخّ سموماً في جسد مريضه، يجري عليه تجاربه، ويتأسّف له تالياً بأنّ عليه أن يعالجه باستئصال أعضائه؟ الطبيب نفسه قاتل في حالة السياسة ويستحيل أن يجري أيّ علاج أو يصف أيّ دواء ناجع؟

هل يكون اللجوء، بمعنى من المعاني، صفقة عالميّة تعقد وتدار في سوق سوداء من شأنها إدارة وتحريك أموال على مستوى العالم؟ وهل يراد من جانب آخر دسّ نوع من التغيير في بنية مجتمعات على حساب

أخرى، والسطو على الثروة البشريّة من خلال الإيهام باللفتة الإنسانيّة؟ هل تحوّل العالم المعاصر إلى مسرح للخيبة والهزيمة؟ هل تتغوّل الشركات والعصابات المتحكّمة بالسلاح والساعية إلى مراكمة الثروات بشكل يزداد إجراماً مع التطوّر المتسارع في التكنولوجيا والعلوم؟

هل تنعكس الأحداث التي تعصف بالعالم الحديث على الثقافة بطريقة مباشرة أم أنها تحتاج إلى وقت كي تتبلور وتنضج ومن ثم يتم تظهيرها في قوالب فنية أو ثقافية أو إبداعية؟ هل بهذا المعنى تكون الثقافة تابعة للاقتصاد والسياسة ومقتفية تأثيراتها التي تخلفها في مجمل تفاصيل الحياة؟ هل يمكننا القول إن الثقافة بهذا المعنى تخلت عن الدور الذي يفترض أن يكون ريادياً لصالح تبعية لا تناسب طبيعتها الإنسانية؟

هل تكون الثقافة آخر حصون الإنسانية التي يتسرب إليها الصمت رويداً رويداً، أم أنها عبر التاريخ انعكاس لمختلف أوجه النظر المتباينة والمتناقضة حيال القضايا التي تعالجها؟ أين يتموضع المثقفون في هذا المشهد العالمي الذي يتبدى في ذروة اختلاله؟ هل ينهض المثقفون بأي دور مأمول لإعادة التوازن إلى العالم الذي يفقد توازنه باطراد ويمضي خلف خطابات الكراهية والعنصرية ويستجيب لقرع طبول الحروب هنا وهناك؟

هل من سبيل للتخفيف من آثار الحروب المحتدمة التي تخلف أعداداً كبيرة من المشردين واللاجئين والضحايا؟ كيف يواجه المثقفون هذا السيل الجارف من دوي المدافع وأزيز الرصاص بأقلامهم وأفكارهم وسلميتهم؟ كيف سيتعامل المثقفون مع جنون الغطرسة ورعب العدوانية المهدد للسلام العالمي، وهل يمكنهم الوقوف في وجه الشعبوية الرخيصة التي تستغل مخاوف الناس وهواجسهم الأكثر تأثيراً وإضعافاً لهم لخلق بيئة حاضنة للتطرف؟ وإن كان ذلك عبر شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان، والبحث عن التعايش الواجب، في حين أن الواقع يكشف النيات والخبايا ويلقي الأضواء على ما يجري في مستنقع العنصرية الآسن.

هل يقع المثقفون رهينة الإحباط واليأس، أم أنهم سيمارسون دورهم المناهض للتطرف والعنف ويسعون إلى رفع أصواتهم بتأييد القضايا العادلة، والدفاع عن الإنسان بغض النظر عن شكله ولونه ولغته ودينه؟ هل تستعيد الثقافة دورها الريادي في نشر التنوير والحد من المزاعم البائسة التي تنتشر في الغرب عن تخلف الشرقي وبؤسه، وعن صورة العنف التي يقوم بإسباغها على الدين، وتجريم الملايين من البشر عبر تلك الصورة

التي تكون عنفاً واقعياً سبّاقاً على عنف متخيل؟

لا يخفى أن حالة الاستقطاب العالمية في السياسة والاقتصاد يمكن أن تلقي بظلالها وتأثيراتها الظاهرة والخفية، المباشرة والمؤجلة على الثقافة العالمية أيضاً، وتتجلى تظهيراتها وتبرز تجلياتها في صياغات ومشاهد عديدة، تستعرضها المستجدات العالمية والتطورات والمنعطفات التي تمر بها دول كبرى، بالإضافة إلى تأثيرات تلك المستجدات على الآخرين في الشرق والغرب.

في القارة الأوروبية التي كانت ذات يوم مركزاً للأنوار والتنوير، وموئلاً للحضارة والتقدم، تعالت أصوات ببناء جدران عازلة على حدود بعض الدول، ولم تكن تلك الأصوات المتعالية من أناس عاديين، بل كانت صادرة عن زعماء وقادة دول، وكانت الذريعة المعلنة هي التصدي للمحاولات الإرهابية المحتملة، وتقييد تسلل الإرهابيين بين أمواج اللاجئين المتدفقين، لكن واقع الحال يشير إلى عكس ذلك، ولاسيما حين يعلن بعضهم الخوف على الهوية المسيحية لبلدانهم، وبهذا يساهمون في تأجيج صراع الأديان لا حوارها المفترض. وتظهر التصريحات والوقائع والسياسات أن هناك ولعاً من قبل الأنظمة المتجهة لليمين بالجدران، ففي الشرق والغرب تكشف النداءات الداعية إلى تشييد جدران عازلة.

ظهرت كثير من الكتابات الداعية للتضامن مع مأساة اللاجئين، ويبقى الصوت الغربيّ حين يكتب عن المشكلة مقنعاً للأوروبيّين أكثر من أصوات الشرقيّين المنتمين إلى بيئة اللجوء نفسها، ممّن قد توصف كتابتهم بأنّها تنطلق من التعاطف مع شعوبهم أكثر من اعتبارها كتابات ذات رؤى إنسانيّة شاملة.

من بين الكتب المخصصة للحديث عن مأساة اللاجئين السوريّين كتاب «هاربون من الموت» للألماني فولفانج باور الذي حاول توثيق حكايات مجموعة من السوريين ومحاولاتهم في عبور الطريق إلى أوروبا، وخوض مغامرات الإبحار من مصر وتركيا، وتعرضهم لابتزاز عصابات المتاجرة بالبشر وتعنيفهم، ووقوعهم بين أنياب مهربين ماتت ضمائرهم، ولا يرون في الإنسان سوى كمية النقود التي يمكن سلبها منه.

هدف باور من مغامرته إلى أن يوثق بالحس والخبرة والتجربة القريبة الملامسة للواقع ماذا يعني بالضبط الهروب واللجوء. ونوّه إلى فشل سياسات الاتحاد الأوروبي في منع الهجرة غير الشرعية، وعدم القدرة على محاصرة المهرّبين والإيقاع بهم، على الرغم مما تتخذه من إجراءات

صارمة على حدودها المتوسطية، وتجنيد مئات الآلاف من الجنود وكثير من المعدات العسكرية المتطورة لذلك، ويقول بمرارة وأسى: البحر المتوسط الذي كان مهد أوروبا وشهد مولدها صار المسرح الأكبر للخذلان والفشل.

ثمّ أطلق في نهاية عمله صرخته الاستغاثية قائلاً: إلى متى يجب علينا الانتظار ونحن نشاهد هؤلاء البشر يغرقون ويموتون في أعالي البحار؟ إلى متى يجب علينا أن نجبر جيلاً فتياً من السوريين على اللجوء بطرائق غير شرعية وتركهم لمصيرهم مع تجار البشر والحروب من العصابات؟ إلى متى سنقوم بخيانة أنفسنا والضحك عليها؟ لا تجبروا النساء والأطفال والرجال على الاحتماء بقوارب اللجوء والموت. فلتفتحوا الحدود الآن. ليكن في قلوبكم رحمة وشفقة.

لا شكّ في أنّ مثل هذه الدعوات تنطلق من موقف إنسانيّ سامٍ وإحساس عالٍ بالمسؤوليّة وتقدير للإنسان بعيداً عن جنسه ولونه، لكن من اللافت أنّ النداء اقتصر على وجوب التحرّك لاحتضان اللاجئين بدلاً من التركيز على إيقاف منابع البشر وتجفيف بؤر الإرهاب التي تخلق اللاجئين وتدفعهم إلى ركوب البحار والمجازفة بأرواحهم من أجل أحلام الخلاص، يدفعون حياتهم ثمناً لحلمهم بحياة كريمة.

لعلّ من المهمّ التأكيد على أنّ من الأهمّيّة بمكان ممارسة وتوسيع الضغط الشعبيّ الغربيّ من أجل إيقاف نزيف التاريخ والدماء، لا فتح الحدود وإبقاء أسباب التهجير والتشريد هناك قائمة ومتزايدة متصاعدة باطّراد، لأنّ فتح الحدود لا يوقف الجريمة الماضية المستمرّة بحقّ ملايين البشر بل ينقلها من بقعة إلى أخرى، يرسم خطوط نيران جديدة لها، يبقيها متأجّجة لا تستدلّ إلى طريق للتهدئة والانطفاء.

أعتقد أنّ الحاجة تشتدّ إلى كتب من النوع الذي تحدّث عنه فرانتز كافكا حين قال: ما يلزم من الكتب التي تضربنا مثلما تضربنا أكثر الكوارث إيلاماً، مثل موت شخص نحبّه أكثر ممّا نحبّ أنفسنا، نحتاج كتباً تجعلنا نشعر بأنّ شيئاً ساقنا إلى أعماق غابة بعيداً عن بقية البشر، تجعلنا نحسّ بشيء يشبه الانتحار. يجب أن يكون الكتاب مثل فأس تضرب البحر المتجمّد في داخلنا.

أتذكّر مقطعاً قرأته في رواية «المفقود» للكنديّة كيم إكلين تقول فيه: أفادت الصحف عن وقوع مجزرة في بلادك. تتبعت بإصبعك على ورق الصحيفة وقلت: أحياناً يكتبون عن ملايين الموتى وأحياناً يكتبون الآلاف.

ألا يعرفون؟ كيف يمكنهم أن يناموا ليلاً بسلام زاعمين أنّهم كتبوا الوقائع في حين أنّهم لا يعلمون؟

ربّما تختصر جانباً كبيراً من عدم المعرفة بما يجري على أرض الواقع هناك في مكان بعيد؛ هو ذاك المكان نفسه الذي يعيش داخلي.

خلال تنقّلي من بلد إلى آخر، ومن إقامة مؤقّتة إلى أخرى، أيقنت أنّ معظم الناس يقادون عبر وسائل الإعلام التي تدسّ لهم من يبلور نظرتهم ورؤيتهم ويضعهم في خانة المسيّر والمنقاد. تنقل إليهم صورة وخبراً وتعليقاً، وتفرض عليهم تصوّرها من خلال النقل، تتلاعب بالعقول، تجبرها على تحديد مسار التفكير، تقودها في نفق تختاره لها بعناية، ثمّ تعرض خيارات الخروج من النفق نفسه. يختار زاوية للصورة، يخلق مشكلة، يناقشها في ضوء المقترحات التي يقدّمها، يتّخذ منها نقطة انطلاق، لا يعود إلى جذر المشكلة، بل يسعى إلى مناقشة تداعياتها وظلالها، ومعالجة تأثيراتها المفترضة، وهنا يكون تغييب الأصل لصالح الصورة، ونقل للاهتمام من حيّز إلى آخر بغية الإلهاء والإيهام. أي عملياً يجري تقييد التفكير وتحديد المسار الذي يستحيل العثور على أيّ مخارج أو كوى، ويكون الدفع إلى اليأس بطريقة ما لعبة وغاية التلاعب بالعقول.

أيّهما تختار؟

أيّ طريقة من طرق القتل ستختار؟ الشرح الذي قدّمته لنفسي على سؤاله، والتفسير الوحيد الذي استطعت الاستدلال إليه في تلك اللحظة هو أنّ السؤال المباشر كان من المفترض أن يكون: هل ستختار الموت بجزّ رقبتك بسواطير داعش وسكاكين حقدهم المسمومة، أم ببراميل النظام المتفجّرة، تلك التي تحمل بالإضافة إلى المتفجّرات أحقاداً على تاريخ بلدك وجغرافيته وناسه؟

لكن لأنّ طريقة البريطانيّين المفضّلة هي التوجّه إلى غايتهم بطريقة غير مباشرة، والسؤال بطريقة مواربة، بصيغة لا مباشرة، كان سؤال الشخص الذي التقيته واستدرجني إلى نقاش عن أوضاع بلدي سوريا، والحرب الدائرة فيها، وتصويت البرلمان البريطانيّ لتفويض الحكومة للقيام بضربات محدّدة ضدّ تنظيم داعش عقب استيلائه على مدينة تدمر.

سألني إن تمّ تخييري بين تنظيم داعش ونظام الأسد، أيّهما سأختار؟ نظرت في عينيه متمعّناً، شعر بنظرتي الاتّهامية له على اتّهامه المبطّن لي بأنّي أحمل بذور إرهاب ما في روحي، سواء كان ذلك ناتجاً عن تربيتي في ظلّ النظام القمعيّ، أو ظلّ نظام اجتماعيّ يطغى عليه الجانب الإسلاميّ، وذلك من دون أن يستطيع التمييز ما إن كنت موافقاً على إجرام هذا الطرف وإرهابه أم لا. افترض سلفاً أنّني مع أحدهما، أو أراد أن يحصرني في تلك الزاوية.

حين كنت أعيش هناك، في ذاك البلد الذي أبعد عنه آلاف الأميال جغرافياً، كانت لديّ كثير من الصور النمطيّة والأحكام المسبقة عن هنا؛ عن هذا البلد الذي أقيم بين ظهرانيه، وأعطاني جميع الحقوق التي يكفلها لي القانون كأيّ مواطن بريطانيّ، له ما له من الحقوق وعليه ما عليه من الواجبات.

من إحدى الصور النمطيّة التي كانت راسخة عند كثيرين من الوسط الذي كنت فيه، هو أنّ الجنس شائع بطريقة مرعبة، وأنّ الناس يمارسون الجنس في الشوارع، وأنّه يمكن للمرء العثور على بضع نساء في الوقت نفسه، ومرافقتهنّ إلى بيوتهنّ، وممارسة الجنس معهنّ على مرأى من أهلهنّ، دون أن يثير ذلك حفيظتهم أو غيرتهم. وكان يحلو لبعضهم؛ بعضنا حينذاك، أن يحيل سبب عدم وجود الغيرة عند الرجل الغربيّ بأنّه يتناول لحم الخنزير، وأنّ مَن يتناول لحم الخنزير تنعدم لديه الغيرة، ويصبح ديّوثاً لا يهمّه إن مارست أمّه أو أخته أو زوجته الجنس مع أحدهم أو لا.

صور نمطية، كارثية أخرى، كانت تحضر في الذهن، وتتكرّر بطريقة شائعة بين أناسنا هناك، هي أنّه بمجرّد وصول أحدهم إلى أوروبا فأنّه قد دخل الفردوس من أوسع أبوابه، بحيث يتمّ تصوير المكان على أنّه بطالة دائمة، نقود كثيرة تتدفّق من دون أيّ حساب أو مساءلة، ثروة ممكنة في زمن قياسيّ قصير، ناهيك عن تغيير الهوية في فترة قصيرة، وإمكانيّة استطيان البلد وممارسة نوع من استعمار معاكس عليه وعلى أبنائه، وبناته بشكل خاصّ.

هناك مَن ينبش إرث المستعمرين ويحاول العثور لنفسه، عبر نبش التاريخ وتراكماته الدمويّة، على ذرائع تبيح له ممارسة فحشه وكأنّه يمارس نوعاً من الانتقام لأجداده المفترضين، ويمضي في أوهامه إلى درجة يتخيّل نفسه الناهض بأعباء الثأر التاريخيّ، مكرّراً عن غباء منقطع النظير «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب»، متوهّماً أنّ حياته المتجدّدة في فردوسه المتخيّل الجديد وقصاصه المفترض من نساء البلد وأبنائه إحياء لذكرى سابقيه، وأخذ بثأرهم.

هناك مَن يعيش بجسده هنا، لكنّه يحرص على البقاء بعقله هناك، في ذاك الماضي المعتم، يبقي نفسه نزيل ظلمة التاريخ وظلاميّات أولئك البائسين من رجال دين يطلقون فتاوى قذرة بحقّ الآخرين المختلفين، يحلّلون دماءهم وأموالهم، وتراه ينتعش بينه وبين نفسه لمرأى البلد الذي يقيم فيه، أو مرأى جواره الأوروبيّ، منكوباً بحادثة إرهابيّة هنا أو هناك. وقد يصل به الأمر والغباء بينه وبين نفسه بوصف ما يجري بأنّه تحقيق لوعد الله لأتباعه من المسلمين الخلّص، وعقابه لأولئك الضالّين الذين حادوا عن الصراط المستقيم.

وهذا الذي يفكّر بهذه الطريقة البائسة، يضع نفسه ضمناً في إطار الفئة الناجية التي سيمنحها الله القوّة والسطوة والنفوذ ويعيد إليها الهيبة والرهبة وتكون الحاكمة بأمره، القائدة لبلاد الكفر والكفّار، المحقّقة فتوحات جديدة في القرن الحادي والعشرين، والمعيدة إلى الإسلام رونقه وجاذبيّته وسحره وقوّته.

هذا إن عكس شيئاً، إنّما يعكس التناقض السافر الذي يعيشه بعض المسلمين في الغرب، وتراهم يتقوقعون على أنفسهم، يحتفظون بثياب مهلهلة، وحرصون على الظهور بمظهر مَن ألقي خطأ به في مكان وزمان مختلفين لا يليقان به، لا يستطيع التأقلم مع تفاصيل الحياة الجديدة، يتوق إلى الاحتفاظ بما يتحصّل عليه من حقوق وأموال ومساعدات،

ويكره أولئك المانحين الذي يحمونه. إنّه لشعور مجنون يعمي البصر والبصيرة.

بالعودة إلى سؤال متحدّثي البريطاني عن إمكانية اختياري بين سيّئ وأسوأ، وكيف أنّ أحدهما يعادي بلداً، في حين أنّ الآخر يعادي الإنسانيّة كلّها، ومحاولته إبقائي في خانة المتّهم الذي يفترض به البحث عن إجابات تخرجه من قفص الاتّهام الذي ألقي به فيه.

وجدت من العبث الاستطراد في شرح إمكانية وجود طرق وخيارات أخرى غير التي يحاول تقييدي بها، وكيف أنّ الإرهاب يغذّي بعضه بعضاً، ويشكّل صدى لبعضه، سواء كان متخفّياً بعباءة الوطنيّة الفضفاضة، أو متقنّعاً بأقنعة الدين الزائفة المنافقة، وواقع أنّ الثورة نادت بمجتمع حرّ ديمقراطي كريم بعيداً عن إجرام النظام الذي فتك بالبلد لعقود، ونهب ثرواته، ومنع أيّ نهضة محتملة له، بالإضافة إلى قتله عشرات الآلاف في حروبه المستمرّة ضدّ الشعب، والإلقاء بعشرات الآلاف أيضاً في السجون، ثمّ زعمه حماية البلد حين منادة المتظاهرين بشعارات الحرّيّة والكرامة، وسعى جاهداً إلى تحويل الاحتجاجات السلميّة إلى أعمال عسكريّة، وكان بنفسه يسلّح جماعات معيّنة، أو يسهّل تسليحها، ليدفعها إلى المواجهة، ويزعم أنّه يحارب الإرهاب، في حين أنّه صانع الإرهاب ومصدّره إلى العالم. وأنّ مَن يقتل إنساناً يقتل الإنسانيّة كلّها.

انتابني شعور بالشفقة على سائلي، فهو ضحيّة صور نمطيّة بدوره، صور لا تختلف كثيراً عن تلك التي تشكّل حمولة قاهرة ثقيلة لكثيرين من أبناء بلدي الذين وجدوا أنفسهم في شوارع أوروبا ومدنها بعد تشرّدهم وتهجيرهم من مدنهم المدمّرة في سوريا، لم أفكّر في أن أعكس السؤال لسائلي، فهو متوهّم أنّ النظام علماني، يدافع عن الدولة، وصدّق جزءاً من التقارير الإعلاميّة التي توظّف الأخبار وتعيد صياغة المجريات وفق توجّهاتها السياسية وأجنداتها المعلنة أو المضمرة، بحيث يتمّ تحويل الجاني إلى ضحيّة، والضحيّة إلى جلّاد خطير.

لا أهتمّ باختيار طريقة للقتل والموت، ما يهمّني هو اختيار طريقة للحياة، وطرق الحياة الإنسانيّة كثيرة متشعّبة، لكنّ تجّار الحروب وزعماء المافيات الذين يحكمون العالم يحاولون إبقاء الناس بين خيارين يتيمين، ليظهرا له انعدام حيلته ووسيلته للحظوة بحياة كريمة.

لن أختار طريقة موتي، وعلى الرغم من أنّي أحيا في عالم موحش كئيب قاتم قاتل، إلّا أنّني أظلّ ألجّ بالبحث عن سبل للحياة، سبل للسعادة،

سبل للعيش المشترك، للحرّية التي تليق بجميع البشر في الشرق والغرب، لا تلك الحرّية التي يتخيل الطغاة أنّهم يتكرّمون بقسط منها على شعوب مقهورة وجدت نفسها رهينة ظروف تاريخية بائسة، وسجينة قيود كثيرة ستحتاج إلى زمن طويل حتى تحطّمها وتمضي في طريقها نحو اختيار طرق حياتها بعيداً عن إرهاب الساسة وتجّار الدين.

مسألة شائكة

عزيزتي أغاثا... أتذكّر ما كتبته عن النقاش الذي شاركت فيه مع بعضهم في المنطقة وتناولتم فيه مسألة الأديان بشكل عام، وقلتِ في كتابك: إنها مسألة شائكة في هذا الجزء الخاص من العالم، لأنّ سورية تحفل بطوائف متعضبة من كلّ الألوان، ترغب كلّ طائفة منها في جزّ أعناق الطوائف الأخرى لأسباب وجيهة! أسوق لك مفارقات أصادفها وأسئلة أتلقّاها كصفعات بين الحين والآخر، وأؤكّد لك أنّ الكراهيّة نيران مستعرة في مختلف الأصقاع، وتنهش أرواح البشر في كلّ مكان.

أودّ أن أناجيك سيّدة كريستي، وأنقل إليك بعض الأحداث والأخبار المتفزّقة من بلدك وعالمنا الذي رحلت عنه، بعد أن تخيّلت كثيراً من الجرائم في رواياتك، لدرجة أنّ بعضهم اتّهمك بتعليم بعض الغارقين في عالم الجريمة سبلاً احترافية لتطوير إجرامهم، وأنّك قمت بتحويل حياة شخصيّاتك إلى أدوات ووسائل لترتيب جرائم غريبة، وهندسة عوالم وتفاصيل فظيعة لتهدئ من الرعب وتحذّر من التالي.

لا أجد نفسي معنيّاً بتفسير رواياتك وتحليل غاياتك وتأويل مقاصدك فيها، وما إذا كان أدب الجريمة يظلّ منتعشاً في الواقع لأنّه صدى العالم الواقعيّ نفسه، وما إن كان سابقه أو لاحقاً عليه ومقلّداً له. الجريمة في الأدب مقصودة ومنشودة لتلوين ميدان الأدب الواسع، واختطاط مسار مختلف، يمزج الواقع بالخيال، يستخرج من النفس البشريّة أقسى ما فيها وأكثر ما فيها من وحشيّة لتنقل مشاهد متخيّلة عن واقع يتخطّى حدود الخيال نفسه بمفاجأتنا بالجرائم الغريبة العجيبة.

قبل تصويت البريطانيّين على الخروج من الاتّحاد الأوروبيّ، ظهرت مؤشّرات متباينة ومتناقضة، يمكن وصف بعضها بأنّه خطوة على مسار التعايش الواجب، وبعضها الآخر بالعدوانيّة والوحشيّة والإجرام.

حين اختير صادق خان المنحدر من أصل باكستانيّ كعمدة لمدينة لندن، استبشر دعاة البقاء في الاتّحاد الأوروبيّ خيراً بذلك، واعتبروها خطوة قويّة على طريق البقاء ضمن المنظومة الأوروبيّة وداخل الفضاء الأوروبيّ الشاسع بألوانه المختلفة. هناك مَن اعتبر الأمر حركة انتخابية لا تتجاوز لعبة الانتخابات ومقاصدها المعلنة والخفيّة.

اكتسب صراع البقاء والمغادرة صفة دمويّة ووحشيّة مع إقدام أحدهم يوم 16 حزيران 2016 على قتل النائبة العماليّة جو كوكس في بلدة بيرستال شمال انجلترا، وهتف بأنّ بريطانيا أوّلاً، وعرّف عن نفسه لاحقاً

في المحكمة بأنّ اسمه «الموت للخونة... الحرّية لبريطانيا».

أيّ بريطانيا هي التي يتخيّلها القاتل، وينادي بالحرّية لها؟ هل هي تلك التي تغرق في كراهية نفسها وغيرها وتغوص في عنصريّة مقيتة تكون وبالاً عليها؟ أي صور للجنون تخلق هذا الكمّ العنيف المرعب من الكراهيّة؟

شخصياً حزنت عليها بشدّة، صدمني الخبر، بقيت مصعوقاً، وعلى الرغم من أنّ الأرقام المرعبة للقتل والموت والدمار في بلدي سوريا تجاوزت حدّ الصدمة إلى التيئيس والدفع إلى التحجّر، إلّا أنّ وقوع تلك الجريمة أعادني إلى واقع مختلف، لا أقول إنّني كنت بعيداً أو منسلخاً عنه، بل كنت أعتقد أنّه بات من مخلّفات الماضي في هذا البلد الذي مر بحقب دمويّة في طريق التأسيس لديمقراطيّته الراهنة.

منذ عقود لم يكن هناك سجناء رأي في بريطانيا، لكن مع مقتل النائبة جو كوكس أطلقت صافرة إنذار مدوّية في الأرجاء، فالدولة التي أقرّت قوانين احترام الرأي وكفلته لم تتعدّ على ما أقرّته وكفلته، بل كان هناك ما هو أخطر، وهو عودة فكر الاغتيال السياسيّ نفسه إلى الساحة البريطانيّة. وتلك الحادثة ستؤرّخ لدروس جديدة في التاريخ السياسيّ المعاصر لبريطانيا.

تحفّظ كثيرون من خارج بريطانيا وداخلها على اتّهام المجرم الذي اغتال جو كوكس بأنّه مختلّ عقلياً ويعاني بعض الاضطرابات النفسيّة، لأنّهم اعتبروا هذه من الذرائع التي يتمّ تقديمها وتسويقها حين يكون المجرم في الغرب غربياً، أو أشقر بالمفهوم الشرقيّ، أو بطريقة أكثر دقّة وتحديداً، حين لا يكون مسلماً أو عربيّاً أو أوروبياً من أصل عربي أو أصل مسلم.

هل حقّاً هناك تخطيط لشيطنة العرب والمسلمين في الغرب وتحويلهم إلى يهود القرن الواحد والعشرين، وفرض غيتوهات عليهم في حلّهم وترحالهم وعزلهم في مناطق سكناهم بطريقة ما في أوروبا، وتشييد جدران عازلة مكهربة، وإن كانت لا مرئيّة لمحاصرتهم وتقييد حرّياته وحركتهم؟

هناك رأي سائد وإيمان يشبه اليقين بما يسمّى بنظرية المؤامرة في ذهن أبناء المنطقة العربية ومحيطها الجغرافيّ وشعوب منطقة الشرق الأوسط، ويتأتّى ذلك كنتاج تراكمات تاريخيّة من جهة، ونتاج إفقاد الثقة بالذات ونهش الشكّ النفوس، كما أنّه يستند إلى وقائع ملموسة من خلال ممارسات الغرب الاستعمارية وتسلّط حكوماته ودوله على المنطقة

وشعوبها، وتقسيمهم وتقاسمه كأنما يتقاسمون إرث آبائهم وأجدادهم، أو كأنهم يتوارثون حقاً من حقوقهم في سيادة العالم وقيادته.

هناك من يعتبر كوكس أيقونة التعايش والسلام، وهناك من اعتبرها ضحية جرأتها أو تهوّرها في نقد بعض السياسات والأفكار، وظنّ أنها ستغيّر العالم بممارساتها وأفكارها، وأنّ قاتلها رام اغتيال فكرها وهو يغتال جسدها.

أتفكّر في معاني البطولة والفداء، ومعاني المحبّة والكراهية في اتّجاه آخر، وأنا أستذكر بعض الأحداث المتفرّقة هنا وهناك والتفاصيل التي تساهم في تلوين لوحة حياتنا المعاصرة، فمَن يكون بطلاً في عرف شعب أو قوم أو جهة قد يكون ملعوناً في عرف آخرين.

ما يزال الاختلاف قائماً بين شرائح في المجتمع البريطاني ما إن كان الإيرلندي بوبي ساندز (1954- 1981) بطلا أم مجرماً، وهو الذي اعتقلته السلطات البريطانية على خلفية مشاركته في السعي والنضال من أجل تحرير إيرلندا من الحكم البريطاني، وحكمت عليه بالسجن لسنوات، وقضى في السجن في اليوم السادس والستين لإضرابه عن الطعام عن عمر 27 عاماً في 1981، وخلف عدداً من الكتابات التي سربها من سجنه، وكتبها عن واقع حاله وآماله وأحلامه ومعاناته، عن قهر السجن وعن الظلم الذي عاناه فيه.

كان ساندز ينظر إلى الجهة الأخرى من السجن، يحاول تخيل ما هناك في فضاء الحرية، فيداهمه اليأس مجدداً، كان يحدث نفسه أنه ما إن ينظر حوله في القبر الذي يعيش فيه حتى يشعر بأنه محاط بالجحيم، حوله أولئك الشياطين المسوخ على هيئة السجانين، وهم على أتمّ الاستعداد للانقضاض عليه في كلّ دقيقة من دقائق اليوم الكابوسي تماماً.

هل كان وحشاً بهيئة بطل؟ هل كان إنساناً بطلاً حوّله أعداؤه إلى وحش فتك بنفسه حين لم يمتلك القدرة على الفتك بهم؟

كان تعاطف كوكس ومناصرتها للاجئين السوريّين، وموقفها من الحرب الدائرة في سوريا، وتأييدها حقوق الشعب السوريّ في الحرّيّة والتخلّص من الطغيان والاستبداد، من الأمور والتفاصيل التي جعلتها قريبة من قلوب كثير من الناس، واللاجئين منهم بشكل خاص، كانت تمثل نموذج المرأة السياسيّة التي تغلّب إنسانيّتها على المصالح وتضعها فوق كلّ الاعتبارات، ولعلّ هذا ما دفع قاتلها إلى اغتيال إنسانيّتها وهو يغتال جسدها.

هل يعني ذلك أننا أمام اجتياح خطاب كراهية قاتل في المستقبل القريب؟ هل تصويت البريطانيين على الخروج هو انتصار لقاتل جو كوكس وتوجهاته أم أنه تقاطع مصادفات لا غير؟ هل سنشهد يوماً ما انتصار القيم على المصالح وألاعيب السياسة؟

هناك أنواع متفاقمة مرضية من الكراهية المجتاحة القاتلة. هناك نموذج كراهية الغريب للغريب، أو اللاجئ للاجئ، وتتحوّل مقولة إنّ الغريب للغريب نسيب، أو قريب، إلى أنّ اللاجئ للاجئ غريم أو منافس.

مثال على هذه الحالة تجاه الآخر، اللاجئ الجديد، أو اللاحق الذي يمرّ بظروف مشابهة للتي مرّ بها السابق، تصويت عدد من أبناء المهاجرين، وأبناء الجاليات، سواء كان من الجيل الأول أو التالي على مغادرة بريطانيا الاتّحاد الأوروبي، بحجّة أنّها ستكون مفيدة أكثر لهم، وأنّ الساحة ستخلو لهم فيها، وسيتنعّمون بمزايا اللاجئين وامتيازاتهم أكثر ولن ينافسهم عليها مهاجرون أو لاجئون آخرون.

هنا تكون كراهية الآخر دليلاً على بؤس الذات المقهورة، وإثباتاً على قصر النظر وعمى البصائر، ونوعاً من تكالب الضحايا على بعضهم بعضاً، وتحوّل بعض الضحايا إلى جلّادين لضحايا آخرين يتماهون معهم في الظروف والأحوال.

في سياق استذكار ألاعيب السياسة وخداع السياسيين لأنفسهم وشعوبهم، وتنكّرهم لقيم ومبادئ نهضت عليها دولهم وحضاراتهم، ألفت النظر إلى حادثة تغطية التماثيل الكلاسيكية العارية في متحف كابيتوليني في إيطاليا في أثناء زيارة الرئيس الإيراني حسن روحاني إليها في أواخر كانون الثاني 2016، ومراضاة السلطة هناك لأوهام الإيراني الذي وقع مع رئيس الوزراء الإيطالي ماتيو رينزي في المتحف على عقود بين الشركات الإيطالية والجمهورية الإسلامية بلغت قيمتها 17 مليار يورو.

هل يعني لك هذا الخبر شيئاً؟ كيف يمكن أن تصنّفي هذا الفعل في أدب الجريمة الذي واظبت على تأليفه؟ هل يمكن أن تشكّل تلك الحادثة التي تمّت فيها تغطية التماثيل بصناديق بائسة شرارة لاغتيال التاريخ والحضارة من أجل المال والاتّفاقيات والعقود المغرية؟ هل تتمّ المسايرة والمداهنة والمخادعة على حساب تشويه الحضارة والتنكّر لقيم الإنسانية؟ هل حقاً قد يخجل الرئيس الإيراني من رؤية تماثيل تبدو عارية وهو الذي لا يخجل في مناصرة أنظمة الاستبداد التي تفتك بشعوبها، وهو الذي

يشارك بقوّات مباشرة من بلده في قمع السوريّين؟ هل يخجل من مشاهدة تمثال ولا يخجل من قتل آلاف البشر وتشريد الملايين بسياساته وممارسات قوّات بلاده؟ أين يتموضع الحقّ والواجب من جهة، والعيب والعار من جهة أخرى في مضمار السوق العالميّة السوداء ودهاليزها المعتمة؟

استبطن تحجيب التماثيل بؤساً فظيعاً لدى الأوروبيّ الذي بدا أنّه ينبطح أمام إغراء الذهب وبريق المال الذي يسيل له لعابه، آثر التضحية بقيم نشأت عليها حضارة بلاده، وتغاضى عن إزعاج ضيفه الإيرانيّ، لا تقديراً لحقوق الضيافة، بل استدراجاً له إلى الفخّ، لكنّه الفخّ الذي أوقع نفسه فيه، وأساء إلى حضارته وتاريخه.

قد يقول بعضهم إنّ المصالح تقود الحكومات والأنظمة، لكن في مقابل ذلك، هل تتحوّل تلك الحكومات للتفكير بذهنيّة العصابات لتؤمّن مصالح بعينها، وهل ينطبق على كثير من الحكومات توصيف بعضهم بأنّها عصابات نظاميّة تتقنّع بأردية القوانين التي تقوم بنفسها بصناعتها وإقرارها بما يتناسب مع مصالحها ونفوذها؟

أذكر أنّ فرنسا رفضت اتخاذ بادرة مماثلة خلال زيارة روحاني إلى باريس، وأذكر أيضاً أنّها تعرّضت لعدد من الجرائم الإرهابيّة بين وقت وآخر، ووقع ضحيّتها كثير من الأبرياء... ألا يحيلنا هذا ولو بشكل متوارٍ إلى دور محور الشرّ، الذي يمثّل النظام الإيرانيّ أحد أذرعه، في تعميم الشرّ في العالم؟

لا يكاد يمرّ وقت قصير حتّى ينشغل الإعلام بحادثة إرهابيّة هنا أو هناك، وتكتسب الحوادث أهمّيّة حين تكون في أوروبا أو أمريكا، فإقدام أحدهم على ارتكاب جريمته الإرهابيّة ينعكس سلباً على آلاف أو ملايين الناس، ويتمّ تجريم كثيرين بناء على الظنّ، فيصبح اللاجئ موضع تشكيك واتّهام، ويبقى باحثاً عن أحقّيّة أو جدارة بالبراءة، يكون البريء المطالب بإثبات براءته، يعامَل بطريقة ما كمتّهم مشكوك بأمره، أو إرهابيّ مقنّع محتمل، أو قنبلة لا يدري أحد متى يقرّر نزع مسمار أمانه بنفسه ليفجّر نفسه ومحيطه.

يتلاعب الإعلام بالعقول، يضخّم حوادث صغيرة حين يسلّط الأضواء عليها، يبقيها تحت مجهر المعالجة والمقاربة والتحليل والتفكيك موحياً بأنّها عظمى القضايا في هذه الفترة أو تلك، ثمّ ينتقل للتغذّي على حكايات وأخبار بعينها كلّ مرّة. يرسم الإعلام للناس طريقة تفكير ويحدّد مسارات

التحرّك ويقترح حلولاً أو سيناريوهات المقاربة.

حين ركّز الإعلام العالميّ على صورة الطفل الغريق آلان الكرديّ وهو ملقى على شاطئ بحر إيجة، تعاطف العالم كلّه معه، وقد كانت صورة مؤلمة، طفل غارق ببراءته المطلقة، ولكن كانت هناك صورة لأخيه وبعض الغرقى أيضاً لم تستحوذ على الاهتمام والمتابعة والتعاطف.

بتحليل جانب التعاطف وخطاب استدراج التعاطف نفسه، يمكن ببساطة العثور على سبل صناعة رأي متعاطف مع قضية اللاجئين عبر صورة لطفل بريء، لكن يتمّ تهميش وإهمال قضيّة أكبر وأهمّ وهي أسباب دفع اللاجئين إلى الهرب من بلدانهم، وكذلك سبل إيقاف الحروب الدائرة هناك والكوارث التي تنتجها.

صورة الطفل السوري عمران ونظرته الذاهلة التي صدمت العالم، ودمعة مذيعة قناة «سي إن إن» الأميركيّة التي تأثّرت بها، وتعليقها بعدم معرفتها مَن قصف بيت الطفل، كلّ ذلك لم يتجاوز دائرة التأثّر العاطفيّ، ولم يجد اختيار صورته في الصفحة الأولى لأهمّ الصحف العالميّة في التخفيف من الأذى المتفاقم الذي يجتاح سوريا كلّها.

لم تستحوذ صور مئات الأطفال الذين قضوا بالغازات الكيماوية التي استخدمها النظام السوري في الغوطة الشرقية في دمشق، وفي حلب ومناطق أخرى من سوريا، على اهتمام وسائل الإعلام كما استحوذت صورة الطفل آلان أو عمران، وكلّ منهما يستحقّ التعاطف والتأثّر يقيناً، لكن ماذا عن أولئك القتلى الآخرين الذين لا أحد يهتمّ بتصويرهم، وإن ظهرت صورهم فهي قد تخدش مشاعر المشاهدين، وبخاصّة منهم الغربيّين، لذلك لا يتمّ عرضها بشكل كامل، أو يتمّ اجتزاء مقاطع منها وعرضها بما يبقيها بعيدة عن التركيز المنشود.

ربّما هي حوادث متفرقة من الشرق والغرب، لكنّها تنقل لك يا سيدة كريستي مشاهد من عالمنا من بعدك، يمكن لشخصيّات رواياتك الحيّة استكمال دربها في عالم الجريمة المستمرّة والمتصاعدة يوماً بيوم في عالمنا الحديث، وهي تستمتع ببراءتها وبأنّها كشخصيّات متخيّلة تلبّست أردية واقعيّة وتجسّدت بطريقة أقلّ إجراماً من العنف الذي يسود الأجواء ويفسدها.

لست بصدد إغراق التفاصيل بالتحليلات، وإطلاق الأحكام والاتّهامات هنا وهناك، لكن أنقل بعض ما أعشر به إزاء ما وقع ويقع، وهو يؤثّر بطريقة مباشرة عليّ وعلى أهلي وبلدي، وعلى أسرتي العالميّة التي بتّ أنتمي إليها

بعد خروجي من بلدي، أسرتي التي أصبح لها منتخب عابر للحدود، وهويّة لا تنتمي إلى مكان بعينه، وثقافة تتجاوز الثقافات، وأوجاع تتجاوز الأزمنة والأمكنة والحدود أيضاً.

بينما أعيد مراجعة هذا الفصل، كانت هناك حوادث إرهابيّة متفرّقة قد وقعت في لندن ومانشستر، وهي تنذر بأنّ جسور المحبّة تذوي كقطع ثلج متروكة بجانب نيران مستعرة. نيران الكراهية تنهش وتدمّر. كما أنّ هناك كراهيّة تبدو كجمر تحت الرماد تستعر رويداً رويداً في محيطي هنا في بلدك الذي لا تعرف ابنتاي سواه بلداً لهما... حتى الملحد بات يكرّر: الله يسترنا!

أن تصبح منبوذاً

عزيزتي أغاثا، لا أدري؛ هل شعرت بأيّة مشاعر نبذ وأنت تجولين في بلادي هناك قبل عقود؟ هل أصبحت منبوذة في نظر نفسك وأنت تلتقين بالناس وتترجمين نظراتهم إليك؟ هل كنت تحوّلين ما تصادفينه من جنون وقهر وضياع إلى جرائم موظّفة متخيّلة في أعمالك تنفّسين بها عمّا يمكن أن يشعل شرارات الحقد تجاه الآخرين؟

ربّما وجودك المؤقّت هناك كان يمنحك حماية ضدّ النبذ لأنّك كنت تملكين خيار العودة لبلدك في أيّة لحظة، وهذا ترف لا يملكه اللاجئ في أغلب الأوقات، فهو محكوم بالعيش «هنا» والحلم بـ«هناك». لا أشكّ أنّ الإنسان عالم غرائبيّ معجون من النقائض التي ترسم صورته الداخليّة وتبقيه سائراً في مدار المتاهة حول ذاته.

كثيراً ما تكون هناك مشاعر نبذ متعاظمة في نفس اللاجئ، يجد نفسه مقتلعاً من جذوره باحثاً عن تربة تحتضنه وتهيّئه لمستقبل مأمول. أن تصبح لاجئاً يعني أن تصبح مذعوراً، أن تصبح منبوذاً، أن تصبح رهين ذاكرتك وذكرياتك وحنينك، ومهما حاولت قمع مشاعرك وحاولت التركيز على طريق حياتك والأفق الذي يلوح أمامك وما يلحّ عليك من واجبات حياتيّة، فإنّك لن تتحرّر من سطوة ذعرك الداخليّ.

لا أخفيك أنّني كثيراً ما أصادف بشكل يوميّ عدّة دوريّات للشرطة تتنقّل من مكان إلى آخر، وأسمع دويّ صفّارات إنذارها وهي تسرع بهذا الاتّجاه أو ذاك، ويجتاحني شعور بالخوف من دون أن أجد تبريراً له، وحين أصرّح لزوجتي أنّ رؤية الشرطة تصيبني بالذعر، أشعر بنفسي متّهماً من دون أن أكون قد اقترفت شيئاً.

لعلّني لم أفلح بعد في تخطّي الرهاب الذي تجذّر في داخلي تجاه أجهزة المخابرات والشرطة في بلدي. كانت تلك الأجهزة عدوّ المواطن. كأنّما كان يتمّ تجريع عناصرها فكراً مسموماً بالحقد يوجب عليهم اعتبار جميع المواطنين مجرمين وأعداء ينبغي الإيقاع بهم والانتقام منهم.

لا أشكّ في أنّ اللاجئ كائن مذعور ومتّهم بطريقة لا شعوريّة. تلعب المصادفات دوراً أكثر في زيادة إحراجه وإرباكه. حضرت لقاء لأولياء الأمور مع أطفالهم الذين سينتقلون من الروضة إلى الصفّ الأوّل الابتدائيّ، اخترت مع زوجتي الجلوس في الصفوف الخلفيّة في قاعة المدرسة المخصّصة للقاء، وددتُ أن أتجنّب الاستعراض والظهور، ولا سيّما أنّ قدرتي على التعبير بالإنكليزيّة محدودة أمام أبنائها الناطقين بها، فضّلت

أن أتابع المجريات من دون أن أخوض في أيّ نقاشات أو ألقي أيّة أسئلة.

كانت الكراسي الموضوعة للجلوس من تلك الأنواع الخفيفة، وحين جلست على أحدها، توجّست خيفة ألّا تصمد تحتي، وأنا الذي ازداد وزني كثيراً في السنوات الأخيرة، وبعد دقائق بدأت ابنتي الصغرى روز بإثارة بعض الحركة والشغب، وبدأت بلفت الأنظار إلينا قليلاً، ولا سيّما أنّ أختها هيفي ذهبت مع معلمتها ومجموعة الأطفال الذين وردت أسماؤهم معها. حاولت إلهاء روز برفعها قليلاً كي ترى المسرح من فوق رؤوس الناس الجالسين أمامنا. هدأت قليلاً، لكنّها طالبت أن تقف على ركبتيّ لترى أكثر، كانت الموسيقى تصدح والأطفال يرقصون على أنغامها وإيقاعاتها، فبدأت هي أيضاً بالتمايل والتراقص وأنا أمسكها من يديها، وأحاول أن أبقيها متوازنة على ركبتيّ. فجأة ومن دون أيّ إنذار سمعت دويّ تحطّم الكرسيّ من تحتي، ووجدت نفسي ملقياً على الأرض.

كان صوت تحطّم الكرسيّ مزعجاً وصادماً. التفت الجميع إليّ. ازددت حرجاً وارتباكاً أكثر. أشرت إليهم أنّني بخير وليس هناك أيّ ضرر أو أذى. خشيت من الصور النمطيّة التي قد تخطر للأوروبيّين حين يلتقون أحداً من ذوي الخلفيّة الإسلامية أو الشرقيّة، ولاسيّما أنّ شكلي بشعري الأسود وبشرتي الحنطية وملامحي الشرقيّة يشي بي. وأنا ملقى على الأرض قرأت في عيون الناس ذعراً كبيراً، ولا سيّما أنّ هناك عدّة حوادث إرهابيّة كانت قد وقعت مؤخّراً في لندن ومانشستر... قلت في نفسي: اللاجئ مفضوح مهما حاول مداراة حرجه وارتباكه.

وكأنّني كنت أقرأ فصلاً من حاضرنا حين كنت أقرأ كتاب «ذبابة في الحساء» للأمريكيّ من أصل صربي تشارلز سيميك (بلغراد 1938)، وهو يحكي محطات من حياته، وبخاصة تلك المتعلقة بتجربة اللجوء والاغتراب. لفت سيميك إلى أن حلمهم لم يكن يتجاوز مدينتهم بلغراد، وأن أسرته مثل أسر أخرى كثيرة تمكنت من أن ترى العالم مجاناً، والفضل يعود لحروب هتلر وسيطرة ستالين على أوروبا الشرقية. يقول إنهم لم يكونوا متعاونين مع الألمان، ولا كانوا من المنتمين إلى الطبقة الأرستقراطية، كما لم يكونوا بأي معنى من المنفيين السياسيين. يقول إنهم كانوا عديمي الأهمية، لم يقرروا شيئاً لأنفسهم، إن كل شيء رتبه قادة العالم في وقتها.

عشت في أكثر من موقف فحوى مقولة سيميك: إن الهجرة، المنفى، أن تكون بلا جذور وأن تصبح منبوذاً، ربما يكون ذلك أكثر الطرق المبتكرة

لإقناع الفرد بالطبيعة الاعتباطية لوجوده أو وجودها.

كنت أنبذ نفسي من دون أن يتراءى لي أي نبذ في نظرات الآخرين إليّ. أصبحت حسّاساً لدرجة كبيرة إزاء كلّ تفصيل يصادفني. أقوم بتأويل نظرات الناس العفويّة بأنّها نظرات ازدراء وتشكيك، وأودّ لو أستطيع أن أبرّر لهم أسباب وجودي بينهم.

أتفهّم تماماً ما كتبه سيميك عن مشاعره حيال تبرير وجوده أمام نفسه، وكيف اتضح له أنه لن ينجح في الحياة بالطرق المعهودة، لهذا كتب ورسم. لم يكن يعرف ما الذي سيفعل. يذكر أن حياته السابقة علمته أن التخطيط للمستقبل مضيعة للوقت، وأن والده اعتاد أن يسأله مازحاً: «إلى أين ستهاجر المرة القادمة؟». ويقول بأسى: «إن تجربة القرن العشرين في المنافي ما زالت مستمرة». يكتب: «مَن هم مثلنا كانوا حيوانات تجارب. أغرب ما في الأمر، أن يقوم واحد من فئران التجارب بكتابة الشعر».

يتعذّى تبرير الوجود لدى بعض السوريّين في أوروبا حالة الإقناع لتصل إلى حالة مرضيّة من التقنيع، يصبح اللجوء قناعاً يضعونه ليخفوا به عوراتهم السابقة، وما اقترفوه في ماضيهم من أخطاء وخطايا، وأحياناً جرائم، وكأنّ مرحلة اللجوء تجبّ ما قبلها، وتمحو ذاكرات الناس أو تفرض عليهم النسيان.

هناك مَن يواظب على تضخيم أفعاله البطولية ونضالاته السابقة، ولا يني يبالغ في تعظيم الأدوار التي لعبها في حوادث مختلفة، ولا يعدم التذكير بأسماء شهود على تلك الأدوار البطولية، وربّما يكون أغلبهم من الراحلين، أو من شلّته الفاسدة مثله، فتكون حالتهم مثار سخرية ورثاء وقرف أكثر من إقناع، ويكون غالباً القول المنطبق عليهم إنّ شاهد الثعلب ذنبه.

يلحّ عليّ سؤال عن كيفيّة تبديد مشاعر النبذ التي تستوطن روح اللاجئ وتستبيح كيانه. أجد أنّ الزمن دواء لكلّ أدواء اللجوء، فهو كفيل بتهيئته لإعادة ترتيب نفسيّته وبناء شخصيّته بصيغة تجمع بين ما كان عليه وما ينبغي أن يصبحه، وبعيداً عن أن يظلّ المنبوذ الذي يستشعره في أعماقه، يكون عليه اختبار انتمائه الجديد للمكان الذي يشعر فيه بإنسانيّته ووجوده، لا بشيئيّته كما كان في ظلّ أنظمة القتل والإرهاب والإجرام.

لا مناص لمَن يبحث عن تحويل ملجئه، مغتربه، منفاه إلى مكان يشعره بالأمان والثقة والطمأنينة النسبيّة، التحرّر من مشاعر النبذ وأحاسيس الذعر والشكّ والخوف من كلّ التفاصيل والنظرات والأشياء والأشخاص

لأنّ ذلك عتبة أولى لتخطّي الجسر الفاصل بين الاستقرار والاستلاب، بين الذات المهدورة والحلم بالسلام والأمان والمسعى إلى تحقيق سعادة منشودة. لا يمكن لمن يبقي نفسه أسير مشاعر الكره أن يتحرّر من النبذ والعدوانيّة، لأنّه سيجد كلّ شيء معادياً له، يشعره بالنفور والتقزّز.

أصادف أحياناً بعض اللاجئين يحملون ضغينة غير مبرّرة على البلد الذي آواهم واحتضنهم ومنحهم ما حرموا منه في تلك البلاد التي يفترض بأنّها كانت أوطانهم. ولعلّ من المثير للاستغراب والأسى معاً هو التشفّي الذي يلمحه المرء في أقوال أو كتابات بعضهم في أثناء ضرب الإرهاب لهذا البلد الأوروبي أو ذاك، والمفارقة أنّ المتشفّي يكون حاملاً لجنسيّة البلد الذي يتشفّى به ويسعد ضمنياً، وربّما علنياً، بدفعه ما يصفه بضريبة الفساد الذي يغمره، وأنّ على هؤلاء الناس؛ أولئك الذين عاملوه بإنسانيّة واحترام، أن يعانوا مثله الرعب الذي عاناه في ماضيه ويذوقوا مرارته ويتجرّعوا من كأس الإرهاب الذي صدّروه إليهم. يعادي بإطلاق ولا يمنح نفسه فرصة التفريق بين سياسات الحكومات التي تتعامل بمنطق المصالح والنفوذ، والناس الأبرياء الذين لا يحلمون بغير الأمان والحياة الحرّة الكريمة.

لا يخفى أنّ نظرات التشفّي تنقلب على أصحابها؛ الذين يعيشون على معونات البلد الذي يعادونه في قرارتهم، وتبقيهم منبوذين دائمين في نظر أنفسهم وأنظار غيرهم، لأنّهم يستعذبون حالة النبذ والقهر، يعضّون الأيدي التي انتشلتهم من مستنقع الضياع وآوتهم ووفّرت لهم وسائل العيش الكريم. يخونون أنفسهم في ولائهم البائس لخيالاتهم المريضة وأحقادهم الموبوءة.

كنّة الغرباء

حُبّكَ الأوطانَ عجـزٌ ظاهرٌ	فـاغتربْ تلقَ عن الأهلِ بَدَلْ
فبمُكثِ الماءِ يـبقى آسنـاً	وسَـرى البدرِ بِهِ البدرُ اكتملْ

لامية ابن الوردي

عمر بن المظفر، ابن الوردي.

هنالك مثل كرديّ يقول:

Xwezî ez bûka xerîba bama û min pesnê mala bavê» «xwe daba

ويرد بما معناه: ليتني كنت كنّة الغرباء ومدحت عائلة أبي. ويرد المثل في سياق التباهي بأمور وأشياء لا وجود لها، يخترعها المرء ليضفي على نفسه قيمة ويبحث لنفسه عن اعتبار، وإن كان من خلال التضليل والإيهام. والإشارة إلى المرء البعيد عن أهله وأسرته وبلده، والذي يختلف لنفسه تاريخاً لم يكن، كأن يدّعي أنّه كان ابن عائلة مجيدة وثرية، أو أنّه كان عماد عائلته، ومركز الاهتمام والثقل في محيطه، وذلك بحثاً عن تقدير يراه مستحقاً أو اعتبار لا يناله في واقعه، فيكون اختلاق الماضي المعظّم وسيلة له لتجميل واقعه ودفعه نفسه إلى الصدارة والرفعة في مستقبله المأمول.

ربّما ينطبق هذا المثل على كثير من اللاجئين في بلاد اللجوء. أصادف في كثير من الأحيان أناساً من مختلف المدن، يبتدعون ماضياً مجيداً لأنفسهم، يوهمون بعظمتهم السابقة، ويلعنون خيانة الدهر لهم، وكيف تلاعبت بهم الأنواء وأودت بثرواتهم وأمداهم وألقت بهم في المنافي يجترّون أحزانهم، أو يتذكّرون أمجادهم التي تبقي عظمتهم مديدة وخالدة في أذهانهم.

هذا الذي يقول إنّه كان يملك مصانع ومعامل في أكثر من مجال، وذاك الذي يستذكر قصوره وممتلكات عائلته وما ورثه عنها وما فقده في الحرب، وكيف أنّه «عزيز قوم ذل». وثالث يبتدع أساطير عن ماضيه وثرائه وأعماله وكيف أنّه اضطر إلى ترك كلّ شيء خلفه والخروج إلى الغربة... وأمثال هؤلاء ينتظرون من الآخرين أن يصدّقوهم، أو يبدؤوا بالتعامل معهم على أساس تاريخهم المزوّر ذاك.

لا يحتاج المرء إلى سماع أيّة مباهاة وتعظيم لماضٍ لم يكن له وجود إلّا في أحلام أصحابها وخيالاتهم، لأنّ واقعهم يكون أكثر تعبيراً عن أيّ

حديث أو اختلاق، ولا يتعلّق الأمر بواقع العيش بل بواقع الفكر الذي يحملونه كإثم لا يمكنهم التحرّر منه، بل على العكس يضخّون فيه تجديداً بابتداع الحكايات وتلفيقها وتركيبها على شخصياتهم الماضية، وتراهم يستغلّون جهل الناس بهم وعدم القدرة على الوصول إلى منابتهم واكتشاف شخصياتهم الحقيقيّة وأمجادهم الخلّبيّة الزائفة.

يفقد المرء اعتباره وتقديره حين يبحث عنهما في بحر التضليل والإيهام والتلفيق، ومهما تحدّث عن أمجاده فإنّ أفكاره وممارساته تفضحه، وتكشف حقيقته التي هي مرآة واقعه وشخصيّته. يحضرني هنا قول الشاعر ابن الوردي: «لا تقل أصلي وفصلي أبداً/ إنّما أصل الفتى ما قد حصل». والتحصيل هنا يشير إلى أكثر من معنى، ويحلو لي أن أتخيّل بأنّ السموّ الإنساني هو الأبلغ من بين المعاني كلّها، فهو الذي يتقدّم على أيّ تحصيل آخر.

هل اللاجئ «كنّة الغرباء» التي تتباهى بإرث عائلتها التليد غير الموجود أصلاً، في حين أنّها مكشوفة لمحيطها، وبالأخص عائلة زوجها التي تراها في واقعها وتكشفها في ممارساتها وأفعالها، ولا تحتاج إلى أيّة حكايات عن عظمة عائلتها، فالعظمة تتجلّى في السلوك لا في المزاعم.

يحاول بعض اللاجئين إخراج نفسه من خانة اللاجئين ليضع نفسه في مرتبة الأمراء والملوك المنفيّين على الرغم منهم، وأنّه بصدد العودة إلى دياره ليعيد تشييد مملكته التي فقدها، ويعيد أمجاده الغابرة، في الوقت الذي يضيّع واقعه ويفقد أهليّته لمستقبله لأنّه لا يعدّ له العدّة اللازمة، لا يحارب من أجل الحظوة بعيش لائق، ولا يعني العيش اللائق جمع النقود، بل يعني تأثيث الحياة بالعمل والفاعليّة وتوسيع دائرة التواصل والتأثير، والسعي لتحقيق النجاحات في مختلف المجالات التي يخوضها أو ينشدها، وبناء أساس واقعي صلب لحياته بعيداً عن أيّ تلفيق أو تزوير أو تخييل.

لا يخفى أنّ تعاطي اللاجئ مع مكانه الجديد انطلاقاً من خلفيّة ثقافيّة وفكريّة بائسة لا تكفل له أيّ اندماج مع محيطه، بل تبقيه في حالة عداء مع ذاته وعالمه الجديد. فهناك أمثال تحرّض الغريب على التخريب، كالمثل القائل: «إذا بلد مو بلدك اخرا فيها وامشِ». وهذا المثل ينطلق من تراكم أحقاد لا مبرّر لها على أماكن جديدة ستغدو للغريب بمثابة وطن بديل، وهذا التحريض الثقافي التاريخي على العبث بسلامة المكان، إقلاق راحة أهله، مثار تساؤل ونفور في الوقت نفسه.

في الجهة المقابلة، ربما ينطبق على عالم اللاجئين قول كان شائعاً ودارجاً في الجيش، وهو أنّ المكافأة فرديّة والعقوبة جماعيّة. فأن ينجز عنصر ما إنجازاً لافتاً أو يؤدّي فعلاً مميزاً فإنّه يكافأ على إنجازه وتميزه، وإن ارتكب أحدهم غلطة ما، أو أخطأ في أمر، أو شاغب، فإنّ المجموع كلّه يعاقب معه. وقد تكون هذه طريقة من طرق التأديب، بحيث أنّ الجماعة تبدأ بنبذ المخالف الذي يتسبّب لها بالعقوبات، ويقلق راحتها، وتبدأ بمحاولة عزله، أو قمعه، لتحمي نفسها من العقوبات المحتملة.

في بلاد اللجوء يتمّ تطبيق تلك الطريقة في المكافأة والمعاقبة، ولا تكون العقوبات مباشرة وبطريقة سلطويّة منفّرة، بل تكون بأسلوب حداثيّ يتوافق مع تركيبة المجتمع وبنيته، فالنبذ والازدراء من أدوات المعاقبة غير المعلنة. فأن يقترف أحد اللاجئين جريمة ما فإنّه يتسبّب بالحرج للجماعة التي ينتمي إليها، ويكون التصنيف وسيلة للتعريف وإطلاق الأحكام تالياً أو تطبيق القيود والحدود بطريقة ما.

على سبيل المثال، راجت مقولة لرئيس الوزراء البريطانيّ السابق ديفيد كاميرون في الإعلام البريطانيّ والعالميّ ذكر فيها أنّ هناك نسبة قليلة من السوريين متعاطفة مع داعش والجماعات الإسلاميّة والمتطرّفة. واستجرّت مقولته غضب كثيرين، لكن في واقع الأمر لا بدّ من مواجهة الذات، والقول بأنّ تلك التنظيمات الإرهابيّة نتاج واقع إرهابيّ أفرزها، وجاءت أسباب ذاتية وموضوعية لتشكلها وإطلاقها.

تلك النسبة هي الخطر الأكبر في التصنيف، فالشك يحوم حول الجميع بإمكانيّة الانحدار إلى تلك النسبة أو الانتماء إليها، وعليك أن تثبت أنّك تحتقر تلك النسبة، وإذا ما بالغت في محاولاتك التبرّؤ منها فقد ينقلب الأمر إلى النقيض ويكون سبباً للفت الأنظار إليك أكثر والتحقّق من أنّك لا تمثّل دوراً تضليلاً معيّناً في انتظار اقتراف الجريمة التي تنوي في لاشعورك التخطيط لها أو تنفيذها.

أن يحقّق لاجئ ما تميزاً في مجال ما فإنّ ذلك يعزى إلى الظروف التي هيأها له البلد المضيف، الذي احتضنه ورعاه وكفل له أسباب التميز والنجاح، أمّا أن يُقدم أحدهم على فعلة منكرة فإنّه يشار إلى بيئته الحاضنة السابقة التي رعته وأطلقته ليكون خطراً على الجميع، ويؤثّر بطريقة سلبيّة في الآخرين الذي يتمّ تصنيفهم تبعاً له، أي أنّ مقصلة الأحكام الشفاهيّة والمسبقة المضمرة تعلن عن نفسها بشكل سافر.

في البلاد التي وصلت إلى مستويات متقدّمة في التركيز على

الخصوصيّة والاستقلاليّة يتمّ تعميم الإثم عبر الإشارة إلى الخلفيّة الاجتماعيّة والثقافيّة والانتماء العرقيّ والدينيّ والجغرافيّ، ويكون التعميم المناقض للقيم التي يزعمها المجتمع تجلّياً صارخاً للتناقض التي تساهم بدورها في رسم واقع جديد مختلف.

إن كان يقال عادة إنّ المتّهم بريء حتّى تثبت إدانته، فإنّ على العكس من ذلك، يكون اللاجئ متّهماً حتّى يُثبت براءته. أمّا كيف يكون متّهماً فهذا أمر آخر له تجلّياته وصيغه الكثيرة في الواقع.

يبدو أنّ القوانين العسكريّة التي كان يعمل بها في الجيش يتمّ العمل بها في المجتمعات التي توصف بالمتحضّرة أيضاً، فلاجئ اليوم كعسكريّ الأمس، يكافأ فرديّاً على إنجازاته، ويوضع في دائرة الاتّهام إذا ما ارتكب أحد اللاجئين من دولته أو ديانته أو ممن يقتربون منه في الشبه عموماً أيّة جريمة، فيكون أمام نظر المحيطين به متّهماً عليه إثبات براءته، وقد يقابل بتشكيك إذا ما بدأ بدفاعه عن نفسه في وجه نظرات التشكيك المصوّبة إليه.

منطق التخلي

تساهم التجارب المتراكمة لدى المرء في بلورة قناعات خاصة به، قد يتغير على إثرها من حال إلى حال، وتلك التجارب الحياتية تزيده خبرة ومراساً، وتكشف له عن جوانب ما كان ليلتفت إليها لو لم يمز بتلك التجارب التي لم يخترها. تبقى الحياة مدرسة التجريب لا تفتأ عن إعطاء الدروس وإنتاج العبر.

كان هناك منطق يحكم ذهنية كثير من الناس يتمثل في الاحتفاظ بكلّ شيء، مهما بدأ ضئيلاً وتافهاً وغير ذي قيمة أو جدوى، والقول بأنّه ربّما يلزم في وقت من الأوقات، وقد نحتاج إليه ولا نجده. هذا المنطق، أو تفكير قريب منه، كان فاعلاً في حياتنا في البلدة، حين كنت صغيراً، كانت جدّتي تحتفظ بكلّ الأشياء، لا تفتأ تكرر بأنّ البيت يحتاج إلى كلّ شيء، لذا لا تتخلّص من أيّ شيء تتوقّع أن تحتاجه ذات يوم.

ربّما كان منطق جدّتي ذاك نتاج أيّام وتجارب متراكمة، فهي بحكم مرورها بمحطّات كثيرة في حياتها، وتنقّلها مع جدّي الذي كان قد خطفها بالتواطؤ معها وهربا معاً إلى قريته، ومنها إلى عامودا. حياة الفقر والتنقل والتشرّد علّمت جدّتي أنّ أبسط الأشياء تكون غالية الثمن، وستحتاج إليها في يوم ما، وكانت تحتفظ بركن في بيتها الطيني الصغير في عدد من البقج بما تظنّه سيلزمها في المستقبل.

لا أدري كيف أقنع جدّي جدّتي بالهروب معه، وهو الذي كان متزوّجاً وأباً لأربعة أبناء، كبيرهم يكاد يقارب جدّتي في العمر، لكنّ جدّتي كانت تسوق لي كلّ مرّة أسألها عن الحادثة ذريعة مختلفة، كانت تنسى ما قد قالته لي سابقاً، وحين أذكّرها به، تتّهمني باختلاق أحداث ووقائع ومجريات لا وجود لها، وأنّ الكتب التي أقرؤها أفسدت عقلي، ولا تنسى أن تختم ملاحظتها تلك بضحكة عالية، كانت تترنّح على إثرها في جلستها، تغمض عينيها وتتأسف بسرور وابتسام لحالي.

جدّتي التي كانت أمّاً لطفلين، ولد وبنت، في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، تركت طفليها وهربت مع جدّي، كنت أؤنّبها وأسألها كيف

طاوعها قلبها أن تترك طفلين صغيرين في عهدة الأقارب والغرباء وتتبع شهوتها وغرائزها وتهرب مع جدّي الذي أقنعها بطلاوة لسانه ووعوده الكثيرة لها بحياة هانئة مريحة، لكنّه أصبح عبئاً عليها في سنواته الأخيرة، وتركها وهي في منتصف عمرها تتكفّل بتربية سبعة أطفال، كان أكبرهم أبي الذي أصبح معيل إخوته، بالإضافة إلى زواجه الباكر من أمّي، ومحاولته النهوض بأعباء أسرتين، في واقع تكاد تنعدم فيه فرص العمل والتعليم والراحة والأمان.

لم تتمكّن جدّتي نوفة من لقاء ابنتها التي تركتها لأنّها ماتت في أثناء الولادة، ذلك أنّها كانت قد زوّجت وهي صغيرة لأحد أقاربها في القرية، وكانت الحجّة هي حمايتها ووضعها تحت جناح العائلة كي لا تبقى في مرمى أعين الغرباء والصعاليك من أمثال ذاك الذي تحايل على أمّها – وكان يقصد به جدّي - وأقنعها بالهروب معه.

كانت المقولة الدارجة عن الأيتام حينها أنّهم قد يتربّون بطريقة وحشيّة من دون أدب أو تربية، لذلك ينبغي حمايتهم من شرور الواقع، وتزويج الفتيات باكراً، ومحاولة تقييد الفتيان وإلهائهم بأعمال الرعي والزراعة والتعتيل، ودفعهم إلى تحمّل أعباء المسؤوليّة لتزويجهم من إحدى قريباتهم التي ربّما تشكو من علّة ما، أو لها حظّ قليل من الجمال.

لم تلتقِ جدّتي بابنها الذي تركته في قرية قراشيكي الواقعة في الجهة التركية من الحدود - شمال خطّ القطار الذي يشكّل حدّاً بين الشمال والجنوب، وكان بالنسبة إلينا فاصلاً تاريخياً وجغرافيّاً بين الأهل والأقارب بين شماله وجنوبه - إلّا بعد مرور ما يقرب من نصف قرن تقريباً، كان ولدها قد أصبح جدّاً بدوره، كان كثير الشبه بأبي، كانت الحياة قد عركته، فكان صيّاداً بارعاً يجوب المناطق الجبليّة المحيطة به، يمضي وحيداً إلى رحلات صيده، يخيّم وحيداً، يحمل بندقيّته وشِباكه، يعيش في البرّيّة ويقتات على ما يصطاده. كان صائد الصقور الأشهر في المنطقة، بالإضافة إلى براعته في صيد الغزلان والأرانب والثعالب.

لا أدري إن كان يحاول بذلك أن يعوّض عن هامشيّته في القرية التي ظلّ فيها طيلة عمره، وكان موصوماً بعار هروب أمّه وتركه وحيداً مع أخته الصغيرة ليتربّى في كنف أقاربه. ربّما كان يحاول إثبات تفوّقه على أهل قريته، وربّما كان الصيد يحقّق متعته في النيل من كائنات تحاول الهروب بعيداً عنه.

حين التقيته وجدته رجلاً قليل الكلام، مَهيباً، يداه الخشنتان تشيران

إلى مدى المشقّات التي خاضها في رحلة حياته تحت أعباء اليتم والوحدة، فكان بالإضافة إلى شهرته كصيّاد، أشهر بنّاء في المنطقة، يستعين به الأغنياء والفقراء. لا أدري إن كان يعوّض بذلك عن عدم قدرته على بناء منزل فخم له ولأسرته، أو أنّه كان يعوّض فقدانه الفرصة على ترميم حياته السابقة وترقيع الخراب الذي خلّفته أمّه بهروبها وتخلّيها عنه وعن أخته.

أتساءل عن منطق جدّتي في الاحتفاظ بكثير من الأشياء التافهة، وما إن كانت تحاول تعويض تخلّيها عن ولديها، أو إن كانت قد اعتبرت بأنّها يجب ألّا تفرّط بما لديها من أشياء مهما بدت تافهة، وهل اكتسبت درسها التاريخي من منطلق التخلّي الذي طبّقته من دون تخطيط أو وعي منها، وأصبحت مهووسة بمنطق الاستحواذ والتملّك والاحتفاظ بالأشياء.

جدّي الذي حيكت عنه قصص كثيرة، منها ما يقرب من الأساطير عن أشخاص خارقين مفترضين، أحتفظ منه بخيالات وذكريات من الطفولة المبكرة، أذكر أنّه كان يبقي مسدّسه قريباً منه، على الرغم من أنّه كان في سنواته الأخيرة مقعداً، يحتاج إلى من يعينه في حركته، إلّا أنّه كان يشعر بأنّ أحداً ما قد يداهمه، أو يعتقله أو ينتقم منه.

وكان دارجاً في عرف بعض العشائر الكرديّة أن تقتل الابنة التي تهرب برفقة الرجل الذي يخطفها، وقد يكون ذاك الحذر الذي أفسد حياة جدّي عاملاً رئيساً سيّره في حلّه وترحاله. أذكر أنّه كان يضع المسدّس في يدي، ويسخر من جدّتي التي تقول له إنّه يفسدني وأنا ما زلت طفلاً صغيراً، وإنّ ذلك خطر عليّ. لم أسمع صوت مسدّس جدّي أبداً، لكن أوقن أنّ قربه منه كان يشعره بكثير من الأمان، حتّى وهو مقعد على فراش الموت.

كانت جدّتي تقول بأنّ جدّي هرب من حكم الإعدام الذي حكم عليه في الحرب، وكانت تخلط بين الحرب العالمية الأولى والثانية، وتذكر أنّه كان مسجوناً في سجن بعيد، قام برشوة السجّان الذي كان يعرفه، ثمّ أخذ ثلاث بنادق معه وهرب بها، وعاش شهوراً في البراري والجبال في رحلة هروبه إلى قريته.

تنطلق بخيالاتها وحكاياتها عنه، تقول إنّه كان يتفادى مواجهة الدببة في الجبال الباردة، وحين يضطرّ إلى ذلك يطلق عليها نيران بندقيّته ويقتلها ويشوي لحمها. تبتهج أساريرها وهي تقول إنّه كان يمشي في النهار وحيداً، لكن كان يرافقه في الليل حارسان غير مرئيّين، وتغمز أنّه كان سليل أسرة من الأولياء والصالحين، وأنّ له جدّاً كان يرعى من الغزلان

في البراري، ويعيش معها وهو يتعبّد ربّه في الكهوف والمغاور بعيداً عن الاختلاط بالبشر.

كان أبي يجلس على قدميه وهو يضرب بيده على الأرض ويؤكّد أنّ له جدّاً كان مسجوناً في سجون العثمانيين، وحين كان في ساعة التنفّس في باحة السجن، هبّ هواء عاصف وطار به إلى خارج السجن بعيداً عن أعين الحرّاس، وهكذا نجا من عقوبة الإعدام.

لا يتعلّق الأمر باختلاق بطولات متوهّمة، بل يتعلّق بنزوع قاهر للتشبّث بالأساطير المتخيّلة، وحكايتها على أنّها حقائق ثابتة لا بدّ من تصديقها، وكأنّها كانت قد وقعت بالفعل، ويكون التأكيد على أنّ كثيراً من الشهود قد آمنوا بتلك المعجزة ويعاملون ذاك الجدّ كوليّ صالح، وكان اسمه درويش، وتكون كلمة الختام والسرّ التي تسكت الآخرين المشككين، وأنا كنت منهم، أنّ الله يضع سرّه في أضعف خلقه، وأنّ أولياء الله عادة مختبئون في أثواب الفقراء والدراويش.

كيف أثّر منطق التخلّي ونقيضه المتمثّل في الاستحواذ عليّ في محطّات حياتي المختلفة؟

ظللت نزيل ذاك المنطق مدّة من الزمن، كنت أحرص على التشبّث بكثير من التفاصيل والتدقيق عليها، كأن أحتفظ بورقة صغيرة، أو تذكار بسيط، وأبقيه في خزانة خاصّة، كانت لديّ كثير من الأشياء الأثيرة التي كنت أحدّث نفسي أنّني يستحيل أن أفرّط بها في يوم من الأيّام.

في كل مرحلة كنت أتخفّف قليلاً من أشياء المراحل السابقة، أحياناً أسخر من حرصي الماضي على تفاصيل أظهرها الزمن التالي لي صغيرة وعديمة الأهمّيّة، وأحياناً أخرى تنتقل معي بعض الأشياء إلى مرحلة تالية، تصمد أمام الترتيب والتنصيف، تبدو لي عابرة لزمنها وملازمة لي في مختلف المراحل.

هل يمكن تجريد المرء من ذاكرته من خلال استلاب التفاصيل والأشياء والأمكنة التي تؤثّث ذاكرته وتهندسها بطريقة تراكميّة؟ هل في وسع الذاكرة الاحتفاظ بشتّى التفاصيل؟ أليست أشياء المرء المتراكمة في خزانته الواقعيّة، وخزّان ذاكرته المفترض، ملح الأزمنة والأمكنة بالنسبة إليه؟

حين انتقلت من غرفة إلى أخرى داخل البيت نفسه، قمت بعملية مراجعة وترتيب لأشيائي وكتبي وتذكاراتي، تخفّفت من كثير منها، ألقيت بها، شعرت أنّ الذاكرة تتخفّف بدورها من حمولتها وإرثها، وحين انتقلت

في مرحلة الزواج إلى بيتي وضعت جزءاً من تلك التذكارات في كراتين وأبقيتها في بيت أهلي، ثمّ حين انتقلت من مدينة عامودا إلى دمشق، تخفّفت من جزء آخر، كنت أضعها إلى جانب الكتب التي وجدت أنّها كانت مناسبة لمراحل سابقة.

أعتقد أنّه ليست كلّ الكتب التي نقتنيها أو تصل إلينا تستحقّ أن تحتلّ مكاناً دائماً في مكتبتنا، فالكتب كالأصدقاء، كما أنّ هناك صديق الطريق أو السفر، وهناك صديق العمر، يكون عابراً للزمان والمكان، كذلك هناك كتاب للطريق، يكون مؤقّتاً، تزجي به وقت رحلتك وتملأ به فراغك في أثناء سفرك، وقد يستمرّ هذا الكتاب معك، ويغدو ضمن رفّ الكتب الدائمة، وقد تتخلّى عنه في أقرب محطّة تخلٌ لديك. وهناك كتب العمر، وهي تلك العابرة للأزمنة والأمكنة، تحتاج إليها بين الحين والآخر، تسدّ لك فراغاً روحياً أو فكريّاً ناشئاً عن صدمة أو ناجماً عن نكسة حياتيّة، تجدها في انتظارك تعيد إليك توازنك المأمول. وهذه النوعيّة من الكتب نادرة كندرة الأصدقاء الحقيقيّين أنفسهم.

كما يقال في الحياة إنّ المستحيلات ثلاث، الغول والعنقاء والخلّ الوفيّ، قد يكون ذلك صائباً أيضاً في عالم الكتب، فالوفاء للمكتبة التي أثثت ذاكرة المرء يكاد يندر في بحر التجدّد والنهل من ينابيع الإبداع الإنسانيّ الفيّاض، ربّما يعود المرء إلى كتب في مكتبته، يجدها هشّة بسيطة، لكنّ وعيه وإدراكه وتأثّره أسبغ عليه فرادة وتميّزاً في مرحلة من مراحل حياته، فيتخلّى عنها في أقرب محطّة تخلٌ بدوره.

حين اضطررت، تحت وطأة الحرب واشتداد المعارك بعد سلسلة من المناوشات الليليّة المتقطّعة، إلى ترك منزلي في بلدة شبعا بريف دمشق، ولم يكن قد مضى على تجهيزي له واستقراري فيه سوى شهر ونصف تقريباً، لم أحمل سوى جهاز الكمبيوتر المحمول، وجوازات سفرنا، وأوراقنا الرسمية الثبوتيّة وشهاداتنا الدراسيّة، وقليل جدّاً من الثياب. تركت كلّ شيء في مكانه، وقبل خروجي من الباب، التقطت بضع صور للبيت، كان لديّ شعور، أشبه بيقين، أنّي لن أعود إلى ذاك البيت، وأنّي لن أراه مرّة ثانية، وأنّ كلّ شيء أتركه خلفي فيه سيضيع. كان ذاك التخلّي صعباً للغاية بالنسبة إليّ.

أتأسّف أنّني لم أتذكّر حمل ألبوم صوري معي، ولا شريط فيديو حفلة خطوبتي وعرسي، ولا عدداً من كتبي وأفلامي، تركت أثاث البيت وأثاث الذاكرة هناك، وهأنذا أسعى إلى إعادة إكساء بيت الذاكرة انطلاقاً من

ذكريات البيت ولعبة الاسترداد والاستحواذ والتخلّي.

قد يصبح أحدنا سجين منطق لا يختاره بنفسه، بل يجد نفسه مقيّداً به، هكذا أصبح منطق التخلّي بالنسبة إليّ حلقة مستعادة في كلّ مرحلة من مراحل حياتي. حين تركت الشارقة مثلاً تركت خلفي مكتبة صغيرة، وأشياء وتذكارات، كنت أحرص على ألّا تزيد حمولتي عن حقيبة كبيرة، تحتلّ الكتب بالعادة معظم المساحة المتاحة فيها، وأدس في المساحة المتبقّية بعض الثياب والأشياء الضروريّة. وفي بيروت بعدها تخلّيت عن بعض الكتب والثياب وأهديتها لبعض الأصدقاء لأنّي كنت قد اقتنيت كتباً جديدة، ووجب عليّ غربلتها بحيث أحتفظ بالأهمّ، وأخفّف من حمولتي، وكذلك الأمر نفسه تكرّر في مصر، حين تركت القاهرة وجدت نفسي مجبراً على التخلّي عن كثير من الكتب والأشياء، وكنت أمام كمّيّة من الأشياء وأعداد من الكتب التي لا أستطيع حملها معي، وكانت زوجتي وابنتي الوحيدة حينها هيفي قد التحقا بي إلى القاهرة، وبات عبء حمل الحقائب أصعب وأكثر مشقّة.

يغدو التخلّي عادة مع مرور الزمن، وتعاقب التجارب وتراكمها. خشيت أن تنتقل عدوى التخلّي عن الأشياء إلى التخلّي عن الأصدقاء، لكنّ تلك الخشية تبدّدت، وتتبدّد عندي تلقائياً، لأنّي أجد نفسي مدفوعاً للارتماء في حقول الذاكرة أستعيد تفاصيل الأحداث التي مررت بها وبلورت كينونتي وذاكرتي، ومهّدت لحياتي في الكتب والواقع.

حين لا يرتّب أحد من المهووسين بالاستحواذ أشياءه التي يعدّها نفيسة وأثيرة على قلبه، فإنّه يغدو نهباً للشكّ والضياع، يمكن أن يحمّل مسؤولية تشتّته لفوضاه، وقد يشعر بالحيرة تتلبّسه لأنّه فقد ترتيبه المفترض، ومضى على غير هدى في رحلة العمر. يظلّ أسير تأنيب ضمير يرنّ صداه في داخله بين الوقت والآخر حتّى يفلح في الاستدلال إلى درب يخلّصه من وساوسه ويقنعه بضرورة التخلّي عن أوهامه.

أعترف أنّي بعد أن خرجت من بلدي فقدت الرغبة في التكلّم كثيراً، وأصبحت أؤثر الانزواء والعزلة، وأتفادى مهاتفة كثير من الأصدقاء. أنا واثق من أنّ هناك بعضاً منهم يظنّ أنّ الغربة غيّرتني، أو تغيّر أحوالي، من حيث تحقيق جزء من النجاح في عالم الكتابة والنشر، انعكس على نفسيّتي، وجعلني أتنكّر لأصدقائي القدامى، ولا أسعى إلى تبديد هذه الشكوك والآراء لديهم. لا أقول إنّي غير معنيّ بأفكارهم عنّي، بل أقرّ بأنّي فقدت تلك القدرة على التواصل، على الرغم من توفّر وسائل التواصل

الاجتماعي، وعلى الرغم من حضورهم المفترض وقربهم في عالم التكنولوجيا، إلّا أنّني أحاول أن أستعيد عبثاً تلك الهفة بالحديث، واختراع المواضيع، والبحث عن نقاط الاشتراك وخطوط التقاطع.

أشعر بنفسي وحيداً أكثر فأكثر كلّما تقدّم بي الزمن، أفضّل العزلة على الاختلاط، أستمتع بوحدتي وعزلتي، أفضّل عالم الكتب، وخيار السياحة في بحور القراءة والكتابة، لكنّ ذلك غير ممكن في واقع الحياة اليوميّة، فهناك لوازم البيت والأسرة والأطفال.

أوقن أنّ وجود أسرتي إلى جانبي يقيني من الانزلاق إلى مستنقع اليأس والضياع، أستعيد قدرتي على النهوض من جديد، أتمرّن مع ابنتيّ؛ هيفي وروز، لخوض مغامرات حياتيّة جديدة. أوقن أنّ الحياة معهما تستحقّ أن تعاش، وأجدهما حياتي كلّها.

أكرّر غالباً بأنّ أعظم ما في الزواج هو الأولاد. لولا الأولاد لاستحالت الحياة دائرة مغلقة من الجنون الزوجيّ، ولغدا الأزواج أعداء بالتقادم. أعادت إليّ الأبوّة إيماني بالحياة نفسها، وبالعالم الذي أحيا فيه. كثيراً ما كنت أشعر بالخيبة بعيداً عنهما، باليأس والانكسار والدمار، لكنّ وجودهما معي أعاد إليّ يقيني وإيماني بنفسي وبالآخرين، وبأنّ هناك مَن يستحقّ أن تناضل لتعيش من أجله، ولتثبت لنفسك وله أنّه يجب أن يكون فخوراً بك.

يتحمّل الأبناء تكلفة خطايا الآباء والأجداد. يتوارثون الأحكام المسبقة، يتلقّفونها من أمّهاتهم وآبائهم، حتى تغدو بالنسبة إليهم حقائق ومسلّمات لا يمكن التشكيك بها أو مناقشتها.

لم أحظَ برؤية ابنتي الثانية روز لحين وصولها إلى أدنبرة مع زوجتي نسرين وابنتي الكبرى هيفي. كنت قد تركت زوجتي الحامل مع ابنتي في تركيا، على أمل ألّا يطول لمّ الشمل، لكنّ الواقع كان صادماً وقاسياً.

في مطار أدنبرة ركضت هيفي باتّجاهي. تبعتها أختها روز مقلّدة إيّاها كعادة الصغيرات في تقليد أخواتهنّ الأكبر سنّاً منهنّ. لم تنحدر أيّة دمعة من عيني حينها. وللفرح دموعه كما هو معلوم. لكن استعصى الدمع على الانحدار. تمزّقتُ في داخلي أنّني لم أكن مع زوجتي حين ولادتها لابنتي، كما لم أتمكّن طيلة هذه الفترة من احتضان ابنتي التي بلغت سنة وبضعة أشهر، وكانت قد بدأت بالمشي والكلام.

بين الأبناء والأجداد نرتحل. ترتحل الذواكر وتتشتّت الدروب.

يحفر الفراق في أرواحنا أنفاقاً يكاد يستحيل ردمها... ويكتسب التلاقي أيضاً بعض الشقاء توجّساً ممّا يليه من فراق. بعيداً عن الحالات الشاعريّة التي تكون مملّة بائسة في الواقع، لكنّ أيّ لقاء منشود هو تتويج جماليّ ساحر.

ما علق في ذاكرتي من صور جدّي، هو ذاك العجوز المقعد الذي لم يكن يستطيع إكمال جملة من دون أن يرتعش صوته، ويجفّ حلقه، وتخونه قواه... لكن حكايات الآخرين عنه، أو ما عايشته من نتائج تصرّفاته السابقة تخبرني عكس ذلك.

قصد جدّي مدينة عامودا في ثلاثينيّات القرن العشرين، بعد خروجه من قريته «قصرا قلندرا» القريبة من ماردين في تركيا، واختار البقاء على أطراف المدينة، كي يستمتع بمشاهدة أضواء ماردين ليلاً، ومؤكداً على أنّ إقامته مؤقّتة وسيعود إلى قريته قريباً... ارتسمت حدود دول المنطقة حينها، انسحب المستعمرون الفرنسيّون والإنكليز تدريجيّاً من المنطقة، وتركوها نهباً للنيران اللاحقة.

«الضرّة مزّة»، كان هذا ما تردّده جدّتاي دائماً، كان التناقض بينهما بادياً للجميع، وانعكس على أولادهما أيضاً، فأولاد نيولة السمراء كانوا سمراً كلّهم، وأولاد نوفة الشقراء؛ ابنة الأمّ الأرمنيّة، كانوا شقراً بمعظمهم،

حتى كان التقسيم بينهم سهلاً للجميع.

كان جدي قد تزوج زوجتين، الثانية التي هي جدتي خطفها لأن أهلها رفضوا تزويجها منه باعتباره كان رجلاً متزوجاً وله من زوجته أربعة أولاد ذكور... أما الأولى التي اسمها نيولة، والتي نزلت جدتي ضرة عليها، كان جدي قد أعجب بها ذات ليلة مز بقريتها، في منطقة ولاية ماردين وسهلها، وهي ترد البئر، حيث انعكس ضوء القمر المنعكس على الماء على صفحة وجهها، فتلألأ والتمع، فظن هو أنها متلألئة بياضاً وشقاراً. إذ أن مقاييس جمال المرأة بالنسبة إلى غالبية الرجال في مناطقنا هي البيضاء الشقراء، ولا تحظى السمراء أو السوداء إلا بقسط بسيط من الاهتمام... سأل عنها أخريات كن معها، عرف منهن بيت أهلها، ذهب في الليلة التالية ليخطبها من أهلها، وبالفعل تحقق له ما أراد، إذ وافق أهلها على تزويجها منه. سعد أيما سعادة كأي عريس في أيام عرسه، ولم يشاهد خطيبته طيلة الأيام القليلة التي تلت الفاتحة لأنه كان منهمكاً بتجهيز أثاث بيته. جاء اليوم الموعود، ليلة العرس، حيث ذهب إلى قريتها بعد الظهر ممتطياً حصانه، ومرتدياً أفخم ما عنده من ملابس، مرافقاً بجماعة من الفرسان.

عروسه كانت مرتدية الطرحة على رأسها، ما كان يحجب وجهها، ولم يزح العريس تلك الطرحة عن وجهها، بل أضمر في نفسه – كما كان يصرّح بعدها - نزع جميع الثياب دفعة واحدة. أي أنه أجّل ذلك، إذ اكتفى بأخذ عروسه، ليقام لها عرس تحدث فيه القرويون فترة طويلة... وكان قد أزاح الطرحة عن وجهها عندما وصل مساءً إلى القرية. بناء على إلحاح من القرويين، وكان المساء مجللاً أيضاً، حاجباً سمارها الشديد عن الأعين، بدا وجهها ملتمعاً في الليل، تجفله البشاشة والبسمة الحيية، حيث أن الابتسامة العريضة أو الضحك، كانت معايب - ولما تزل في كثير من مناطقنا - بالنسبة إلى العروس، لئلا يقال عنها إنها متلهفة للزواج، أو إنها لم تكد تصدق أنها ستتزوج، أو إنها فرحة مبتهجة لأنها خلصت من بيت أهلها... إلخ، تلك الأقاويل التي تتفنن الألسنة بتدبيجها ونشرها وترويجها...

مضت تلك الليلة مثالية كأحسن ما تكون ليلة زواج. وفي الصباحية، عندما استفاق العروسان من نومهما ظهراً، بدأت المأساة، حيث كان جدي من قلة الحيلة ما أشعرها باشمئزازه منها، عندما بادر إلى التفاجؤ أو التفجع لرؤيتها نهاراً، شديدة السمرة، فلم يكن قد سبق أن رآها إلا ليلاً، وكانت هي من التسرع ما كرّهها بزوجها، حيث أقسم جدي على أن يتزوج عليها، وأقسمت هي في قرارتها أن تنكّد عليه عيشته...

كان ذاك السَمار الشديد، الذي كانت توصَم به، سبباً قاتلاً كي يخرجها عن طورها في كثير من الأحيان، حتّى بعد أن بلغت نحو الثمانين من عمرها، إذ أنّها كانت تعاب على أنّها: «الزنجيّة، الكحليّة، الزرقاء». وكلّ تلك التوصيمات كانت ترد في معرض الذمّ الممضّ الموغل في النَّيل.

أنجب جدّي منها أربعة أولاد، لكنّه بقي على قسمه في الزواج بأخرى، وهو الذي يبيح له الدين ذلك، ويحلّله، فكان دائب البحث عن زوجة بعكس ملامح زوجته، إلى أن رأى بالصدفة في إحدى القرى المجاورة، جدّتي، التي كانت بعكس زوجته، إذ أنّها كانت قد ورثت الشقرة والبياض عن أمّها الأرمنيّة، ذهَب شعرها الذهبيّ بعقل وقلب جدّي الذي حاول المستحيل كي يفوز بها، لكنّ أهلها لم يرتضوا تزويجها منه، فسعى إلى سلك السبل الملتوية، وجهد لإقناعها بحبّه لها وتتيّمه بها، فانساقت وراءه، هاربة معه...

أمّا أين كانت المصيبة تكمن؟!

كان جدّي يكرّر دائماً لزوجته القول المعيّر لها على بشرتها السوداء، وكان يقتّر عليها بالمصروف، وهذا ما جعلها حريصة على ما يتصدّق به جدّي عليها، فوصمت بأنّها بخيلة، أي صارت تعرف بالسوداء البخيلة. ولم تكن المسكينة قد سمعت ببيت العاشق العربيّ الذي يقول: «قالوا عنك سوداء حبشيّة/ ولولا سواد المسك ما انباع غالياً». وذلك حتّى يطيب خاطرها، وتقوى عزيمتها. هذا بدوره جعلها عدائيّة تجاه الآخرين، لأنّها كانت ترى في معظمهم مستهزئين بها، كما لم تكن تمتلك أيّة آليّات دفاعيّة سوى يأسها واستسلامها، ثمّ اعتزال مَن حولها، تقوقعت على ذاتها في بيتها، لائذة بسَلاطة لسانها وعدائيّتها، عندما كانت تجابه بموقف أو كلام ينال منها، وانعكس ذلك على أولادها، الذين أصبحوا منطوين على أنفسهم، معتزلين الآخرين.

ولا يزال الانتقام من سوادها فاعلاً ومؤثّراً حتّى الآن، أي بعد غيابها بأكثر من عشرين سنة، وذلك عن طريق النيل من أولادها أو أحفادها، فأن يكون أحد الأحفاد أسمر البشرة، أو شديد السمرة، فهذا يحيل تلقاء إلى التذكير بالجدّة نيولة، وبالتالي الخشية من أن يكون مثلها بخيلاً. يُسقط اللون على الطباع، يحيل إليها مباشرة، وإن لم يكن هناك ما يدعو إليه. أي أنّ الحكم المسبق يكون باتّاً منتهياً. يتناسى الجميع الظلم الذي كان يُرتكب بحقّها، بل يلتفتون إلى النتائج المفرزة، يحاكمون النتائج من دون إيلاء أهمّيّة تذكّر للأسباب والدوافع التي أدّت إليها...

بقيت تلك التصرّفات جدراناً لا يتخطّاها أحد في العائلة، لأنّها بقيت

مُكهربة، ملغمة، مستجلاة شديدة الوضوح، على الرغم من لامرئيتها الظاهرة. والعنصريّة العائليّة أثّرت في ثلاثة أجيال حتّى الآن، لأنّها بقيت متفعّلة في الذاكرة، ومكرّرة قولاً وفعلاً ممارَساً... ولا أنكر سعادة جذتي الراحلة نوفة، عندما كان يكرّر على مسامعها، إنّ ضرّتها نيولة كانت الزنجيّة السوداء البخيلة، وهي الشقراء الجميلة الكريمة.

حتّى الموت لم يستطع أن يمحو تلك الرغبة القاتلة في الإقصاء والانتقام.

جدّي الذي لم يبتعد عن قريته كثيراً، بل ظلّ في الجهة الأخرى من الحدود متأمّلاً عودته ذات يوم إليها، رحل من دون أن يحقّق تلك الأمنية... واليوم يستعيد أحفاده غربته المديدة تلك، بعد أن انتشروا في أصقاع المعمورة، يتأمّلون عودة متخيّلة لديار غربة جدّهم، تلك التي كانت قد أصبحت ديارهم، انتزعوا حقّهم بالوجود والحياة فيها واحتفظوا بحصّتهم منها. ستغدو ملاجئ اليوم أوطان الغد لأبنائنا وأحفادنا... يبدو أنّ دورات الغربة تظلّ في ارتحال وتدحرج دائمين.

عزيزتي أغاثا... أذكر أنك بينما كنت تحكين بعض حكايات العمّال الذين كانوا يعملون مع زوجك، أشرت إلى خروج امرأة كرديّة من كوخها الطينيّ معنّفة زوجها على طريقة إفلاته حماراً من رسنه. وتصفين كيف تنهّد الكرديّ بحزن. وتتساءلين: «من يودّ أن يكون زوجاً كرديّاً؟». وأردفت بالقول: «هنالك مقولة شائعة مفادها إنّ العربيّ، إن سلبك في الصحراء، يكتفي بضربك ويدعك على قيد الحياة، أمّا الكرديّ فيسلبك ثمّ يقتلك لمجرّد المتعة».

لا أدري من أين استقيت هذا التخمين بأنّ الكرديّ قد يقتل لمجرّد المتعة، لأنّ هذا تعميم للتجريم والتأثيم، وأعتقد أنّه لا يتوافق مع منطق كاتبة روايات الجريمة، وواقع أنّ الإجرام لا يرتبط بعرق أو هويّة، بل هو حالة إنسانيّة موجودة في كلّ الأزمنة والأمكنة، ولدى كلّ الشعوب والأعراق بهذه النسبة أو تلك.

بالنسبة إلى الفئران فهي كانت محنتي أيضاً في بلدك، فكما أنّ ليلتك الأولى في مدينتي عامودا هي تجربة قلت: إنّك لن تنسيها ما حييت. وإنّه ما إن تطفأ المصابيح حتى تخرج الفئران أسراباً من ثقوب الجدران والأرض. تجري بمرح فوق أسرّتنا وتطلق أصوات صرير في أثناء جريها. فئران فوق وجهي، فئران تعبث بشعري، فئران، فئران، ثمّ فئران... فأؤكّد لك أنّني لن أنسى كثيراً من الليالي التي أمضيتها في أكثر من بيت هنا في بلدك، وكانت الفئران تسرح وتمرح كأنّها تعيد ذاك المشهد الذي عشته أنت في مدينتي، وكأنّها تعاقبني بطريقة ما... أذكر وصفاً لإحدى الصديقات في لندن تقول فيه: «لندن مدينة الفئران».

أيّ طريقة من طرق القتل كنت تنوي أن تختار؟

هذه المرّة أوجّه السؤال لنفسي، وأنا جالس وحدي أستعيد بعض أحداث الأيّام المنصرمة، حين كنت في مدينتي عامودا، وكان قد تمّ نفيي منها إلى قرية نائية تبعد عنها نحو ثمانين كيلومتراً، كنت أضطرّ إلى قيادة دزاجة ناريّة اقتنيتها من أجل ذلك، لأنّ النقل العموميّ لم يكن يمرّ بها، كما أنّني كنت سأحتاج إلى بضع ساعات للوصول إليها، وذلك ما كان مستحيلاً، لأنّ زوجتي كانت تظلّ وحيدة في البيت، وكان أهلي قد هاجروا إلى دمشق، وكنت أنوي بدوري الانتقال لدمشق، وأقوم بتقديم طلبات النقل لمديريّة التربية التي كانت ترفضها، بناء على توصيات أمنيّة.

بماذا أستعيد تلك الحادثة الآن؟ هل يمكن أن أتخيّل نفسي قاتلاً؟

يبدو أنّ استعداد المرء للقتل يكون غريزيّاً، ويتنامى حين تكون هناك ذرائع مقنعة له، يحاول إسباغ التبريرات على ما يشرع بالإقدام عليه من إنهاء لحياة أحدهم.

كان هناك شابّ في البلدة، مشاكس عنيف مدمن على المشروبات الكحوليّة والمخدّرات، يتحرّش بمعظم فتيات البلدة، ولا يقيم وزناً لأحد، يخرج إلى الشارع شبه عار ويصرخ صرخات مدوّية، يكيل الشتائم للجميع، ولا يستثني أباه وأمّه وإخوته، كان يعبد درّاجته الناريّة التي يجد فيها خلّه الوفيّ، يتبختر حين يقودها ويخلّف الغبار خلفه وهو يمضي مطلقاً بوقاً مزعجاً، ورافعاً صوت المسجّلة التي كان قد وضعها على درّاجته.

صدف أن عدت متأخّراً كالعادة من القرية – المنفى، وكان ذلك بعد العصر، وكانت زوجتي تترقّب قدومي، وتظلّ مشدودة الأعصاب لحين ظهوري، تخرج بين الفينة والأخرى للشارع تستطلع ظهوري، وما إن كانت تسمع صوت درّاجة ناريّة حتّى تخرج ظنّاً منها أنّني وصلت. أخبرتني أنّها فوجئت بعدد الدرّاجات الناريّة الكبير في حارتنا، وأنّها لم تكن لتنتبه لها لولا أنّني اقتنيت درّاجة ناريّة، وعرفت أنّ معظم أهل الحارة يعتمدونها وسيلة نقلهم الرئيسة.

خرجنا بعد أخذي قيلولة قصيرة إلى للمشي بين الحقول، كان الربيع يبعث على الأمل والتفاؤل، وكانت زوجتي تظلّ وحيدة لوقت طويل في انتظاري، كما كانت تحبّ سهول عامودا وأجواء الربيع بين حقول القمح والقطن، وكنّا نتمشّى ونعرّج بعدها إلى بيت أختي في الجهة الغربيّة من البلدة، نمكث هناك، نتعشّى ثمّ نعود للبيت. كان هذا دأبنا اليوميّ تقريباً.

لمحت الفتى المدمن يقطع طريقنا أكثر من مرّة وينظر نظرات حقيرة باتّجاهنا، كان كمن يتوعّد بأذى، يسرع وهو يقطع الطريق من أمامنا، أو يهدئ وهو يسير خلفنا، ويرفع صوت مسجّلته، ما كنت لأبالي لو أنّني وحدي، لكن وجود زوجتي معي، ومحاولة إساءته لنا وقذارة تصرّفاته كادت تدفعني للاصطدام معه، إيقافه ومعاركته وضربه، وكان مشهوراً بأنّه يحمل ما يشبه حزاماً ذا نصلين حادّين يلفّ به خصره، يخرجه ويشهره فيصبح كأنّه سيف بثّار، ولا يتوانى عن إيذاء الناس، أو الاستمرار في تهديدهم به.

أذكر أنّ المثل يقول بأنّ الكلب الذي ينبح لا يخيف. لكن ما كنت لأقتنع أنّ شخصاً مدمناً سكّيراً يمكن أن يتحكّم بتصرّفاته، وكنت بدوري غير موقن أنّني سأظلّ متماسكاً متحكّماً بأعصابي.

أخبرتني زوجتي أنه كان قد تحرّش بها، وكان يهذي في سكره وحالته تدعو للرثاء والخوف معاً. وحذّرتني من الإقدام على أيّ فعل، ووصفته بأنّه مجنون، وأنّها تخبرني كي أكون على اطّلاع وبيّنة.

ثارت ثائرتي، لكنّني تمالكت نفسي، وما إن وصلنا لبيت أختي حتّى بدأت سيناريوهات القتل تداهم مخيّلتي، أفكّر في طريقة القتل التي سأختارها له، وكيف يمكنني قتله، من دون أن أثير الشكوك من حولي، وأبرز الأمر على أنّه حادث طبيعيّ، أو قضاء وقدر. أو أبرزه على أنّه عراك وانتقام بين حشّاشين وسكّيرين لا غير.

هل يمكن أن أتحوّل إلى قاتل ببساطة؟ وهل يمكن لي قتل إنسان لا يعي ما يفعل لأنّه تحت تأثير الكحول والمخدّرات؟ وهل هناك قاتل خفيّ في داخلي أحتفظ به في زاوية معتمة وقد أستعين به في أيّ وقت؟

تناهبتني الأفكار، لعنت نفسي وتفكيري الذي أضمرته وإمكانية التخطيط للقتل في لحظة في اللحظات. وجدت أن تركه لمصيره أفضل من الإقدام على أيّ فعل.

يبدو أنّ الحياة تنتقم بطريقتها الخاصّة، بعد مرور نحو سنة ونصف على تلك الحادثة، وكنت حينها خارج سوريا، هاتفت أهلي الذين أخبروني أنّ المدمن السكّير قد لقي حتفه بطريقة شنيعة، وأنّه قضى مسحوقاً في حادثة فظيعة.

معروف في حالات الموت أنّ الناس تترحّم على الميت كائناً من كان، وحجّتها أنّ الرحمة من الله ولا يجوز على الميت إلّا الرحمة. أمّا إذا كان الميت شخصاً ذا صيت سيّئ فإنّ مَن يعرفه يبتهج في قرارته، لكنّ حرمة الموت تمنعه من التشفّي به، أو القول إنّه لاقى مصيره الذي يليق به، أو إنّ هذه كانت نهايته المحتومة والمنتظرة، عقاباً له على ممارساته القذرة، وإيذائه الناس.

لا أقول إنّني كنت سعيداً أو حزيناً من أجله، بل توقّفت لوهلة، استعدت سيناريوهات القتل التي كنت أخطّط لها في قرارتي، وما كنت أخبر بها أحداً. لم يخطر لي أن أعذّبه بتلك الطريقة الفظيعة وأنا الذي يؤلمني أن أرى مشاهد العنف والدم. أدركت أنّ اختيارات الحياة والطبيعة والقدر تتفوّق على اختياراتنا ومخطّطاتنا.

لا أزعم التسامح في تلك الحالة، ولا الترحّم عليه، وتراني أحدّث نفسي عن الجرائم التي يقترفها كثير من الأشرار بحقّ غيرهم، وكيف أنّهم يحوّلون حياة الكثيرين إلى جحيم، من دون أن ينالوا عقابهم، أو أنّ

عقابهم يتأخّر كثيراً، حتى لتظنّ أنهم قد نجوا بما اقترفوه، كما أحدّث نفسي عن العبر الكامنة وراء ذلك.

يبدو أنّ من الطبيعي إنتاج مجرمين تلقائيين، أو أناس عاديّين لا رغبة لهم في ارتكاب أيّ جريمة، في بلد كان القانون فيه مغيباً لصالح مجرمين محترفين يفسدون حياة الناس ويكيدون لهم لإبقائهم في مستنقعات الجهل والتخلّف والثأر والصراعات الهامشيّة المضخّمة، وكان تصدير العنف والعنف المتبادل من وسائل ذاك الإفساد الممنهج، بحيث أنّ كلّ امرئ يفكّر في القتل لينقذ نفسه من جرائم تحاك ضدّه، أو تقترف بحقّه وحقّ أسرته.

ذاك النزوع إلى القتل ما يزال يقضّ مضجعي، ويصيبني بكآبة بين الفترة والأخرى، ألوم نفسي على تفكير راودني بإنهاء حياة أحدهم على الرغم مما سبّبه لي من إيذاء، ودفعني وزوجتي إلى ممارسة نوع من التقية والتواري في بعض الأحيان تجنّباً للاصطدام، وتلافياً للوقوع في مشاكل كنّا بغنى عنها.

كيف يمكن أن يتحوّل الإنسان البسيط العاديّ الذي يبدو طبيعياً لمَن حوله إلى قاتل؟ هل يتمّ صنع القتلة أم أنّهم متفشّون حولنا ويربضون بين ظهرانينا من دون أن نعلم بهم؟ ألا يحمل كلّ إنسان نذاً قاتلاً في داخله، قد يرتكب جريمة قتل لو وضع في ظروف معيّنة، أو دفع إلى ذلك بطريقة ما؟

دوافع القتل وأسبابه وذرائعه وتبريراته تغرقنا في واقعنا الدمويّ العنيف، يكاد القتل يتحوّل إلى خبز الحياة اليوميّ في منطقتنا الموبوءة بالاستبداد والطغيان والحروب والجنون والكوارث، ويكون القول بأنّ من يلوم القاتلين والمقتتلين عليه أن يجرّب العيش في الظروف التي يعيشونها نفسها، وما إن كان في مقدوره بعد ذلك إلقاء العظات على غيره عن ضرورة التحلّي بالصبر وعدم الانسياق وراء شهوة القتل والانتقام، ووجوب تلافي مواجهات تقود إلى جرائم محتملة.

لا أستطيع أن أتخيّل نفسي ذاك الكاتب الذي يتحوّل إلى قاتل، ويقضي سنوات من عمره في السجن، ويقبع في زنازين الضياع والنسيان، وذلك من أجل غباء مدمن سكّير أملى عليه جنونه في لحظة ما التحرّش بامرأة صادفها في طريقه.

هل أمارس نوعاً من تصفية الحساب معه وأنا أستعيد تلك الحادثة، وألعنه سرّاً وعلانيّة؟ وهل أختلق طريقة أخرى للقتل عبر الكتابة والتوثيق لأقتص منه؟ ألا يثأر الكاتب بطريقته الخاصّة بدوره، ويمارس غوايته في

القتل بالكلمات حين الحاجة، وتحت وطأة مشاعر الكراهية المستعرة؟

لا يجدي أيّ تبرير للعنف والقتل، لكن هناك ما يراه البعض موجبات واستحقاقات في الوقت نفسه. هناك أحداث تبثّ حيرة من حولك، وتجعلك تقف مشدوهاً أمام رعونة الواقع وعنف السلطة وأدواتها التي تفقد أيّ منطق أو عقل في محاولتها تلبية أوامرها والتأقلم مع شروط استمرارها الدمويّة العنيفة.

أيّ طريق تختار وأمامك خياران لا ثالث لهما أن تُقتل أو تُقتل؟

يبدو أنّ كلا الخيارين انتحار بمعنى ما. أن تقتل الآخر يعني غرقك في مستنقع الدم والوحشية الذي لا خروج منه إلّا بالقتل أو الانتحار. وكذلك يكون انتحار آخر بطريقة بائسة حين تقرر أن تكون الراغب في النجاة، وألّا تكون القتيل أو القاتل، وذلك يعني في تلك الظروف المفجعة أن تنتظر القتلة الآخرين لينقضّوا عليك ويقتلوك ثمّ ينهشوا جسدك ويمثّلوا بك ويحاولوا صناعة وحوش من أهلك ومعارفك أو من آخرين مستهدفين لأنّهم يحملون أفكارك ويدعون لها؟

تلك أسئلة تلحّ عليّ وأنا أذكر حادثة لا تفارق ذاكرتي وخيالي.

حين نزحت من ريف دمشق في شهر حزيران سنة 2012 إلى مدينة عامودا، شاركت في مظاهرة كان دأب أهل البلدة القيام بها منذ بداية الثورة، وكانت قد بدأت تكتسي صيغة جديدة من المواجهة الأخويّة، فقد كان استلام وتسليم بعض النواحي في المدن الكرديّة قد بدأ بين الأجهزة الأمنية وحزب العمال الكردستاني عبر فرعه السوريّ حزب الاتّحاد الديمقراطيّ، شارك رجل من مدينة حمص التي كانت قد عانت من ويلات الحرب والحصار والقصف والدمار الشيء الكثير، أخبر المتظاهرين بأجزاء من حكايته، وكان يردّ على سؤال العسكرة ومقاومة عصابات الأمن والشبّيحة، وكيف حرص النظام وعمل على صناعة وحوش في الجهة المناهضة ليبزّر عنفه وإجرامه.

كانت الدموع تنهمر من عينيه وهو يروي حكاية سجنه وتعذيبه وإهانته وإذلاله، يقول إنّ عصابات الأمن قد اعتقلت معظم شباب ورجال عائلته، اغتصبوا أمام أعينهم ثلاثاً من نسائهم، لم يلتفتوا إلى دعوات الرجال لهم بقتلهم لتجنّب رؤية تلك المشاهد الفظيعة، بل بالغوا في إيذائهم، وأجبروهم على النظر على نسائهم وهنّ يُغتصبن من قبل الشبّيحة.

كان يقول إنّ الموت كان أرحم لهم من رؤية تلك المشاهد، وينوّه إلى

أنّ عصابات الأمن قد أطلقت فيما بعد سراح أولئك الشباب، بعد أن قتلت اثنين منهم، أحدهم ضابط منشق، والآخر كبير العائلة الذي كان يشتهر بكرمه واحتضانه لأبناء الأسر المشرّدة.

كيف يمكن أن تقنع هؤلاء الرجال بضرورة عدم حمل السلاح والانزلاق إلى مستنقع الحرب الذي يدفعهم إليه النظام؟ كيف لك أن تقنعهم بالشعارات والأقوال وقد لفظهم السجن إلى ميدان الحرب ليصبحوا وحوشاً يبحثون عن الثأر لكرامتهم المهدورة والانتقام للتنكيل الذي لحق بهم وبنسائهم؟

كانت الدموع تنحدر من عينيه وهو يقول إنّنا لا نطالب أحداً بالتسلّح والقتال، لكن نسأل مَن يلومنا على تسلّحنا وقتالنا تلك القوّات «المحتلّة»: هل يمكن لهم أن يسكتوا ويتحدثوا بتعقّل وروية وهدوء لو طالهم ونساءهم ومدينتهم ما طالنا ونساءنا وأهلنا ومدينتنا من النظام؟

ختم بالقول إنّه لم يستطع الاستمرار في القتال، كان قد حمل السلاح وربض في الخطوط الخلفيّة لإسعاف الجرحى، لكنّ اتّباع سياسة الأرض المحروقة لم يبق أمامهم أيّ مجال للمقاومة، فانسحبوا من هناك في محاولة لإعادة تنظيم أنفسهم والتحضير لمعارك قادمة. قال: نسلّم أمرنا لله ونرضى بقضائه وقدره.

أفكّر في مسألة التسليم والعجز والرضى، وكيف أنّ الإنسان يحتاج للإيمان كي ينقذه من ضياعه ويخفّف عنه مأساة استمراره في الحياة بعد رحيل أهله وأحبّائه، ومعجزة الحاجة إلى الإيمان والتصديق لدى غالبية الناس للحظوة بلحظات هدوء وطمأنينة، والإيمان بأنّ هنك مَن سينتقم لهم ويعيد حقّهم المستلب إليهم، وينصرهم على أعدائهم.

أعتقد أنّ النزوع إلى القتل شعور قاز في النفس البشريّة، يتمّ تفعيله بحسب الظروف التي يتمّ اختبار الإنسان وتجريبه فيها، وهذا بدوره يختلف من إنسان إلى آخر، فهناك من لديه استعداد فطريّ للعنف والقتل أكثر من غيره، تراه ينساق وراء دعوات التصفية والانتقام، أو يختلق أعداء ليمارس عنفه وجنونه عليهم، وهناك مَن يضع لنفسه روادع تتكفل بتهدئته وإرجاعه عن طريق الدم والقتل.

ربّما يكون الشروع بالقتل والإقدام عليه من بين المسائل النفسيّة العصيّة على الفهم، على الرغم من الدراسات التي تحاول مقاربة نفسيّات المجرمين، يفاجئنا الواقع بقتلَة جدد، كان المحيطون بهم يظنّونهم ملائكة، أو يجزمون بأنّهم يستحيل أن يقدموا على إيذاء كائن حيّ، لكن تصدمنا

الوقائع بتحوّلهم إلى قتلة، ولا يجدي بعد ذلك أيّ تحليل طبّيّ أو توصيف بالاختلال والاعتلال.

أدين نفسي على مجرّد تفكيري بالقتل، وكلّما يخطر لي أنّني فكّرت في التخطيط لقتل أحدهم ذات لحظة غادرة، وعلى الرغم من أن الفكرة لم تتعدّ الومضة التي انبثقت من ركن قصيّ في النفس الشرّيرة، إلّا أنّني أتوقّف عند تلك اللقطة التي يمكن أن أكون مسؤولاً عن إراقة دم أحدهم أو هدر حياته. لا يتعلّق الأمر بمسألة ذنب أو خشية من عقاب بقدر ما تتعلّق بوخز الضمير الذي ينهش الإنسان، ويدفع إلى الجنون.

لا يفتأ يلحّ عليّ سؤال: كيف يمكن للقتلة أن يعيشوا بعد اقترافهم جرائمهم؟

لا أشكّ في أنّ من اليسير تحويل الإنسان إلى وحش، لكن سيكون من العسير إعادة ذاك الوحش إلى حالته الإنسانيّة السابقة؟ في الواقع، وعبر التاريخ الإنسانيّ الدمويّ العنيف البائس، تصنع الوحوش على أيدي القتلة والمجرمين، ويكون إطلاقها في الواقع خطوة لتدمير المستقبل، وتعميم الخطايا والذنوب والإجرام، بحيث يجد الجميع أنفسهم غارقين في وحول الاقتتال والتوحّش.

أستعيد تحرّش السكّير اللفظيّ بزوجتي، ومحاولته تعكير جوّنا الأسريّ، وكيف حاصرنا المسألة وتجاوزناها، ثمّ أراني أرثي لواقعنا الفظيع الذي يمكن أن يتحوّل فيه أبسط إنسان إلى وحش، لأنّه ليس هناك ما يحمي إنسانيّته المهدورة على مذابح الثارات التاريخيّة والفظائع الواقعيّة اليوميّة معاصرة، وأسأل نفسي كيف يمكن أن تقنع مَن فقدوا كلّ شيء، وفقدوا جميع أهلهم وأحبّائهم بالتحلّي بالصبر والإيمان بالعدالة الإلهيّة، وهم يشاهدون المجرمين والقتلة طلقاء يصولون ويجولون حاملين رايات الدم ومعمّمين جرائم القتل والتدمير.

تدمير النفوس وتشويه الأرواح من أخطر ما تعرّض له واقعنا ومن أخطر ما يتهدّد مستقبلنا. التداوي من تلك المشاهد الفظيعة سيحتاج إلى وقت طويل، وإلى تسامٍ على الذات، ومكابرة على الجراح النازفة، وإغماض الأعين والقلوب والذواكر عن استحضار الراحلين الذي قضوا في رحلة البحث عن معنى للإنسانيّة الشهيدة المفقودة المبدّدة المهدورة.

تلك البلاد التي باتت بعيدة الآن بالنسبة إليّ جغرافياً، لكنها ما تزال تسكنني وتسيرني بطريقة ما وتقودني في دهاليز الذاكرة ومتاهة الذكريات، تبقيني في بحر المآسي المتفاقمة التي أتابع وقائعها يوماً يوماً، أصرخ صراخاً يدوّي في أحشائي فقط، يتحوّل إلى دمعة صامتة تنحدر على الخدّ أحرص على ألّا يلمحها أحد.

في تلك البلاد قد تفقد حياتك لأبسط سبب، أو من دون أي سبب، لا قيمة للحياة الإنسانيّة هناك، ولا قيمة للإنسان نفسه. أذكر أنّ أحد أبناء عامودا كان يكرّر أنّ أرخص ما في المدينة هو الإنسان. كان يتمّ استرخاص الجميع وكلّ شيء بحجّة الدفاع عمّا هو أهمّ وأسمى. ولا أدري ماذا أهمّ وأسمى من الإنسان والإنسانيّة!

الموت متربّص بك في كلّ الزوايا والأزقّة والشوارع، لا شيء يحميك، قد تموت بقذيفة طائشة، وقد تقضي على يد مجهولين ملثّمين خطأ، وقد ينتقم منك بعضهم من دون أن تدري أسباب انتقامهم، تتعدّد سلسلة احتمالات القتل والموت، وحدها الميتات الطبيعيّة هي الأقلّ في زمن الموت المجّاني المعمّم.

في تلك البلاد، قبيل الحرب، كان الإنسان رخيصاً جدّاً، لا قيمة له في نظر النظام، أيّ امرئ يحاول التطاول يكون عرضة للانتقام والإيذاء به في وضح النهار. جاءت الحرب لتسرق أرواح الناس بالجملة، ليتحوّلوا إلى أرقام يعلو عدّادها يوماً بيوم، ولا يحاول أحد في العالم المتحضّر إيقاف هذه المجزرة الماضية المستمرّة.

الحرب غدت السبب المباشر لفقدان أعداد كبيرة من الناس لأرواحها، قبل ذلك كان يتمّ اغتيال إنسانيّة الإنسان على جرعات، كأنّ يتمّ استلابه مصدر رزقه، ومحاربته في لقمة عيشه، ومنعه من الشعور بذاته كإنسان له ما له من حقوق وعليه ما عليه من واجبات. كان المطلوب إبقاء شعور الهزيمة مستقرّاً ومتنامياً في أرواح الناس الذين لم يعرفوا معنى حقيقيّاً للمواطنة في بلدهم.

تعرّضت أكثر من مرّة لحوادث كدت أفقد فيها حياتي، وكان يتمّ دفعي إلى تلك الحوادث بطريقة ما، أو تهيئة الظروف بنوع من التدبير والمكيدة، ليتمّ إبراز الأمر فيما بعد وكأنّه قضاء وقدر، ويتمّ تجاهل الأسباب الحقيقيّة والتعمية عليها بحجج بائسة.

تسبّب حوار قصير أجرته معي إحدى الصحف العربيّة بنقلي من مدينتي عامودا إلى تلك القرية البائسة، كان ذاك النقل نفياً، عقوبة لي على تجرّئي برفع الصوت ضدّ امتهان الإنسان واسترخاصه، ذكرت حينها أنّنا نعيش في بلاد تكاد تنعدم فيها الفرص؛ فرص الحياة وتفاصيلها، من أيّ نوع كانت.

أصرّ المحقّق على النيل منّي وتسخيفي وتحقير الكتابة والفكر والأدب، وكان مسدّسه المركون على الطاولة رمز قوّته وتفوّقه عليّ. وكان يكرّر على مسامعي بضرورة ألّا أتفلسف في إفاداتي عن أسئلته التي يطلب فيها منّي تفسير الكلام الذي صرّحته به في حواري، كان يتوقّف عند كلّ كلمة ليسألني عن مقاصدي من ورائها، وإشاراتي وسهامي إلى السلطة فيها.

كان يكرّر لي أنّ كلامي ملغّم ويحتمل التأويلات لكنّه يعلم مقاصدي الحقيقيّة من ورائه، وأنّني أحاول استعراض جرأتي في نقد السلطة، وأبحث عن حظوة معنوية وبطولة متخيّلة، وهذا ما لن تسمح لي السلطة بالحصول عليه، ولن تكرّمني بجعلي بطلاً وهميّاً في عيون الناس الذين قد يعجبون بقولي أو فعلي لكنّهم ينكفؤون على ذواتهم، وينأون بأنفسهم عنّي، وعن «وجع الرأس» الذي قد يطالهم جرّاء تعاطيهم معي.

كان هناك سؤال عمّا ينقص الثقافة العربية، فأجبت بأنّه ينقصها النقد، الاستشفاء من الشلليّات، الابتعاد عن المحسوبيّات، بتر الذراع المتنفّذة للسياسة في توجيه دفّة الثقافة، التحرّر من وساوس الغزو الثقافيّ، أي ثورة ثقافيّة بالمعاني كلّها.

فتحت هذه الجمل القصيرة أبواب الجحيم عليّ، بدأ المحقّق بكيل الشتائم لي، كان يهدّد ويتوعّد ويقول إنّه سيبتر لساني من حلقي، وإنّني جبان أختبئ خلف التوريات والاستعارات، وإنّ الدولة وحدها – وكان يقصد النظام وأجهزته الأمنية بقوله الدولة – لها الحقّ في البتر والقطع والوصل، وما عليّ إلّا الرضوخ لسياساتها وهي أدرى. وكان يشدّد على أنّني متآمر على الدولة ومتواطئ مع العدو لإضعاف نفسيّة الشعب وبثّ الشائعات بينهم.

وصفني بأنّني من أنصار التطبيع مع العدوّ الصهيونيّ، وأنّني أرى إسرائيل حليفة لي وسنداً ولا أراها عدوّاً، وبأنّني حين أدعو إلى التحرّر ممّا أصفه بأوهام الغزو الثقافيّ فإنّني أفتح الباب أمام إلغاء شخصيّة العربيّ، وأدعو لفتح قنوات للتطبيع مع العدوّ الذي سيغزو البلد بما ومن فيه، ويدمّره.

لم يكن يترك لي أيّ مجال لأقدّم إفاداتي، وما إن كنت أعني ضرورة التحلّي بالثقة بالنفس والتاريخ والثقافة والحاضر، وأن تكون قوة المعرفة هي القائدة والداعمة والحامية، لا الخواء الذي يتمّ تضخميه عبر شعارات جوفاء لا تجدي ولا تحمي.

- ثورة ثقافيّة يا ابن الكلب؟! مَن أنت أيّها القزم لتنادي بالثورة؟! اللعنة عليك وعلى شكلك التافه الحقير يا مَن تتوهّم أنّك كاتب وروائيّ. الثورة مستمرّة منذ أن قادها الأب الخالد ونحن ماضون في تحرير البلاد من جواسيس العدوّ وأذرعته الثقافيّة من أمثالك يا متصهين... تدعو إلى بتر ذراع القيادة السياسيّة وتوجيهاتها المقدّسة، وتدعو إلى ثورة كذلك.

كان المحقّق يحتقن غضباً، يرغي ويزبد، وهو «يرثّب» مسبّاته ويبالغ في وعيده. لم يستعمل الضرب معي، كان يتعمّد إيذائي بالكلمات والسباب. علمت فيما بعد أنّ هناك مَن توسّط لدى ضابط في الفرع ودفع له مبلغاً من المال كي لا يتمّ إيذائي جسديّاً لأنّ جسدي لا يحتمل التعذيب والضرب.

كنت قد أجبت عن سؤال: ما الذي ينقصك في بلدك على الصعيد الثقافي؟ بأنّه ليست هناك مؤسّسات تهتمّ بالكاتب بعيداً عن تأطيره وتقزيمه وتحديد السقف له، وضرورة أن تكون هناك منابر تبتعد عن التفكير بذهنيّة العصابة.

حين أستعيد ما عشته في تلك الأيّام من أوقات عصيبة بائسة، أعجب كيف كنت أتحمّل ذاك الإيذاء كلّه من دون أن أفكّر في أن أصبح قاتلاً منتقماً من كلّ من تربطه بالمخابرات صلة ما. لا أقول إنني أترفّع عن الانتقام بقدر ما أجد نفسي منشغلاً بهموم وهواجس أخرى أكبر، لم تكن غايتي في أيّ يوم أن أنتقم من ضحيّة. كنت أعتبر أولئك المحقّقين ضحايا ظروفهم وواقعهم بدورهم. كنت أرثي لحالهم وأوهامهم عن أنفسهم وعالمهم.

ابتسم فجأة وهو يقول: «أخيراً ها أنت تقول شيئاً مفيداً وصحيحاً. أقسم أنّ معك حقّاً منة بالمنة». كان قد قرأ سؤال الصحيفة لي: «نصيحة قدمت لك ولم تأخذ بها؟»، وكنت قد أجبت حينها: «لا تتزوّج».

سعد بذاك الجواب، فسّره بأنّني نادم على زواجي، وأنّني مثله أيضاً، هو الذي يمجّد عظمة مرحلة العزوبيّة ومتعتها ويتغنّى بالحرّيّة التي يمتلكها الأعزب، لا امرأة تنقّ عليه وتصدّع رأسه وتعكّر صفو أيّامه. ولم يفسح لي أيّ مجال لأخبره برأيي عن فكرة النصيحة ولعبة الاستنصاح، وكيف أنّ كلّ امرئ في النهاية يعيش تجربته ويكتسب عبرته وحكمته

وخبرته منها بعيداً عن أيّة نصائح أو اقتراحات.

عقّبت على كلامه بقولي: «بالفعل الحرّيّة هي أعظم شيء ينبغي تمجيده». انتبه إلى أنّ جملتي ربّما تكون ملغّمة، فسارع إلى ضبط ملامحه، وعاد إلى دأبه في إهانتي وتسخيف أقوالي، وعاودت رثائي له ولأمثاله، قلت له: «أنت تؤدّي عملك، وأنا أيضاً أؤدّي عملي».

يفضّل بعض الناس العيش في ذلّ العبوديّة، متخيّلاً أنّه يحيا في فردوس تاريخيّ، لا يستطيع التفكير في أنّه قد يكون سيّد نفسه وقراره ذات يوم، يجد في التبعيّة ذاته، يتبلور وجوده بانقياده لسلطة الآخر وأوامره. تكون الذات في محنة مركّبة، تكون صورة الآخر الشوهاء في مرآة الأنا، حيث الأنا تائهة في ضباب الهوية نفسها.

لا يمكن لمن أدمن العبوديّة أن يستمتع بالحرّيّة، وتراه يستقبح أفعال أولئك الذين يقدمون على تحدّي أجهزة النظام القمعيّة، ويصفهم بالمجانين والأغبياء الذين يتوهّمون أنّهم بممارساتهم البائسة سينالون من قوّة تلك الأجهزة التي تنسّق معها أهمّ وأقوى أجهزة المخابرات في العالم.

ذاك الحوار الذي تسبّب بنفيي ونقلي وإهانتي وإيذائي كان قد مرّ في الصحيفة كغيره من الحوارات اليوميّة التي يتمّ نشرها، ولم ينتبه أحد إلى أنّه قد غيّر مسار حياتي برمّته، وأخرجني من هدوء وأمان إلى قلق وتوتّر وتعذيب. وتسبّب بإصابة زوجتي بقلق مزمن عليّ، ناهيك عن تسرّع القلب الذي أصيبت به أكثر من مرّة.

الطريف أنّني حين التقيت في معرض القاهرة الدوليّ للكتاب بمعدّ ذاك الحوار مصادفة في أروقة المعرض، وكان قد مرّ على نشره بضع سنوات، أخبرته أنّ الحوار القصير الذي نشره في صفحته الثقافيّة قد غيّر مسار حياتي وتسبّب لي بكثير من المشاكل. ابتسم وهو يقول لي إنّه لم يتذكّر الحوار ولا تفاصيله. ابتسمت بدوري له وتركته من فوري، قلت له: أراك لاحقاً.

لم أنتظر منه أن يعوّضني عمّا أصابني، لكن ذاك الاستخفاف لم يقلّ إيذاء في نفسي عن إيذاء المحقّق. شعرت بإهانة تسحق روحي، فهذا الذي يفترض به أنّه يقدّر الكلمة حقّ قدرها، ويعرف قيمتها ومسؤوليّتها، يتنكّر لها بطريقة ما. تذكّرت مثلاً كردياً يقول: «بعض الناس يتحدّثون من أفواههم، وبعضهم من مؤخّراتهم».

اكتفيت بالبسمة وأدرت له ظهري، كنت أدير ظهري لذاك الواقع الذي ينهض فيه المحقّق بدور المؤوّل لما بين السطور، وما في الصدور، ويتخلّى

الشاعر عن تقديره لقيمة الكلمة وقيمتها وسموها، وينساق وراء تمييع القيم فيكون أكثر خطراً على الفن والأدب والفكر من القتلة والجاهلين.

الراعي الصغير والعسكر التركي

كانت طفولتنا عبارة عن سيل من التحذيرات التي لم نكن نعي منشأها وأسبابها ودوافعها، فكلّ شيء كان معرضاً لينقلب علينا. تخرج من البيت على وقع التهديد، ونعود على نبرات الوعيد، ومن غير دراية ووعي وتخطيط كانت تستلب منّا الطفولة لنبقى في متاهة العمر، لم نبلغ الفتوة بعد، ولكننا نعامل معاملة الكبار في كثير من الأشياء والأفعال.

«إياك أن تتحدث في قضايا الكبار». «احذر أن ترفع صوتك بالكردية في المدرسة». «لا تحتك مع أبناء عناصر الشرطة والمخابرات ولا تتقاتل معهم». وغير ذلك من التحذيرات اليومية التي كانت في صلب التفاصيل الحياتية المعيشة، وكان ينبغي لنا تطبيق التعليمات من دون أن نفهم ما وراءها تماماً.

اكتشفت التناقض الذي يغرق فيه واقعي، وأغرق فيه من حيث لا أدري، والانقسام بين البيت والمدرسة. فحياتي التي كانت تمضي بالكردية في البيت والشارع وكلّ مكان، انقلبت حين دخولي إلى المدرسة، كان عليّ البدء بتعلم الحديث والكتابة باللغة العربية، كنّا نتقبل الأمر ببساطة ونتعامل معه على اعتبار أنّه واقع لا مهرب منه، ولا طريق آخر سواه.

في الصيف كان ينبغي لنا مساعدة أهلنا في شؤون البيت، ولم يكن يخلو معظم البيوت من عدد من الماعز أو الغنم أو البقر، وكانت تشكّل الحيوانات مصدراً لحليب الأسرة ولبنها وجبنها ورديفاً لإعانة الأسر الكبيرة بمعظمها. وباعتباري الابن الأكبر في البيت، وكانت هناك ثلاث أخوات أكبر منّي، كان يتوجّب عليّ النهوض بكثير من الأعباء التي كنت أشعر بأنّها تضعني في غير ملعبي.

كنت أقود المعزات مع أقراني الاخرين من الأطفال الذين يتحوّلون إلى رعاة بعد المدرسة، ونمضي إلى السهول القريبة، كنّا نجمع دوابّنا ونطلقها في المراعي القريبة، ونقسم أنفسنا إلى فريقين لكرة القدم، وغالباً ما كنّا نفتقد كرة قدم حقيقية كبيرة، لذلك كنّا نستعيض عنها بكرات مطاطية نحشوها ببعض القماش، أو بجوارب كبيرة مبخوشة نحشوها ببعض العشب، ونسرح ونمرح ونلعب حفاة، نخوض معاركنا الطفولية في السهول التي كانت مراعي لحيواناتنا وملاعب لمبارياتنا وصراعاتنا الضارية.

كان يصدف أن يتبع بعضنا حيواناته الضالّة الهاربة من القطيع إلى سهول قريبة من الحدود التركية التي كانت بالنسبة إلينا خطوط رعب وإنذار خطيرة يجب عدم التفكير في الاقتراب منها أبداً، لأنّ التنبيه

المتكرّر والدائم كان بتحاشي الاتّجاه صوب الحدود للرعي، وعلى الرغم من وفرة المرعى هناك إلّا أنّ الخطر المحيق كان أكبر من أيّ إغراء بالرعي.

كانت ظهيرة حارقة، تلك التي دوّى فيها أزيز بضع رصاصات منطلقة من بندقية عسكريّ تركيّ على الحدود باتّجاه صديقنا الطفل الراعي الذي تبع قطيعه الصغير إلى منطقة قريبة من الأسلاك الشائكة المكهربة. يبدو أن العسكريّ التركيّ لم يتحمّل معابثة القطيع للحدود، أو جرأة الطفل بالاقتراب منه، وربّما تسلّى بإطلاق النار عليه وجعله درينة للتصويب وتجريب مهاراته في القنص والرماية والقتل.

لم يكتفِ الخفير التركيّ بقتله، بل أطلق رصاصة حارقة على بيدر القشّ الذي سقط عليه صديقنا الراعي الصغير، أحرقه مع البيدر الذي جعله كفناً له. واستوجب الأمر لملمة رفات الطفل المغتال وبقايا جثّته المتفحّمة من بين رماد بيدر القشّ المحترق.

بعد تلك الحادثة تغيّر أسلوبنا في الرعي، وتغيّرت طريقة أهلنا معنا. لم نعد رعاة صغاراً، يبدو أنّنا كنّا مشاريع أعداء كبار بالنسبة إلى العسكريّ الذي اغتال الطفل، ولم يكن ليتردّد في تصفية آخرين لو اقتربوا من نقطته التي يحرسها.

سادت أجواء الفجيعة البلدة كلّها، فالجثّة المتفحّمة تؤكّد أنّ الطفل ظلّ بعيداً عن الحدود أكثر من بضع مئات من الأمتار، وأنّه كان يهشّ بعض عنزاته المشاكسة ويحاول إرجاعها بعصاه التي كان يلوّح بها، ويبدو أنّ العسكريّ التركيّ عاقبه على تجرّؤ قطيعه على الاقتراب من الأسلاك وعدم الاكتراث لأيّة خطورة محتملة.

تلك الحادثة نبّهتنا إلى أنّ الأمر أخطر من تحذيرات الأهل الروتينيّة الدائمة وتهديداتهم المتكرّرة، وأنّ هناك أشياء كثيرة غامضة عصيّة على أفهامنا، وينبغي علينا التقيّد بتعليمات الكبار، والكفّ عن مناقشاتنا إزاءها وتبرّمنا منها. لكنّ ذاك الشعور لم يكن ليدوم طويلاً، وكنّا ننشغل بأنفسنا وعبثنا المتجدّد بعدها.

أستعيد ما قبلها من أحداث ووقائع، وكيف غافلنا الموت كثيراً، أو سها عنّا العسكريّ التركيّ المرابض في محرسه القريب منّا، أو تجاهل مشاكساتنا الطفوليّة البريئة، وذلك حين كنّا نمضي، أنا وبعض أصدقائي الأطفال المشاكسين، لنسطو على بعض أعشاش الطيور بالقرب من الأسلاك الشائكة، وكنّا نخوض في رمل الوادي الصغير المعروف بوادي الخنزير، أو مائه أو طينه، ونحتمي بالأعشاب الطويلة لنزحف إلى أهدافنا البعيدة،

ونستلقي هناك تحت الخط الحديديّ الذي كنّا نراه من بعيد بالعادة، ونشعر بنشوة تجتاح أجسادنا حين يمرّ القطار من فوق الجسر، ونحن نسمع صرير عجلاته والضجيج الذي يخلّفه في مروره والرعشة الممزوجة بالخوف وبهجة المغامرة وسحرها.

لم نكن نخبر أهلنا عن اقترابنا من الحدود، ولا عن رحلات صيدنا ومغامراتنا المجنونة، كنّا نتواطأ فيما بيننا على حفظ سرّنا الصغير البهيج، لكن بعد مشاهدتنا للنيران تفتك بجسد صديقنا الراعي الصغير تركنا الأمر، ولم نعد إليه، لكن شعور تجاوز الخطّ إلى الجهة الأخرى ظلّ يراودنا ويفتك بنا، كان الفضول القاتل ينهشنا، وكان الرعب كان أفظع، لذلك تجاهلنا تلك الرحلات السرّيّة، وتركنا بيوض العصافير هناك تفقس بسلام وأمان... لكن لم نهنأ نحن بأيّ أمان أو سلام أو اطمئنان. ظللنا أسرى قلقنا وخوفنا من الحدود، ومن العسكريّ التركيّ المرابض هناك مصوّباً إلينا بندقيّته.

كانت صورة مصطفى كمال أتاتورك منقوشة على التلّة المواجهة لمدينتنا عامودا من الجانب التركيّ، وصورة حافظ الأسد في الجانب السوريّ، كنّا نسمّي التلّ بـ»تل كماليه»، ونسمع نَهراً من أهلنا بأنّه «تل عامودا»، وأحياناً أنّه «تل دارِة»، كان الصراع على التاريخ والجغرافيا حاضراً في واقعنا وكان يترتّب علينا، ونحن أطفال لا نفقه في المفاهيم والمصطلحات والصراعات السياسيّة واللغوية، التمييز بين مصطلحاتنا ومصطلحات الآخر الذي كان بالنسبة إلينا قوّة احتلال.

كنّا نقبع بين صورتين جاثمتين على صدورنا من جهتي الحدود، تكتم السلطات التابعة لهما أنفاسنا. تمنعنا من لغتنا، تحاول سلخنا عن أنفسنا وتغريبنا عن ذواتنا. لم أكن أعي حينها هذا التفظيع والتنكيل لكن الواقع كان يصدمنا كلّ مرّة بحقيقة أنّنا نعامل بمنطق العداء والاحتلال من قبل السلطة.

كنّا رهائن ذاك الخطّ وضحاياه، نسمع حكايات غريبة عن أهلنا؛ أعمامنا وأخوالنا وأقاربنا الباقين هناك في الجهة الأخرى، أولئك الذين يتكلّمون ويدرسون بالتركيّة، نتوق إلى لقائهم واكتشاف عالمهم البعيد القريب، لكن رعب الاقتراب من الخطّ الحدوديّ كان يقعدنا عن أيّ محاولة، كما أنّ مشهد احتراق صديقنا وتفحّم جثّته ظلّ خالداً في مخيّلاتنا وتحوّل إلى كابوس يمنعنا من النوم. كنت أصرخ أحياناً في نومي وأتخيّل نفسي ذاك الطفل المحترق في بيدر القشّ، وكيف أنّ أهلي سيصابون بكارثة قاتلة.

«أسرجت خيلي يوم رأت عيناي ضوء الشمس». مقولة ترد للتعبير عن أعباء المسؤولية التي تحفلها المرء في مرحلة باكرة من حياته، حتى أنّ طفولته وقعت رهينة تلك المسؤولية التي وجد نفسه يرزح تحت أثقالها. وهي مقولة تنطبق على طفولتنا البريئة المفعمة بالتناقضات والصراعات التي لم نخترها، لكن وجدنا أنفسنا خائضين مستنقعاتها غارقين في معمعتها التي أنتجت وقائع أكثر إيلاماً ودمويّة لاحقاً.

أيّة طفولة وحشيّة عشناها! في أيّ عالم بزي كنّا نحيا! لماذا لم يكن هناك مَن يكترث لحماية طفولتنا وبراءتنا!

أسئلة كثيرة تظلّ عالقة في فاصل زمنيّ فقد بوصلته بين الأمس والغد.

«ما يفرّقنا أكثر بكثير ممّا يجمعنا، علينا ترك التحايل على أنفسنا وعلى الآخرين». إلى أيّ حدّ تنطبق هذه المقولة على الواقع؟ لماذا نحرص على الظهور بمظهر المتحابّين في حين أنّ أحقادنا وضغائننا جمر تحت رماد الابتسامات الزائفة؟ هل خرافة الأخوّة أكذوبة ككلّ الأكاذيب؟ هل يراد من المرء أن يسعى إلى تأصيل الأكاذيب وترقيع الفجوات التي يحدثها الواقع بصدماته المتتالية؟

توصَف رسالة الأدب والفنّ بأنّها إنسانيّة، ويحاول البعض تقييد الأديب بتحقيق ما يصفونه بشرطي الأدب المتمثّلين بالمتعة والفائدة. الأنيس في ليالي الوحشة. هل هذا هو دور الأدب؟ ماذا لو اختار الكاتب أن يرشّ الملح على الجروح في مسعى منه لإطلاق صفّارات الإنذار؟ لماذا قد يرقّع الأدب قباحات الواقع؟

يُتّهم بعض الأدباء والدراميّين أنّه يفتعل المصادفات في عمله حين ينسج حبكته، ويربط شبكة علاقات الشخصيّات، ويرسم المصائر. المصادفات التي يعجّ بها الواقع تتفوّق على أيّ خيال أدبيّ. يُتّهم آخرون بالمباشرة، وأنّهم يخترقون قواعد الخطاب الدراميّ في الإيحاء والترميز. ما بين السطور لا يقلّ أهمّيّة عمّا يتصدّر الصفحات. ما في الصدور يحتاج إلى تظهير الصور، وتصويرها في مشاهد، ثمّ الإشارة إلى ما ينبغي التنبّه إليه من مكامن وخبايا.

رحلة أيّ أديب أو فنّان مع متابعيه هي رحلة الصيّاد مع طريدته. يسرّب له ما يبقي تشويقه مستعراً، ويحرّضه على التشبّث بالعمل حتّى خاتمته. يلقي له الطعم تلو الطعم في استدراجه إلى عوالمه. يرسم له ما يصبو إليه، ما يرومه، ما يفتقده، ما يستفزّه، ما يدفعه إلى تقليب الصفحات بحثاً عن أسرار مخبوءة.

لا يعدم سوق الأدب والفنّ تصدّر مشهد الوصاية من قبل بعض صنّاع الكتاب والأعمال. العمل الذي ينبغي أن يتصدّر لائحة الاعتبارات المسوّقة له يتراجع إلى الخلف في سلّم الأولويّات. يتقدّم بدلاً منه ما يهيّئ له الأرضيّة ويمهّد الطريق ويذلّل العقبات. قد تلعب المصادفة دورها في التصدير أيضاً.

في كلّ سوق هناك مَن ينصّب نفسه وصيّاً على الزبائن. يختار لهم ما يرغبون فيه وما يرغبون عنه، وما قد يرغبون فيه، يرسم لهم مخطّط رغباتهم المفترضة وتوجّهاتهم التي يخمّنها. في كلّ مجال، في كلّ زمان

ومكان، هناك عتمة وصدفة وضرورة لمن يسدّ الفراغ ويملأ الشغور ويحفظ التوازنات. حسب السوق نسوق. هكذا يكرّر الجميع.

حوار الحضارات، حوار الثقافات، حوار الأديان. الحوار المفترض المضاف رغماً عنه إلى الحضارات والثقافات والأديان لا يعدو كونه وسيلة تحايل على الذات والآخر. الكلّ يعرف أنّ المسألة برمّتها عبارة عن خدعة محترمة، وكذبة تاريخيّة لا تقنع أحداً، لكنّهم يواظبون على ممارستها بصدق يظهر من شدّة التمثيل بريئاً ممّا يلصَق به من مزاعم.

أيّ حوار وأي تصالح والصراع قائم على أشدّه، ويزداد شراسة وضراوة وعنفاً يوماً بيوم؟! لماذا إخفاء الحرب المحتدمة حقيقة منذ فجر التاريخ، والتي ستستمرّ إلى ساعة انهيار الحضارات واندثار الثقافات وتبدّد الأديان؟ من أين يمكن إيجاد سبل للتحاور وذرائع الاستعداء تتضخّم تباعاً سراعاً؟

ربّما يصحّ توصيف الحوار المنشود بنفاق الثقافات، وتعارض الحضارات وتصارع الأديان. تراهم يجتمعون هنا وهناك، بطاركة الوهم وشيوخ الفتنة وأحبار الدم والجنون. كلّ طرف يجد نفسه الأصلح والأنسب والأفضل، وحين يجالس خصمه تحت شعار الإخاء، يستبطن الكراهيّة القاتلة في داخله. يبدو أنّ الكره هو محرّك البشريّة، والناس وقود الحرب القائمة منذ الأزل وإلى الأبد. الكره هو الأبقى.

التغطية بالإعلام والمزاعم والترقيعات. أذكر مقولة «غطه باللحاف» التي كانت دارجة في البلدة. هي على بساطتها تنطبق على الحوار المزعوم الذي يتشدّق به الجميع في العلن، في حين يؤجّجون نيران الضغائن في السرّ.

كانت ليلة زفاف أحدهم في البلدة. انتصف الحفل، وحان موعد التنقيط، وتلبيس الخواتم والهدايا، وفي تلك اللحظة بالذات، أخبرت ابنة خلّكي والدها أنّ أخاها الصغير المريض مات. لم يفكّر خلّكي كثيراً، لم يتردّد وهو يخبرها بأن تعجّل وتغطّيه باللحاف، وأنّ لا بأس من الانتظار لحين الانتهاء من جمع الهدايا وفلوس التنقيط. لعن خلّكي التوقيت غير المناسب للموت، لكنّه لم يبالِ به، بل استمرّ في حفلته كأنّ شيئاً لم يكن.

يبدو أنّ التغطية باللحاف هي ميسم حوار الحضارات والأديان، وديدن المتحاورين الذين يبدون في استعراضهم كأنّهم مندوبون عن عصابات موت تتزبص بالآخر. أيّة واجهة دينيّة أو ثقافيّة تخفي في داخلها صورة عن خلّكي في بحثه عن لملمة نفقاته وجمع مصاريفه، وعدم التفريط

بحفلته التي تكون وسيلته لتحقيق مأربه المادّيّ.

الاقتتال هو الحقيقة الوحيدة المستمرّة بفعل الزمن وفضل الكره المتجذّر. يتهافت الإعلام بطرق إعلانيّة لترقيع واقع الأمر وإخفاء عورات المتحاورين المتخاصمين في حقيقتهم. يبالغ في رسم صور دعائية، قوامها ابتسامات مزيّفة وتمثيليّات باهتة، في حين أنّ ما وراء الصور بحر من الاستنقاع والتباغض والكره الذي يعمي البصائر، ويقود إلى رسم مصائر دمويّة عبر التحريض المبطّن المتكتّم عليه، والتجريم المعمّم من كلّ طرف ضدّ الآخرين.

الأحكام المسبقة قيود تاريخيّة، جروح ملتهبة تنزّ قيحاً مغرقاً. تحيّات دمويّة وابتسامات عنيفة. أيّ لقاء دعائيّ، لأيّ حوار مزعوم، هو في جوهره مختصر لحكاية التغطية باللحاف. الكلّ يترقّب التنقيط ويضمر الكره ويؤجّل دفن الميت.

هذا العالم ليس سوى سوق سوداء. المجد يظلّ من نصيب تجّار السلاح والأرواح، والثراء لمؤجّجي الفتن ومشعلي الحروب. قوانين السوق السوداء التي تبدو خارج القوانين المتعارف عليها، تقتضي وجود بؤر دائمة للاقتتال والاحتراب، وبؤر أخرى خامدة مرشّحة للتفجّر حين الطلب.

مهر المستقبل أنهار من الدماء وأوطان مشيّدة في مقابر. إلى أيّ مستقبل نرنو ونحن محاصرون ببقايا إنسانيّتنا المهدورة. لكل تفصيل مهما بدا صغيراً، أو هامشيّاً، سوقه الخاصّة به. وبرفقته السوق المعلنة، سوق الظلّ، تلك التي تعرف بالسوداء. كأنّه لا بدّ من الرديف ليكتمل المعنى، وتنغلق الدائرة بالانفتاح على الممنوع المشتهى.

العرض والطلب يتحكّمان بسيرورة الحياة في هذه السوق الكبرى. ففي الوقت الذي ينشغل فيه الملايين بتفاصيل حيواتهم ومستقبلهم، هناك مَن يقبع في مكاتب مكيّفة، وفي ظلّ خرائط دقيقة، يدير مخابر ومصانع كبرى، يخطّط كيف يصرّف بضاعته ويصدّر تجارته، ولا يهمّ عدد ضحاياه الذين سيودي بهم، أو يضعهم على درب العدم. يبدّد الانهيار ليحمي نفسه من الانهيار الحتميّ الذي يؤجّل بالتقادم، ويكتسب تجذّره وقوّته كمصّاص دماء من أجساد ضحاياه.

لا يعترف السوق بالمشاعر والأحاسيس. يمضي في رحلة التدمير ليبني أسطورته. البشر فئران تجارب، أرقام، ميدان تلاعب، بضاعة، تجارة، فائض قيمة، نقطة تلاعب في ميزان الربح والخسارة. ما يطفو على السطح وما ينبغي التخلّص منه حين إعادة تصنيف الملفّات وإعادة ترتيب

المستودعات.

العالم سوق سوداء. لا بدّ لنا جميعاً من أن نصرخ بهذه الحقيقة التي لا نستطيع أن نغيّر فيها شيئاً. لا بدّ من أن نتحلّى ببراءة وجرأة الطفل الذي رأى الملك عارياً وصرّح وصرخ بما رآه من عري.

أحياناً يكون اكتشاف مواطن الأدواء مفجعاً أكثر من بقائها مجهولاً. حين تظلّ مجهولة يتولّد الأمل بالعثور عليها بطريقة ما، لكن حين اكتشافها واستحالة الحصول على الأدوية الناجعة، يبلغ قهر الرجال أشدّه، طالما هي بيد القاتل الذي يجرّع ضحاياه السموم فقط، ويمنع عنهم ما يساعد على التداوي والمعالجة.

الطعم هو أساس السوق. حين كنّا صغاراً نسعى وراء الطيور بغية اصطيادها، نضع لها طعماً في الفخاخ التي ننصبها لها. كانت فخاخنا متنوّعة، بأكثر من طريقة ومادّة. الفخاخ الحديديّة الصغيرة نصطاد بها العصافير والطيور الموسميّة الملوّنة البريئة. كان الربيع شهر مقتل العصافير في طفولتنا. شهر تلويث البراءة واغتيال الجمال. يبدو أنّ مفاعيله مستمرّة بأكثر من صيغة ولون.

ننبش في الحظائر التي لم يكن يخلو منها بيت في البلدة الصغيرة. نحفر في الزوايا، في الأماكن الرطبة، نبحث عن ديدان تثير شهيّة الطيور بحركتها اللولبيّة ودورانها في خيط الفخّ المنصوب.

الديدان كانت الطعم الذي نغري به الطيور لنوقعها في مصائدنا. وكانت الطيور التي نصطادها طعمنا للإيقاع بأخوات لها، وللانتقام من بعضنا البعض. فمَن يصطد أكثر عدد منها يغظ الآخرين بصيده، وقد تصل تلك المناكفات إلى عراكات جانبية تنشب على هامش رحلة الصيد المستمرّة.

لسنا سوى تلك الديدان التي توضع طعماً للإيقاع بالفرائس الكثيرة. وفي أحسن الأحوال نحن الطيور التي تزيّن الفخّ لطيور أخرى كي تقع في أتونه وتعلق في شراكه. نحن الديدان والعصافير معاً. نحن الصيّادون الذين أضعنا فخاخنا واغتلنا ربيعنا.

هل حكايات الناس أمانات على الكاتب التكتّم عليها وعدم البوح بها أو نشرها لئلّا يتسبّب بالكشف عنها وعن أسرار أصحابها وتفاصيلهم، وكي لا تصبح تلك الحكايات المشهرة وسيلة ضغط اجتماعيّة على أصحابها الذين وثقوا بالكاتب وأسرّوا له بها، أو بأجزاء منها، في الوقت الذي يسعى بخياله إلى سدّ الفراغات وتجسير الفجوات بين الأحداث والأفكار والشخصيّات، ويقدّمها بصيغة مبتكرة تعود بجذرها إلى أصحابها في حين تتفرّع في التفاصيل لتشمل آخرين، وهكذا تتحرّر من سطوة الفضيحة وتنطلق لتكشف عن المضمر والمخي والمخبوء بعيداً عن فضح الشخص أو كشف حقيقة ما جرى له أو ما فكّر فيه بطريقة مباشرة للناس.

الانتقال من مرحلة طالب لجوء إلى مرحلة لاجئ ربّما خطوة في اتّجاه التصالح مع الملجأ، مع الذات والآخر، عتبة على درب الاستقرار الذي يكون متعذّراً في سنوات اللجوء الأولى، وربّما يحتاج إلى وقت وجهد كبيرين، ينقطع الأمل ببعض الساعين إليه ويجدون أنفسهم منهكين في منتصف درب الأمل متألّمين لواقعهم ومُحبطين من التقدّم نحو استقلاليّتهم المرجوّة واستقرارهم المنشود.

يجد طالب اللجوء نفسه مرميّاً في سجن كبير، يتحزّك ضمنه بما يظنّه حرّيّة، لكنّه في الحقيقة محاصر من مختلف الجهات. هي مرحلة تشبه مرحلة دورة الأغرار بالنسبة إلى الشباب الذين كانوا يخدمون الخدمة العسكريّة الإلزامية في سوريا، فيها من المشقّات والضغوطات ما يصيب المرء باليأس والإرهاق.

هناك بعض الحالات التي يتمّ فيها إرغام طالب اللجوء على البقاء ضمن منطقة محدّدة، ويوضع تحت رقابة دائمة، بحيث يوضع في يده أو رجال سوار أشبه بساعة أو خلخال إلكتروني يبقي مكانه معلوماً للشرطة، ويبقيه تحت الطلب وفي واجهة المراقبة والمحاصرة.

حين يحصل اللاجئ على حقّ الإقامة يصبح شخصاً معترفاً به رسميّاً، له حقوق وعليه واجبات، يجد نفسه في دائرة أوسع، يدخل متاهة روتين مختلف، يتابع الأوراق التي لا تنتهي ويلتزم بما يصله من تحديد للمواعيد من مختلف الدوائر الرسمية. وينتقل من مرحلة الخمس باوندات إلى مرحلة العشر باوندات.

الخمس باوندات هي مخصّصات طالب اللجوء يوميّاً، وحين يحصل على الإقامة يتضاعف الرقم، لكن يصبح مطالباً بدفع فواتيره إذا ما استقلّ

ببيت، وعليه البحث عن سبل للتقشف والتقتير. والغرابة، كلّ الغرابة، أنّ هناك أشخاصاً كانوا يجمعون تلك النقود التي يحصلون عليها كمعونات للمعيشة ليتصرفوا بها لاحقاً بطريقة ما، كأن يرسلوا قسماً منها لذويهم، أو يبقوا قسماً لحاجة أو ضرورة. أمّا كيف كان يتمّ تدبّر الأمر والمعيشة فذاك أمر آخر!

صادفت أناساً يبقون تائهين متنقّلين من كنيسة إلى أخرى، أو من سلّة غذائية إلى سلّة أخرى، يتسقّطون أماكن المنح والأطعمة، يعتاشون على الفتات من هنا وهناك، يحاولون أن يقنعوا أنفسهم أنّهم يسعون إلى الاندماج وتحسين لغتهم عبر الاختلاط مع الناس، ويخفون أنّهم يبحثون عن لقمة يسدّون بها جوعهم، ذاك الجوع الذي يسجنهم ويبقيهم أسرى سلال وأطعمة وأماكن بعينها.

كان هناك شخص يقسم أنّ النقود التي دخلت جيبه لن تخرج منها، وأنّه سيراكمها ليصبح ثرياً، كان يعشق النقود ويستمتع بعدّها وشمّها، ولأنّه لم يكن ينوّع في طعامه وشرابه، وصل إلى درجة من الجفاف كاد معها أن يصاب بأمراض في المعدة، فقد أكثر من خمسة وعشرين كيلو غراماً من وزنه، وكان ذلك بذريعة أنّه يسعى إلى تخفيف وزنه منذ وقت طويل وجاء لجوؤه هبة إلهية له ليقوم بتنفيذ مخطّطه في الحمية. وصل به الأمر إلى عدم القدرة على التغوّط نتيجة سوء التغذية، واعتماده على أطعمة جافّة، وكانت بشرته الجافّة الشاحبة تشير إلى حالته المزرية، لكنّه يبتسم وهو يربت على جيبه ونقوده التي اشترى بها جوّالاً حديثاً أرسله إلى زوجته، ليؤكّد لها بطريقته أنّه اختار الوجهة الصحيحة وأنّه مقبل على الثراء حيث هو. ولم يكن يكترث أنّه يفقد ذاته، وقد يصاب بأمراض مزمنة جزاء ولعه بالمال.

شخص آخر كان مدخّناً لا يستطيع ترك التدخين لكنّه يعشق النقود أكثر من عشقه لأيّ شيء آخر، كان يدخل في صراع لا يهدأ مع ذاته ورغبته القاتلة في الدخّان، يتسقّط مظانّ الدخّان المهرّب ويسعى إلى شراء الأرخص ومن ثم لفّ سجائر رقيقة جداً وتطعيمها ببعض الشاي المجفّف. كان سعاله يملأ البيت، وشحوبه ينذر بفجيعة قد تحلّ عليه، لكنّه كان يستمتع بالباوندات القليلة التي يجمعها.

بالطبع كان بعض هؤلاء يلجأ إلى شراء ورقة يانصيب ذات الباوند الواحد في الشهر مرتين، عسى أن يسعفه الحظّ ويصبح مليونيراً ويربح جائزة كبيرة. كانت الأوهام تقود كثيراً من طالبي اللجوء، مَن يقثر على

نفسه على الرغم من الحصار المفروض عليه أصلاً، يقتطع من المبلغ الذي لا يكفي لأيّ شيء، والذي كان من شأنه أن يبقي المرء على عتبة الجوع والنقص، وطبعاً نزيل اليأس والإحباط ورهين الكآبة واحتقار الذات.

يفترض بأنّ مَن يحصل على السلال الغذائيّة من اللاجئين هم أولئك الذين ضاقت بهم السبل، ولا يمكنهم تدبير مأواهم ومعيشتهم، إلّا أنّ تلك السلال أصبحت بمثابة إدمان لعدد من اللاجئين المسكونين بوسواس مراكمة الفتات الذي يعتقدون أنّه سيجعلهم أغنياء مستقبلاً.

يسود تفكير بين بعض اللاجئين أنّهم هنا في مرحلة انتقاليّة بين الخروج من الوطن والعودة إليه، تراهم يجمعون من أموال المعونات التي يكلّف الاقتطاع منها البقاء تحت خطّ الفقر - يكون الأمر مخطّطاً بدقة من الحكومة التي تعتبر أنّ هذه المعونات تسدّ الحاجة من دون أن تمنح أي ترفيه - ليجمعوا بعض المال ويرسلوه إلى البلد.

يفضّل هؤلاء جمع النقود وإرسالها بطريقة ما إلى بلدانهم لشراء عقارات أو ذهب هناك، والاستمتاع بشعور الثراء المتوهّم هناك في ظلّ عيشه في قوقعة الفقر والخوف والنقص والدونية في ملجئه. وهؤلاء يقنعون أنفسهم أنّهم كغرباء ولاجئين يفترض بهم التفكير في مستقبلهم ومستقبل أولادهم والحرص على تحقيق إنجاز ما لهم، وعلى الأقلّ التمكّن من ترك ما يعنيهم على مشقّة الأيّام القادمة، وما لا يصرّحون به هو أنّهم يمارسون شغفهم بالنقود، ولا يلتفتون إلى ما يقعون فيه من ضياع لانهائيّ.

بالنسبة إلى البرنامج الحكوميّ المتمثّل بإعادة توطين اللاجئين السوريّين، فالأمر مختلف، ذلك أنّ اللاجئين المستقدمين لم يمرّوا بمرحلة طالب اللجوء التي يمرّ بها اللاجئ الداخل إلى البلاد بطريقة ما، سواء كانت شرعيّة أو غير شرعيّة، لذلك فهناك قسم منهم يعتقد بنفسه أنّه في موقع القويّ، المركزيّ بين لاجئي الأمس واليوم، يتباهى بأنّه «أمم» أي من أولئك المستقدمين عن طريق برنامج الأمم المتحدة لتوطين اللاجئين.

هناك مَن يبحث عن سبيل لتحسين ظروف حياته والتفكير في مستقبله هنا بطريقة تدخله ضمن نظام البلد الاجتماعيّ، لا البقاء على الهامش، ويسعى بكلّ جهده إلى تطوير ذاته ولغته والبحث عن عمل، في حين هناك آخرون ينظرون إلى الملجأ بطريقة مختلفة، يعتقدون أنّ المعونات التي تقدّم لهم يجب أن تبقى في الحفظ والصون ولا تخرج من جيوبهم تحت أيّ ظرف، أي يحسبون حساب العودة لبلدهم والبدء

بحياتهم من جديد هناك، بعد أن يكونوا قد حسّنوا ظروفهم المادّيّة وجمّعوا ثروة تكفل لهم احترام وتقدير من حولهم هناك.

الخوف من الفقر، الخوف من الجوع، الخوف من الخوف نفسه، يمنع اللاجئ من التصالح مع ذاته، يبقيه نزيل أوهامه عن الثروة والمال والتقدير، يبقيه في قوقعة السلال الغذائيّة والصدقات المقدّمة من هذا أو ذاك. كما أنّ بعضهم يعتقد أنّ حركته الدائبة على المنظّمات الإنسانيّة وتعرّفه إلى الأشخاص الذين يساعدون الفقراء واللاجئين مكسباً تاريخيّاً من باب التكسّب والارتزاق لا من باب التعارف الإنسانيّ والتواصل الاجتماعيّ.

أحياناً يتمّ جمع تبرّعات لإرسالها للاجئين السوريّين في المخيّمات، لكن هناك لاجئون يقحمون أنفسهم تحت بند الحاجة، وينتقون من تلك التبرّعات ما يزيد عن حاجتهم، ليقوموا تالياً بالتكرّم على غيرهم، وإبراز أنفسهم على أنّهم كرماء معطاؤون، في حين أنّهم لا يفكّرون في أنّهم اقتطعوا حصّة المحتاجين الحقيقيّين الذين يعانون الجوع والبرد في المخيّمات.

الحيل التي يفكّر فيها بعض اللاجئين الذين يظنّون أنّهم أذكياء وفهلويّون لا تنطلي على أحد، لكنّهم يقنعون أنفسهم بها. يظنّ بعضهم أنّ الحياة في بلد اللجوء، عدا عن كونها مؤقّتة، فهي معطّلة وموقوفة على البحث عن الغنى، ولا تحتاج إلى البحث عن المعنى، وهناك من يعتقد أنّه دخل الفردوس وما عليه إلّا أن يأمر وينهى. ويكون اصطلاح «العمل بالأسود» دارجاً بكثرة بينهم، وهو العمل خارج الإطار القانونيّ المتعارَف عليه في الدولة من تسجيل في مركز العمل وتوقيع للعقد وغير ذلك من التفاصيل، بحيث يوصف العمل بالأسود أنّه طريق من طرق الثراء في أوروبا، ذلك أنّ العامل بالأسود يستمرّ في الحصول على الإعانات؛ الكلّيّة أو الجزئيّة، من الحكومة، ويجمع ما يتقاضاه من عمله بالأسود ليضيفه إلى ما يتقاضاه من معونات، ويتخيّل نفسه جالساً على نبع يقطر له مالاً، ويغفل عن الانتباه إلى الزمن الذي ينسلّ من بين يديه، وما يبقيه أسير الأسود؛ الأسوأ في مستقبله.

هناك ممّن يعمل بالأسود يحرص على أن يجمع نقوده ويبقيها في بيته، يخشى من وضعها في البنك كي لا يُسأل عن مصدرها، كما يخشى من وضعها في مشروع كي لا يجد نفسه في موضع استجواب عن ثرائه المفاجئ، والذي قد يلفت الأنظار إليه ويضعه موضع شكوك قد تحوم من

حوله، فيفضّل مراكمتها وانتظار الظروف المناسبة لاستغلالها وتشغيلها، لكنه يظلّ قابعاً في خوفه من ظلّه ومن خيالاته ومن نقوده نفسها، وقد يودي به قلقه نفسه المتحوّل إلى وسواس، وذلك حين يسرّ لبعضهم بهواجسه، أو تنكشف كمّيّة نقوده لأحد من المحيطين به، فيحدث سطو عليها بطريقة ما، قد يتعرّض للسرقة من مقرّبين له، ولن يجرؤ على الشكوى للشرطة ولا إعلان تعرّضه للسرقة، لأنّه سيضع نفسه موضع شبهة ومساءلة عن تلك النقود، ولماذا لم يكن يصرّح عنها للحكومة. أي يمضي المال الأسود في ليلة سوداء ويصبح كابوساً أسود على صاحبه الذي يبقى سجين سواد الأفكار وسيادة الشكوك القاتلة بنفسه ومن حوله دوماً. المال المجموع بالأسود يكون فخّاً أسوأ يوقع بصاحبه في كثير من الأحيان.

حكى لي لاجئ مضى على إقامته في بريطانيا قرابة ثلاثة عقود، حقّق خلالها نجاحات وإنجازات على صعيد الدراسة والعمل، عن حالة تكرّرت معه بحكم عمله ومساعدته للاجئين الجدد القادمين إلى المملكة من الكرد والعرب، وصدمته الكبرى بعدد كبير منهم، وبخاصّة أفكارهم البائسة عن تفاصيل متعلّقة بالحياة الاجتماعيّة والاقتصادية لأبناء البلد واللاجئين.

بعد مساعدته له في كثير من التفاصيل المتعلقة بالاستقرار بعد الحصول على الإقامة، وعدم مطالبته بما كان يصرفه من مال ووقت وجهد في سبيل تأمين ظروف مناسبة له للتأسيس لحياته الجديدة والبدء بها في ملجئه، تبدأ الصدمة المتتالية بالتصاعد بهدوء، يتخيّل اللاجئ الجديد أنّ الحياة تمضي بسهولة ولن يحتاج إلى بذل مزيد من الجهد لتطوير ذاته أو للعمل، يصف المعونات بالرواتب الثابتة، ويتخيّل الثراء في فترة قصيرة والعودة إلى بلده بعد استقراره ليكون ثريّاً موضع تقدير واحتفاء وتعظيم.

أخبرني بخيبته حين أسرّ له ابن بلده الذي ساعده، واكتشف بساطة تفكيره وسطحيّته، بأنّ أمله يخيب بهذه البلاد، وأنّه كان يتوقّعها جنّة، لكنّها ليست بمستوى أمله، وبدأ بشكاواه أنّ المعونات لا تكفيه ولن يستطيع تحقيق آماله بشراء أراضٍ وعقارات في بلده، ولا الزواج بامرأة أخرى صغيرة وجميلة.

بيّت اللاجئ المخضرم في قرارته أمراً، وهو شراء هديّة لابن بلده، وإهدائه إيّاها، زاره مساء وبيده مكنسة صغيرة، أخبره بكلّ جدّيّة ورصانة أنّه جلبها له لأنّ هناك موعداً غداً في الحديقة العامة للبلدة توزّع فيه الحكومة النقود على الأرض، وتفسح المجال لمن يرغب في جمع ما يتيسّر له منها، وأوهمه أنّ الأمر عبارة عن تقليد سنويّ دأبت عليه الحكومة

لمساعدة اللاجئين الجدد الذين لم يجمعوا ما يكفيهم من النقود بعد لتحسين حياتهم، ولا تمنع الناس الآخرين ممّن يودّون الانضمام للتظاهرة من التقاط ما يرغبون فيه من نقود.

اقتنع اللاجئ الجديد بما أخبره به مواطنه الذي بات غريباً عنه بحكم الاختلاف الثقافي الذي شكّل فجوة يستحيل ردمها أو تجسيرها والخبرة الحياتيّة المتراكمة المبنية على تجارب ومشاهدات ومعايشات وصدمات وخيبات كثيرة. قصد الحديقة العامّة منذ الصباح الباكر، ومكنسته بيده ليجمع بها النقود، وكان قد وضع بجيبه أكثر من كيس ليملأه بالنقود التي كان يتأمّل أن يكنسها ويجمعها.

راقبه ابن بلده القديم وهو ينتظر رشّ النقود المفترض ليكنسها، كان يمسّد مكنسته كمن يمسّد ظهر حصانه الذي سيقوده إلى النصر في معركة تاريخيّة. ثمّ بعد دقائق كشف له عن نفسه وسلّم عليه بسخرية وهزء وهو يسأله: «هاا شريك... ألم تكنس النقود المرميّة على الأرض؟!». حينها فقط اكتشف ما تعرّض له من صفعة سخرية وإيقاع به في مستنقع جشعه مفضوح عساه يستقي عبرة، ويفتح عينيه على حقيقة الواقع، وأنّ النقود لا تكون مرمية على الشارع، وتحتاج منه إلى العمل والتعب لتحصيلها، وليس بالأسود فقط، بل بالألوان التي تضفي على حياته معنى وتمنحه كشخص كينونة مأمولة.

أحد اللاجئين، من أكراد سوريا، مرّ على مكوثه في بريطانيا أكثر من سبع سنوات، ظلّ يعمل خلالها بشكل متواصل، يجمع نقوده ويبقيها في بيته، لا يزور أحداً ولا يستضيف أحداً أيضاً، يكتفي بعلاقاته في العمل، لأنّه كان يعمل قرابة ثلاث عشرة ساعة يومياً في المطعم، يأكل ويشرب هناك، وكان البيت بالنسبة إليه للنوم فقط، ولم يكن يدفع إلّا فواتيره التي لم تكن تذكر، بالإضافة إلى بعض التفاصيل الضرورية من ضريبة البلدية وغير ذلك، وكان يعيش سعادته القصوى وهو يراكم نقوده ويطلق العنان لأحلامه بالثراء، بالعودة إلى البلد واختيار الزوجة التي يريدها ليشتريها بفلوسه، ومن ثمّ التلذّذ بحياته المتخيّلة هناك، من دون الإغفال عن توجيهه بعض الصفعات لأشخاص يحمل ضغينة عليهم، ولا يستطيع تطهير قلبه من تلك الضغينة، بل يجدها مشتعلة مستعرة في داخله بانتظار التحقّق وإرواء غليله منهم.

هذا الذي كانت أحلامه كوابيس مضنية له، تحرمه من العيش كشخص سويّ، تبقيه أسير قيود اللهاث وراء جمع آلاف الجنيهات في انتظار أن

يعيش تالياً ويستلذ بثرائه، تعرّض للسرقة في عزّ النهار، إذ سرق أحد العاملين معه مفتاح بيته من جيبه في المطعم وتوجّه مباشرة إلى بيته ليسطو على نقوده المجموعة في مخدّات، على طريقة الجدّات قديماً، ونبش في الخزانة أيضاً وأخذ حتّى الفراطة التي كان يبقيها على الطاولة في المطبخ، وتمكّن من إعادة المفاتيح إلى جيبه قبل أن ينتبه لذلك.

وقع ذاك الهائم بعشق الجنيهات في فخّ الشكّ القاتل بكلّ مَن حوله، ورويداً رويداً بدأ يكلّم نفسه، ويصرّح بصوت عالٍ بحكاياته وأحلامه وضغائنه ومشاريعه ومخطّطاته السابقة، ويطلق بين الحكاية والأخرى شتائمه، ثمّ ما لبث أن تحوّل ذاك الشكّ إلى قيد قاهر له، حوّله إلى مريض حقيقي، مصاب بعقد لا تنفكّ، مجنون بالشكّ، واشتهر بين اللاجئين بالمليونير المفلس، ومن ثمّ بالموسوس المعتوه، وأصبح مثالاً لمَن يؤجّل عيش حياته في انتظار زمن قادم قد يحمل لعنات له وعليه جزّاء سلوكيّاته وتضييعه فرص العيش الحقيقية، وبحثه عن عيش متوهّم. سمعت تالياً أنّه فقد عقله بشكل كامل... ولم أسعَ إلى تقصّي مزيد من التفاصيل عنه... بقي رقماً في مستنقع السواد الذي كان يتخيّله فردوسه القادم.

لا بدّ لي وأنا أدوّن جانباً من يومياتي البريطانية، من أن أعود إلى مواقف ومحطّات على درب اللجوء؛ المنفى، التشرّد، الاستقرار... في بعض الأمكنة التي مررت بها، والتي خلّفت آثارها التي لا تمحى في الروح والوجدان...

أنتحي لنفسي ركناً في زاوية المكتبة. أراقب الكاميرات المزروعة في السقف والجدران، تلك التي لا تفتأ تلتقط حركاتي وسكناتي وإيماءاتي. يبدو أنّ المكتبة أيضاً إحدى واجهات السوق السوداء البرّاقة.

كلّ قارئ يتحوّل إلى متلصّص على حياة الكاتب الخاصّة، يعتمد التأويل في كلّ تفصيل. يتبادل التلصّص مع الروائيّ الذي يدمن التلصّص على كلّ تفاصيل الحياة، ليعيد تشريحها وترسيمها في روايته، بنوع من التوظيف وإعادة الخلق. يتحوّل إلى متحرٍّ عن ألغاز أو أسرار لا يدري شيئاً عنها، لكنّه يخمّن وجودها، كباحث في منطقة أثريّة عن أيّ شيء يعثر عليه، فيظنّ أنّه مشروع ثريّ بمجرّد العثور على لقية أو تحفة أو أيّ قطعة أثريّة. يبحث بعض القرّاء عن جريمة مقترفة من قبل الكاتب، لا يهمّ بحقّ مَن تكون الجريمة، ما يهمّ هو اقتفاء الأثر وكشف الخيوط.

التأويل علّة متأصّلة لدى كثير من القرّاء والكُتّاب، وهو في الوقت نفسه بوّابة إلى النصّ، ومعبر إلى ما وراء النصّ، ما يتبدّى أنّه كوّة على الداخل المعتم للآخر.

إنّها الحياة خزّان الحكايات وبركان الروايات. يعاني المرء من فرط انهمار القصص الغريبة عليه، لا يجد بدّاً من تطويع الواقع بإحالته إلى الخيال والجنون. يوقن أنّه يتحتّم عليه مواجهة الحقائق بتشخيصها، وكشف المستور منها، للتمكّن من الاستدلال إلى درب للمعالجة والتداوي.

يوصّل المرء لدرجة يشعر أنّه مأسور بدوائر نارية تضغط عليه، تقيّد حركته، وتعطّل مخيّلته. يوقن أنّ هناك عبثيّة في كلّ التفاصيل. كأنّ الاختلال سمة العصور السابقة واللاحقة كلّها. عالم من الخرافة يسكن البشر ويسيّرهم إلى جحيم يتسابقون إليه. مسرح من الأكاذيب واللعنات. الواقع ملهاة مفجعة. ميزته المساومة على ما لا يملك في مسعى للحصول على ما لن يملك. مسعى عبثيّ بائس. الخيال ينزف أسى واغتراباً... هناك جرح في الروح دائم النكء.

التسلية إحدى غايات الأدب! الشعارات وعالم التسويق. كلّ يسوّق

نفسه على أنّه المنقذ والمخلّص والفادي. زمن التسلية ولّى، إنّه زمن الإيلام لا الإيهام، زمن المواجهة والتعرية، أوان الإقلاق المتجذر وذرّ الملح على الجرح.

القاهرة مدينة تعادي الأناقة. أهمس لأصدقائي بذلك. نضحك ونأسى في الوقت نفسه. نضطرّ إلى المجاملة والمحاباة في كلّ المواقف. تفضحنا لهجتنا، فيبادر مَن نصادفه إلى سؤالنا عن الأوضاع في البلد، ويدعو لنا بالخلاص، ثمّ يختم كلامه كما بدأه بوصفنا بـ«أحسن ناس».

أكتب لأصدقائي الذين يسألونني عن القاهرة، الكثير من الأمور عن ضجّتها وأزمتها وغبارها الذي يشوّه، وضغطها العجيب، ولا أنسى أن أكرّر لازمتي بأنّها أمّ الدنيا، أتبعها بقهقهة مُفترضة، معلنة أو مكتومة... أخبرهم أنّ القاهرة قاهرة.

استعدت ما خطر لي من رواية «مدن لا مرئية» لإيتالو كالفينو الذي وصف فيها عشرات المدن، وصف طباعها وخصائصها، نقل قارئه بين أطلال العديد من المدن، وخرائط الخيال التي تُضفي على تلك المدن الكثير من المشاعر والرغبات والصور التي ينشدها المتخيّل أو يفتقدها. أتخيّل الإمبراطور قبلاي خان يراقب إمبراطوريّته، يراها تتعاظم وتتوسع، يطلق مبعوثيه وجُباة ضرائبه لاكتشاف المناطق القصيّة، يعودون إليه في حدائق منغوليا ليصغي إلى تقاريرهم المفضلة. يرى انعكاس إمبراطوريّته في صحراء ذات طبيعة متغيّرة وغير مستقرّة مثل حبّات الرمل، ويرى أنّ لكلّ مدينة ومنطقة الأشكال التي تصوّرها رموز ماركو بولو القادم من البندقيّة، والذي يتعلّم لغة التتار بعد مدّة، ليصبح جليس الخان ونديمه الذي يروي فضوله للمعرفة والاكتشاف، عبر سرد حكايات المدن وسيرها. يدور بينهما نقاش دائم حول قيمة السفر وضرورته لاكتشاف الآخر، يسأله خان: هل الأسفار لاستعادة العيش في الماضي؟ السؤال الذي تمكن صياغته بطريقة أخرى: هل الأسفار لإعادة حجب المستقبل؟ يجيب ماركو بأنّ هناك في المكان الآخر مرآة معتمة، المسافر يرى فيها القليل ممّا له، ويكتشف الكثير ممّا ليس له ولن يمتلكه يوماً.

يشتطّ بهما الخيال، يستشهد بولو بقول البعض بأنّ كلّ إنسان يحمل في عقله مدينة مكوّنة فقط من الاختلافات، مدينة من دون أرقام، من دون شكل، تملؤها المدن الخاصة. وأنّ هناك نوعين من المدن، مدن تظلّ عبر السنين تمنح التغيّرات فيها أشكالها للرغبات، وتلك التي إمّا أن تمحو الرغباتِ فيها أو تمحوها الرغباتُ. يحدّثه عن مدن حصينة لا يمكن أن

تُقهَر، وعن مدن خفيّة تكون عبارة عن أشكال وأصوات وحركات، تشعر بوجودها ولا تراها، تستحضر في الأذهان رؤى أرواح راحلة، توحي بحالات ووقائع حصلت في الماضي يستحضرها القارئ ويتخيّلها..

يخبر ماركو الخان بعدم إرباك المدن بكلمات وصفها، لأنّ هناك الكثير من الروابط بين المدن، ويرى الزيف في الأشياء لا في الكلمات. فقد تختصر مدينة ما كلّ المدن، وقد تبدو أخرى شاحبة بلا لون أو شخصيّة، مزروعة بلا هدف. وتتبدّى المدن المتخيّلة في أحلام قبلاي خان كطيّارات ورقيّة، تتمثّل مدبّبة مثل الرماح، أو متنقّلة، مخطّطة، مزخرفة، كأنّها نسيج علاقات عنكبوتيّة شائكة يبحث عن شكل أو تجسّد. يبحث عن التفاصيل والجزئيات إكمال الصورة في ذهنه. ويخشى في الوقت نفسه أن يضيّع المدن التي يتحدّث عنها أو يتخيّلها.

أيّ وصف ينطبق على هذه المدينة التي تخفي عنّا أكثر ممّا تظهر؟! هل نحن بصدد اكتشافها؟ هل بالمتناول التغلغل في تفاصيلها والتعرّف إليها من كثب؟ لماذا تستعصي علينا في حين أنّها تبدو بسيطة واضحة مكشوفة؟ هل تتمرأى لنا في شكل أو صورة أو موقف؟ ملايين البشر فيها، هذا يعني ملايين المدن التي تستبطنها وتنفتح عليها. أنّى لنا التعرّف إلى ملايين المدن التي تشتمل عليها؟ لكلّ امرئ قاهرته، وقد تكون قاهرته قد قهرته شغفاً أو فقراً وتجويعاً. الرابط اللامرئيّ الأهمّ أنّها قاهرته التي يصعب ترويضها.

نعاني من وحدة في قاهرتنا، حيث بات لنا أيضاً نصيب منها وفيها، نفتقد إلى الأنثى معنا، نفتقر إلى القاهرة الأنثى، نشعر بأننا مقهورون للغاية دونها، نشتاق إلى وجود أنثى بجانبنا، تحدّثنا ونحدّثها، تبقى في أحضاننا ليلة تدفّئ سريرنا وتهدّئ جوع جسدنا.

شارع الهرم يعكس التنافر الصارخ الذي تعيشه القاهرة الكبرى، يكون متوازياً مع شارع فيصل على غربه، تفصل بينهما جزيرة بشريّة، يزعم قسم منها أنّه في الهرم، وذلك في معرض مباهاته بمحلّ سكنه، ذلك أنّ الهرم يعدّ أكثر رقيّاً من فيصل ذات الطبيعة الشعبيّة، كما يُشتهر عنه، ويحلو لآخرين تكرار أنّهم على الحدود الفاصلة بين العهر والطهر، وذلك في إشارة إلى الملاهي والكباريهات على شارع الهرم، والالتزام على شارع فيصل. وهذا التوصيف بدوره يعكس، بالإضافة إلى تحديد المكان، أوصاف الشخصيّة، وهذا ما يحرص القائل على التذكير به أكثر من الجانب المكانيّ، أي أنّه لا يمانع بالاستمتاع بحياته، وذلك بالموازاة مع إيفائه

بحقوق الله عليه. يؤذي فروضه، ويلعب في الهامش، ويذكّر بأنّ الله غفور رحيم.

استعدت هوس الناس هنا بفرعنتهم وفراعنتهم. شارع الهرم يعكس ذاك الهوس متمثلاً في حاضر يستحضر أسماء كلّ أولئك الفراعنة الذين تعاقبوا على حكم البلاد. تُطلَق أسماء الفراعنة على الفنادق والمحلّات والشوارع والمقاهي، وحتى على التكاتك.

وبمناسبة استحضار «التكاتك»، ومفردها تُك تُك، وهي وسيلة نقل يمكن التعرّف إليها في القاهرة، وهي تتناسب عكساً مع عظَمة ميترو القاهرة، الذي كنّا نكرّر لأنفسنا أنّه أهمّ إنجاز مصريّ، وأنّه أهمّ من الأهرامات نفسها. والتُك تُك، درّاجة ناريّة ثلاثيّة العجلات، خفيفة، سريعة المراوغة والحركة، تجتاح معظم الأماكن، تتحرّك بانسيابيّة مزعجة، تتمايل بطريقة يتصوّر فيها راكبها أنّه على أعتاب السقوط لحظة بلحظة، وتقوم بأدوار الشحن البسيط في مناطق تحرّكها، تبتعد عن الخوض في المسافات البعيدة، وعلى الرغم من أنّها لا تعدّ منافساً حقيقيّاً من حيث الظاهر للتكاسي العموميّة والسيّارات الأخرى، إلّا أنّها عمليّاً تقوم بمهمّات كثيرة، وتشكّل كابوساً لسائقي التكاسي الذين يجدون فيها تعدّياً على عملهم ورزقهم، لكنّهم يواسون أنفسهم لأنّ قسماً منهم ترقّى من سائق تُك تُك إلى سائق تكسي بعد أن جمع مبلغاً مكّنه من شراء سيّارته، إثر عمله المُضني على التُك تُك.

صدرت عنّا قهقهة ونحن نقرأ لافتة مكتوب عليها نفرتيتي للروائح. استعدنا أبعاد كلمة روائح، وضحكنا ونحن نتخيّل الرائحة النتنة التي تزكم أنوفنا، وحصرنا المفردة بالروائح التي تطلقها المؤخّرة وما يخرج من الفم بعد النوم، فتخيّلنا موكباً من الرائحة الكريهة يجتاحنا ويغرقنا. كان الإيحاء يناقض تماماً سحر كلمة العطور، بل يوحي بتداخل الروائح مع بعضها بطريقة لا تحفظ الجماليّة والخصوصيّة لأيّ منها.

آتون، ليس فرعوناً ولا يحكم أحداً، لا قبر له في أيّ أهرام، ولا ضريح قريباً له من أبي الهول. آتون، ملهى عريق في بدايات شارع الهرم من جهة الأهرامات، وللعراقة هنا معنى مختلف عن المعنى الذي يخطر للمرء حين سماعه الكلمة. آتون يقسّم إلى ثلاثة طوابق. للطابق الأرضي مدخل مختلف عن مدخلي الطابقين الآخرين، وكلّ طابق يختصّ بشؤونه الخاصّة. قد تبدو للوافد أنّ آتون واحد، لكن يتبيّن بعد الدخول والتعرّف إلى التفاصيل، أنّ هناك ثلاثة آتونات. لكلّ آتون سعر، ولكلّ حجرة أجرة

كما يردّد الواقفون على المداخل.

التملّق والرياء والنفاق والممالأة من صفات العديد ممّن نصادفهم، تجدهم يبالغون في تضخيمك، طمعاً في تفريغ جيوبك، ولا نعدم مصادفة مَن يحترم نفسه، ويتعامل على أساس الاحترام المتبادل، ويكتفي بأخذ حقّه، دون أيّ جشع بما يمكن أن ينصب به عليك.

يتداول الكثيرون ممّن زاروا هذه البلاد بعد عودتهم أنّ قسماً من السماسرة يستعين بالنصب والاحتيال، يسعى بكلّ السبل إلى إقناعك والتحايل عليك، مستعيناً بالأدعية والأحاديث وعبارات التفخيم من سعادة وسيادة وحضرة وكابتن وبرنس وغيرها من الألقاب التي تضفي على المتكلّم هالة مزيّفة تنقشع بمجرّد تحصّله منه على مراده... وإن كان هنالك أيّ سجال دائر، تجدهم يحرصون على تكرار كلمة «ما ينفعش»، كلازمة ولاحقة معاً، يستخدمونها ببساطة وبداهة، لكنّها توحي إلى الجانب النفعيّ الذي افترضنا أنّ الذاكرة الجمعيّة راكمته طيلة أزمان.

أكرّر لنفسي وأنا أضحك في سرّي، لو أنّ أولئك الفراعنة كانوا يعلمون بأنّ أسماءهم ستطلق على هذه التنويعات المختلفة لانتحروا، أو لتنحوّا عن الحكم، ولأعدموا أيّ مؤرّخ كان سيحاول أن يدوّن اسمهم.

إرث الفراعنة يُحتفى به بطريقة معاصرة، هي مزيج من التباهي اللفظيّ بالانتماء الإسلاميّ، مع شيء من الممارسات الحياتيّة التي تدعم ذاك التباهي، مع الكثير من المتاجرة التي تعزّزه وتصدّر إلى الواجهة، وذلك بالتزامن مع الافتخار بتوارث الحضارة الفرعونيّة العظيمة، واستلام مفاتيح الأهرامات والتوكيل بحمايتها والمحافظة عليها... وتأتي تلك الحماية بإهمالها كما يتبدّى، وذلك تحت زعم الإبقاء على ألقها ورونقها، لكنّ ذلك يتوافق مع توجّه بعضٍ ممّن يغالون في توحيدهم وإسلامهم، يقنعون أنفسهم تارة بأنّ الفراعنة أوّل الموحّدين المؤمنين بإله واحد، ثمّ يتناقضون مع أنفسهم حين يصفون الأهرامات بأنّها مقابر للتقديس ليس إلّا وينبغي محوها لتتوافق معالم البلد التاريخيّة مع واقعها المعاصر، ويتمّ القضاء بذلك على أيّ إرث يتعارض مع الشريعة.

كما أنّ هناك طريقة أخرى لإفنائها وبعثها على الاندثار، بتغييب أيّ اهتمام جماليّ بها وبما حولها، وإبقائها رهينة تجارة شعبيّة سياحيّة بائسة، حيث يتربّص سائسو الجمال بالسائحين، يبتزّونهم في إركابهم على الجمال، وفي إنزالهم لاحقاً، يتكلّم معظمهم بضع كلمات من عدّة لغات، تكفيهم لإفهام السائح المبلغ المراد من جهة والمجاملة الواجبة والرياء من

جهة أخرى في البداية، ثمّ التوخش والتغوّل بعد إنهاء المهمّة ومجيء وقت سداد المصاريف، حيث تكون العملات العالميّة كلّها دارجة ومقبولة، كأنّ ساحات الأهرامات تتحوّل إلى سوق حرّة مفتوحة لصغار الأدلّاء السياحيّين الذين يستمدّون قوّتهم من أشخاص ذوي نفوذ في السلطة.

أعرب لي عددٌ ممّن زاروا الأهرامات عن خيبة أملهم، وصدمتهم، وندمهم لأنّهم أقدموا على زيارتها، لأنّهم كانوا يتمنّون لو أنّهم احتفظوا لها بتلك الصورة المشرقة في خيالهم وأحلامهم، وأنّ تلك الصور التي التقطوها، والتي قد تحفّز الآخرين على زيارتها، ستكون إدانة لحلمهم الذي تبدّد، ووثيقة لئلّا يفكّروا في العودة إلى تلك الرغبة المبدّدة مرّة أخرى..

أواسي صديقي المصريّ الذي ينزف حرقة وأسى على أحوال تاريخه وبلده، وهو يرى مشاهد الدمار والإهمال المحيطة بالأهرامات، وكيف أنّ محيطها يتحوّل إلى أسواق غاية في البؤس والتدمير، بأنّه لا بدّ من إدراك قيمة هذه الصروح لاحقاً.

أواسيه وأنا أكتم خشيتي من دفعها للمحو والاندثار. أواسيه وأنا أتخيّل الفراعنة يقفون على قمم أهراماتهم يندبون تاريخهم، في الحين الذي كان يفترض أن يراقبوا مجدهم الغابر متقدّماً مستقبل بلادهم. أتخيّل الفراعنة يرون انعكاس إنجازاتهم في صحراء ذات طبيعة متغيّرة وغير مستقرّة مثل حبّات الرمل، تماماً كالإمبراطور قبلاي خان، ويرون أنّ لكلّ حنطور وجمّال وحصان وناقة رمزاً وحكاية ومأساة دون بداية أو نهاية.

ينعدم الحسّ الجماليّ هنا، يحضر توجّه ربحيّ فقط. التاريخ يتهاوى بأبشع تجلّياته، الواقع يتقدّم بأقسى أدواته. الحداثة تجتاح بكلّ توحّشها. أبو الهول يرقد بائساً، يناجي مهندسيه، ويبكي العبيد الذين أريقت دماؤهم في سبيل بنائه.

ربّما هو وهم التاريخ وقسوته، بضرورة إظهار بشاعة الوهم الذي كان يظنّه السائح المتلهّف لدخول الأهرامات حلماً، فأبدى الحلم وهماً وآذى بالواقع براءة الحلم، وعرّى التاريخ من أيّة قدسيّة تُضفَى عليه.

أكرّر لنفسي أيضاً وأيضاً، يبدو أنّ القاهرة مدينة لا تعادي الأناقة فقط، بل كأنّها تعادي مجدها وتاريخها أيضاً... القاهرة تتجسّد لي وحشاً يأكل نفسه، تتمثّل في بركان يغلي لينسف ما حوله، تتجلّى أمّاً جائعة تفترس أبناءها وتلقي بهم في أتونٍ مستعرٍ يصعب الفكاك منه.

اسمي في هاتف سائق التكسي المصريّ بات خوفو السوريّ. طلب منّي أن أدوّن له اسمي هكذا كي يتذكّرني حين أهاتفه. كان يقول لي ذلك، ظنّاً منه أنّه عثر على زبون مدسم سيلجأ إليه في التنقّلات كلّ يوم. وأكّد عليّ أنْ أذكّره باسمي لديه كي لا يتوه، لأنّ ذاكرته قويّة لكنّ مشكلته أنّه لا يجيد القراءة. استرسل في أسباب ذلك، حمّل الأسباب لكلّ شيء وللحكومة والمدرسة والأهل وشيخ قريته ومختارها أيضاً، لكنّه نسي أن يحمّل نفسه أيّة مسؤوليّة. لم أرد أن أدخل معه في مساجلة غير مجدية، ولا سيّما أنّ مشواري معه قصير ولست بوارد التكلّم كثيراً، لأنّ الكلام وسط الضجيج يتطلّب منّي رفع صوتي، وحين أرفع صوتي لدقائق في الكلام، أكتشف أنّ الصداع يتسرّب إلى رأسي ويرهقني.

لا أدري الروابط بين رفع الصوت والصداع، لكنّ التجربة علّمتني أن أتجنّب خوضها مرّة أخرى، وذلك دون أن ألتزمها أيضاً، لأنّني كثيراً ما أجد نفسي لا ألتزم الضوابط التي أضعها لنفسي، وأذكر كلمات ذاك الصديق الذي كان يكرّر دوماً أنّه دأب على وضع البرامج لنفسه منذ الصفّ الأوّل وحتّى تخرّجه في الجامعة لكنّه لم يلتزم أيّ برنامج وضعه أبداً، وكان يستمتع بخرق تلك البرامج دون أن يخطّط لذلك.

رضخت لطلب السائق الظريف بشيء من الدعابة والتبسّط. سجّلت له اسمي، كما طلب، في هاتفه، وتأكّد بنفسه من ذلك حين أجرى تجربة ورنّ على هاتفي، ليتأكّد من أنّ الزبون أصبح مضموناً في جيبه.

لم يألُ السائق أيّ جهد في الثرثرة، تكلّم عن كلّ شيء كنّا نصادفه في الطريق، كان ينتقد سياسات الدولة، يحلّل السياسة الخارجيّة، يتحدّث عمّا يجب أن يتمّ من مشاريع للنهوض بالبلد ولانتشال الناس من مستنقعات الجوع والفقر والتسوّل والحاجة. يلتفت إليّ بين الموضوع والآخر ليتأكّد من إصغائي إليه، وليختبر مدى تأثير مقترحاته عليّ. أؤكّد له بهزّة خفيفة من رأسي، وأنظر إلى الأمام لأنبّهه إلى الطريق. يبتسم وهو يقول لي إنّه قد حفظ كلّ طرقات مصر.

كنت أحسده على إجادته اللهجة المصريّة، وكنت أضحك على نفسي وأنا أضع حسدي الناشئ من غربتي تحت مجهر التعقّل، فأكتشف مقدار سخرية شعوري. أتذكّر حينذاك صديقاً كان يستغرب حين رؤيته للأجانب، يصغي إليهم بكلّ جوارحه، ويبلغ استغرابه أشدّه حين يشاهد أطفالهم يتكلّمون الأجنبيّة، يستمع إليهم بشغف وشوق، ويبتهج غاية الابتهاج

لاستماعه إليهم، ويضرب كفّاً بكفّ معبّراً عن تعجّبه وإعجابه في الوقت نفسه صارخاً: «يا الله هؤلاء الأطفال يتكلّمون الأجنبيّة ونحن نجهلها!». ولم يكن يهتمّ لأيّ تبرير يقدّم له من قبيل أنّها لغتهم الأمّ وأنّنا نحن أيضاً نتكلّم لغتنا، لأنّه لم يكن مستعدّاً لمناقشة ذلك قطّ، ولا يقتنع بأيّ تبرير.

أخرجني السائق من شرودي، وهو يسألني عن رأيي فيما يقوله، قلت له: «معك حقّ».

أسعده ثنائي على طرحه ورأيه، على الرغم من أنّه تشكّك قليلاً أنّي لم أكن منتبهاً له، لكنّه أكمل سلسلة آرائه، وهو يتحدّث عن الثروة التي يمكن جنيها في حال استغلال إمكانيات بلده، ويعود إلى الأمجاد متمنّياً استرجاع تلك العظمة وذلك المجد الغابر، ويعود بلده لحكم العالم وبناء معجزات جديدة.

لم يكن طفاعاً بعكس ما أوحى إليّ شكله وحديثه. نظرت إلى العدّاد الذي كان قد بلغ خمسة عشر جنيهاً ونصف، أخرجت قطعة من الفئة العشرين جنيهاً. أمسكها وأعاد إليّ خمسة جنيهات، استغربت تصرّفه، لأنّني اعتدت من سائقي التكاسي طلب المزيد لا إرجاع المتبقّي. حين قلت له إنّه ليس بحوزتي نصف جنيه، قال لي: «الله يسامحك يا باشا».

لم أشغل نفسي كثيراً بلوم نفسي على مشاعري، أنستني الزحمة على المدخل كلّ شيء. فقط يحضرني الثّك ثُك ببؤسه وانسيابيّته. تحضر رغماً عنّي مقارنة مستحيلة بين الوسيلتين الأكثر استخداماً للنقل في مصر.

وأنا أدخل البوّابة الأولى لحدائق الأهرام، البوّابة التي تسمّى ببوّابة خوفو، تذكّرت السائق وهو يطلب منّي أن أكتب له اسمي خوفو السوريّ. أعجبني الاسم لوهلة، تخيّلت نفسي أحد الفراعنة وأنّ شارعاً أو حيّاً في مدينة يسمّى باسمي. وشطحت في التخيّلات.

أرجعني اللقب الجديد إلى موضوع ظلّ يشكّل لي مبعث ضغط، كلّ ما كنت أتجاوزه خطوة يرجعني إليه الواقع أميالاً.

الهويّة وإشكاليّتها التاريخيّة في ذهنيّة الناس. كيف تتشكّل الهويّات، وما هي مقوّماتها، أين تسير بنا الهويّات؟ تذكّرت كتاب أمين معلوف «الهويّات القاتلة» وتحليله الواقعيّ التاريخيّ المنبنيّ على تجربته الشخصيّة وتاريخه العائليّ، في بلد لا تفتأ هويّاته تتقاتل، أحياناً لمجرّد إبقاء الصراع مستعراً لا غير.

أعادني لقبي الجديد إلى تلك الأسئلة التي كنت أطرحها على نفسي، وكنت أحياناً أتغاضى عن الإجابة عنها، لأنّ أيّة إجابة قد تكون نسبيّة غير

مقنعة، مهما بلغت درجة إقناعها قوّة. كلّ إقناع يحتاج إلى قناع ربّما. هكذا يحلو لي التبرير أيضاً.

الهويّة المضلّلة. المتشظّية. المحتربة. المجنونة. البائسة. الشريدة. النازحة. القتيلة. الهويّة اللاهويّة.

ربّما يكون لقبي الجديد أكثر تعبيراً عنّي، وربّما يكون أبعد ما يكون عنّي. الألقاب تلتصق بنا أكثر من أسمائنا في كثير من الأحيان. لست مع اختيار أيّ لقب، لكن كثير من الألقاب يُطلَق علينا ويكتسب مشروعيّة بالشيوع والانتشار، ليكتشف أحدنا أنّ لقبه عند الآخرين بات كذا أو كذا، فلا نعود بقادرين على التطنيش أو التعامي أو التصامّ عنه. إمّا أنّ نتقبّله راسمين بسمة أو سروراً مخادعاً، أو نستنكره فيلتصق بنا أكثر.

وأنا أسترجع رغبتي في الوقوف على إشكاليّة الهويّة، وتأجيلي الدائم الخوض فيها، أقنع نفسي بوجوب جمع أكبر قدر ممكن من المراجع، وقراءة أكبر قدر ممكن من الأبحاث، واكتشاف ما يمكنني اكتشافه من رؤى وتحليلات ونظريات، لأفي الموضوع حقّه، ولا سيّما أنّه يتصدّر اهتمام الكثير من المعاصرين والسابقين، ويحظى باهتمام الناس، النخبة والعامّة على السواء، وكلّ واحد ينطلق من زاويته ليعالج الإشكاليّة ويقاربها.

في بلدك يُنظَر إليك على أنّك من بلد آخر، وافدٌ منذ أقلّ من نصف قرن، وهناك حيث كنت يُنظَر إليك على أنّك منسلخ من جذورك، باعتبارك ولدت وترعرعت في بلد آخر، تشرّبت ثقافته وعاداته، وغدوت واحداً منه، وفي نفسك تعيش التناقضين والانتماءَين معاً.

المصطلحات الجغرافيّة والتقسيمات الإداريّة تقيّد الهويّة وتسمّيها وتطلقها أم أنّها لا تعدو مجرّد سياقات لتقنينها وتقييدها وبثّ نيران التجدّد والاختلاف فيها؟

سألت نفسي ذلك وأنا أستعيد ما كان يمكن أن أكون عليه، أو تكون عليه هويّتي المفترضة في ظلّ ظروف وشروط تاريخيّة مختلفة. أسهبت في الافتراض، لو كان لي وطن على الخارطة هل كنت سأبقى مجرّداً من الهويّة؟!

معي بطاقة تعريف بي، هذه ليست هويّة، الهويّة تعيش في داخلنا، ترتحل معنا، تتعاظم في أذهاننا وقلوبنا، نلجأ إليها إذا تهدّدنا خطر الإلغاء لنثبت تجذّرنا.

لماذا نصرّ على التمسّك بالجذور، لماذا نلجأ إلى الأعماق لنحارب الآفاق، لماذا نهرب من مواجهتنا للمخاطر والتهديدات بالتمترس خلف

الأوهام، هل الهويّة وهم نعظّمه أم أنّنا دونها ظلال وأشباح؟!

أسئلة لا تني تحضرني. أثارها من جديد ذاك السائق ببساطة وعفوية حين سمّاني بخوفو السوريّ. لكن هل أنا حقّاً سوريّ بكلّ ما تعنيه هذه الصفة من معنى؟! في سوريا كنت مثهمّاً دوماً بأنّني كرديّ، ويُنظَر إليّ على هذا الأساس، وللمفارقة المريرة، وكان هذا الاتّهام من قبل أطراف في السلطة وأخرى في الواقع والتحزّبات العشائريّة.

خوفو السوريّ أثار تاريخاً من الأسى في نفسي.

في مصر يكرّرون لازمة لفظيّة حين يثهمون الآخر بالرغبة في الاستغفال بأنّه يستكردهم. ويأتي الاستكراد في معرض الاتّهام بالسعي للتحايل عليهم أو استغبائهم. وهو يختلف عن الاستشراق أو الاستعراب أو غيره من هذه الصيغ التي تشير إلى التقرّب من الآخر والتودّد إليه أو الانخراط في شؤونه وشجونه، لغاية من الغايات..

اكتشفتُ أنّ غالبيتهم يستعملون المصطلح دون التفكير في بعده العنصريّ الذي يقلّل من شأن الكرد. وحين تستوضح منهم، قد تراهم يغالطون أنفسهم في الإشارة إلى الكرديّ من حيث التوصيف بالسذاجة والعباطة، لكنّهم في الوقت نفسه يكتشفون لغماً تاريخيّاً متخلّلاً لهجتهم، ولا يتناسون الإشادة بالدور التاريخيّ للكرد في التاريخ الإسلاميّ، ويصرخون بعظمة صلاح الدين في تحريره القدس.

تكون تلك مرافعة غير مقنعة، ولا تبدّد الإجحاف اللغويّ المتفشّي.

قبل أن تُرسَم الخرائط الحاليّة للمنطقة، كانت خارطة المنطقة مختلفة، جاء سايكس وبيكو قسّما المنطقة بحسب مصالح بلديهما. اقتضت المصالح الدوليّة أن تُمحى خارطة الحلم بين حدود عدّة دول، رُسمَت وتمّ التقييد بها. وتحوّلت إلى نقطة مقدّسة. من جهة يتشدّق المقيّدون بتلك الخطوط بشتم راسمي الحدود، ومن جهة أخرى يقسمون بدمائهم بالحفاظ على تلك الخطوط. يصفونها تارة بالوهميّة وأنّها من صنع الاستعمار، وتارة يصفونها بالمقدّسة التي لا يجب التفكير في إزالتها.

بعد رسم الخرائط افتقدنا لخارطتنا، قيّدنا أحلامنا وكوابيسنا بها، باتت تؤرقنا وتقيّدنا حين نقدم على أيّ عمل في سبيلها، بات الكرديّ يحمل خريطته في قلبه وذهنه، يلهج بها في حلّه وترحاله، ويقدّمها على أساس تجذير انتمائه في أرضه وتاريخه وحضارته، لكنّ الآخر ينظر إليه بعين التشكيك والتآمر، يتّهمه بالسعي إلى الانفصال وغيرها من الاتّهامات التي كانت تبقي الكرديّ سجين حلمه الذي قد يدفع به إلى السجون المديدة.

يُنظر إليك حين تصرّح بكرديّتك على أنّك مشروع انفصاليّ عليك دوماً إثبات العكس، بحيث تغالي في تمجيدك، وذاك بدوره سيوصَف بأنّه مبالغة لإخفاء النيّة المبيّتة. تكون نهب حيرة الآخر وفي مرمى تشكيكه المتناسل...

في البلدة الصغيرة كنّا نقيّد بهويّاتنا القرويّة، في البلدات والمدن المجاورة كنّا نقيّد إلى هويّة بلدتنا، وفي المدن الكبرى نقيّد بهوية محافظتنا، وحين التفصيل نقيّد بالهويّة المُتهَمة البريئة. وحين يهاجر أحدنا ويكتسب جنسيّة ما، تظلّ جنسيّته منقوصة بسبب هويّته السابقة التي هي بالأصل موضع تشكيك بدورها. يجد المرء نفسه في بحر هويّات متلاحقة في دوائر متاهيّة، ترسم الهويّة متاهاتها ودوائرها، من هويّة قرويّة إلى مدينيّة إلى مناطقيّة إلى قازيّة إلى دينيّة... وكذا تنفتح الدوائر على بعضها بنوع من التداخل، بحيث تكون الخطوط لامرئيّة، لكن بغاية التأثير.

الهويّة مكان، لغة، عرق، لون، شكل، حلم، رغبة، ماضٍ، رهان، مستقبل؟!

هل الهويّة عدوّ الاندماج؟ هل هي زئبقيّة إلى الحدّ الهلاميّ؟ هل هي لغم الزمن المتفجّر باطّراد؟ هل هي العقدة التاريخيّة المتجدّدة ذات المفاعيل السحريّة في التقسيم والتشتيت؟

تهاجر معنا الهويّات وتتغيّر بتغيّر المكان والزمان، لكنّها تبقى قيوداً واسمة في كلّ الأمكنة والأزمنة. هي أيضاً إشكاليّة مركّبة تُضاف إلى إشكاليّات كثيرة. قد تكون قيداً أو هوّة أو بركاناً... الهويّة باتت حقل ألغام موقوت في عالم متغيّر... اكتشفت أنّ الهويّات تجتاح البشر وتبقيهم مشتّتين حائرين، وأنّ لا أحد بمنجىً عن فيض الهويّة أو اغترابها.

المؤامرة تتحكّم بمصائرنا. التفكير المزمن بهذه النظرية يدفعنا إلى مهاوي الاستعداء لكلّ شيء. لم نملك خيار تربيتنا بهذه الطريقة وعلى هذا النهج، لكنّ بعضنا حاول كسر هذا الطوق، والبحث عن إجابات لأسئلته واتّهامات الآخرين.

لاحظت أنّ النقاشات المتمحورة حول الهويّة تروم التقييد أكثر من محو الحدود، تبحث عمّا يدعم نظرية التقوقع، حتّى في زعمها أنّها تنشد تجاوز الحواجز الملغّمة.

حلا لي أن أريح نفسي بتصوّري للهويّة، وهي أنّها ما نحياه وما نريده. ما نشتهي أن نكونه. لكنّ ذلك لم يمنع الاتّهامات من أن تتضاعف وتتكاثر، من قائل إنّ الهويّة لا تُكتَسَب إلى متّهم بالانسلاخ عن الهويّة، إلى مشكّك

بالتأويل. ليكون التصوّر باعثاً على الإرباك والإزعاج أكثر من الإراحة.

لكلّ جزء هويّة، فللشكل هوية، وللرغبة هويّة، وللحلم هويّة. أي أنّنا نتاج هويّات متعدّدة، ويستحيل حصر المرء في هويّة بعينها. فأنت مسلم، يعني أنّك مندرج في خانة هويّة دينيّة، وأنت كرديّ أو عربيّ فهذا مندرج في خانة الهويّة القوميّة، وأنت سوري أو تركيّ فهذا يندرج في خانة الهويّة الوطنيّة... لتكون أمام سلسلة لا منتهية من الهويّات.

الهوس المرعب بنقاء الهويّة وهمُ العاشق بنقاء الحبيبة...

وقائع بسيطة تثير فينا شجوناً متراكمة. أدرك أنّ الأصول لا وجود لها إلّا في الأذهان، لكنّي أدرك أيضاً أن الأذهان هي التي تسيّر الواقع وترسم خرائطه، لذلك أكون في بحر الهويّة القتيلة مجذّفاً ومجازفاً ومهرطقاً.

سأبقى في مصر، وفي هاتف سائق التكسي، خوفو السوريّ. وكنت أنا بدوري كتبت اسمه عندي خوفو السائق. أراحني هذا التوصيف الجديد، اكتسبت به هويّة جديدة تثري هوياتي السابقة واللاحقة. شكرت خوفو لأنّه منحني اسمه بعد قرون من رحيله. أعود إلى البحث عنه، لأكتشف عظمته...

مازحت صديقي، أطلقت عليه لقب أبو الهول السوريّ، ولم أغفل عن الغمز من خانة أنوثة أبو الهول. رسمت بعض الجدّيّة وأنا أدافع عن العصر الأمومي، وسلطة الأنثى وقوّتها، مبرّراً أنّها بلغت شأناً كبيراً من العظمة حتّى خلّدت ذكرها واسمها في هرم عظيم. لكن لم أشأ الخوض في تلك السلطة التي تختار للأنثى اسماً مذكّراً، وهل كان ذلك سيقلّل من شأنها ومكانتها، أم أنّ الذكورة في الوعي تتبدّى أكثر تأثيراً؟!

دأبت على تكرار أنّي في حاجة إلى أمّ هولٍ لتشاركني فَزعنتي وتبدّد غربتي ووحشتي، وتدفئ فراشي البارد بعراقة جسدها وحضارته.

في لحظة صمت، تصفّحت الجريدة.

مطلوب خادمة مع المبيت ويفضّل من الجنسيّة السوريّة على أن تستطيع العمل بشكل جيّد.

ما إن قرأت هذا الإعلان في الجريدة حتّى انحدرت دموعي. تفجّرت الهويّة في داخلي وتبلبلت. تعجّب السائق بجانبي لدموعي المنهمرة، انتبه إليّ حين سحبت محرمة من العلبة التي أمامه. رأى وجهي مغسولاً بالدمع فجأة. أراحني من عناء الإجابة بعدم سؤاله.

بعضهم يطلبها خادمة، آخر يكيد ليتزوّجها بذريعة حمايتها وسترها. كلّ واحد يحمّل الآخرين مسؤوليّة الانهيار الذي أوصلونا إليه. المقرف أنّ

هناك مَن يساوي بين الفعل ورد الفعل، ويدعو إلى محاسبة ردّ الفعل قبل محاسبة الفاعل المبادر الحقيقيّ.

أنا خوفو السوريّ.

أنا السوريّ مادّة للإعلان والإعلام والتسوّل والشفقة. هذا ما أوصلتنا إليه الشعارات الزائفة التي ظلّ يتاجر بها طيلة نصف قرن من تهديم الوطن. الشعار الوحيد الذي التزام به هو إحراق البلد، وتفتيت وتشريد أبنائه. السقوط الحقيقيّ بدأ حين قصف الشعب، والسقوط التالي الحتميّ تحصيل حاصل، ضريبته الدماء وأكلافه غالية بحجم وطن.

تفشّت المجموعات المخصّصة لتقديم المعونة للاجئين الجدد في هذه الدولة أو تلك... وكل بلد يزعم أنّه هو الذي احتضنهم وقام بواجب الأخوّة والضيافة والإنسانيّة تجاههم.

خوفو السوريّ...

«اللي عايش بالشام ما في مدينة بالدنيا بتعبّي عينو...».

بحرقة يكرّرها.

مثقّف الريش

«يعيش المثقف على مقهى ريش... يعيش يعيش يعيش. محفلط مزفلط كثير الكلام... عديم الممارسه عدو الزحام... بكم كلمه حلوه وكم اصطلاح يفبرك حلول المشاكل قوام...».

يا شيخ إمام ويا أحمد فؤاد نجم، رحمكما الله. كم تعبران في هذه الطقطوقة عن حال المثقّفين المنتوفي الريش!

تلازمني هذه الأغنية بعد أيّام من كلّ زيارة اضطراريّة لي إلى المقهى الذي يقع خلف الريش، إذ أنّ الريش يعدّ للنخبة من جهة ما في حين أنّ الآخر يوصَف بأنّه شعبيّ. وهذه الصفة تشير إلى أنّ أسعاره مناسبة لروّاده وأجواءه حميمة ومألوفة، أي يكون زائره متبسّطاً لن يتغيّر عليه الجوّ الذي تكون عليها القاهرة كلّها من تراكم أوساخ وقطعان ذباب، وأعداد من المتسوّلين الذي يتنقّلون بين الطاولات بخفّة ورشاقة يمارسون طقسهم المعتاد.

مظهرهم البائس وهم متحلّقون حول الطاولة الواطئة ينفخون الأراجيل ويلفّون حول أعناقهم علم الثورة يبعث على الاستياء، حين تبادر إليّ أن أعقد مقارنة بينهم وبين أولئك المتسوّلين من أطفال ونساء، وجدتهم فظيعين في تجارة الدم والتغنّي الشكليّ بالبلد. هؤلاء يتسوّلون باسم الثورة وأولئك تحت ضغط الحاجة والفقر. كلّ واحد منهم يتدبّر أموره بطريقة معيّنة، تشكّل المساعدات والمعونات الجزء الأهمّ في الإعالة والإغاثة. مسألة الانشقاق وفّرت للكثيرين ملاذات آمنة ممّا كانوا يعانونه من كونهم مغمورين في مجالاتهم أو تجنّبهم الإبراز ولم ينالوا حظّهم وحقّهم الكافيين.

حين أتأمّلهم أندب الثورة وأكرّر: إن كان هؤلاء ثوّاراً فإنّ الثورة لقيط وبنت زنى. ثمّ أعود لنفسي ولا أعدم الأمل في الوجوه التي تداهم الذاكرة ولا البطولات التي شهدتها لأناس بسطاء يعلون بنيان الثورة، ويبقونها منتسبة إلى مستقبل يليق بها ووطن يسير في طريقه إلى الاندثار. لا أذكر مَن قال إنّ البطل الحقيقيّ غالباً ما يكون بطلاً بالصدفة، فهو يحلمُ بأن يكون جباناً شريفاً مثل الآخرين... إلّا أنّني أدرك أنّ وصف البطولة لا ينطبق على أيّ ممّن أراهم هناك.

وبمرارة وحرقة أستعيد كلمات الأغنية وأدندن بها وأنا أواري دموعي، أو أتذرّع بالغبار باعثاً على الدمع في العيون.

امرأة تضع على كلّ طاولة حفنة من الفستق غير المقشور وتكمل جولتها، لتعود من حيث بدأت وتلملم ما يتصدّق به الناس من تقدير ماديّ ومعنويّ لتلك الحفنة التي جادت بها عليهم، وهنا تضعهم أمام امتحان الكرم، وتتخلّص من عبء التسوّل المعتاد، يكون تسوّلها مشحوناً بفكرة ابتكرتها ووجدت فيها راحة وأماناً، وشكّلت لها دربنة وحماية في الوقت نفسه، بحيث تظهر أنّها بائعة متجوّلة، لكنّ طريقتها في البيع مختلفة. وعلى كلّ تشكّل تلك الحفنة من الفستق تغييراً لذيذاً، وبخاصّة حين تكون الجلسة قد طالت قليلاً، ويحتاج معها الجالس إلى ما يغيّر به طعمة فمه.

الذين يوصفون بالمثقّفين يختارون ذاك المقهى، يشكّل ملتقى مناسباً لهم، يتلاءم مع فقر أحوالهم بشكل عامّ، ويخفّف عنهم حدّة العزلة أو الغربة في عالم لا يأبه بالثقافة ولا المثقّفين، وينظر إليهم كإكسسوار مكمّل للوحة الاقتصاد والتجارة والسياسة، بحيث أنّ أيّ مثقّف يكون مقترَح سُلّم أو افتراض درج في سلّم لأحدهم في هذا المجال أو ذاك.

هناك مقهى «جروبي» العريق، وفيه تستذكر أولئك العظام الذين مرّوا عليه أو استوطنوه، ظلّ أثراً متجدّداً دائم التذكير بضيوفه وزوّاره ومقيميه. ولا يخفى أنّ لكلّ مقهى شلّته، وهذه شلليّة عبرة للقارات والمدن، متفشّية في الأمكنة، وربّما لها ما يبرّرها، وفي صدارة ذلك الراحة والاطمئنان وتبادل المنافع الماديّة والمعنويّة.

قد يشعر الفنّان أو الكاتب أو الشاعر أو المتماهي مع أحدهم أنّه يجالس نجيب محفوظ في المقهى المصريّ، ولا سيّما أنّ محفوظاً كان دائم ارتياد المقهى، وبالتالي يشعر بنوع من المعاصرة له والمحاكاة تنتقل إلى الرغبة في التحصّل على ما ناله من أمجاد، توّجها بجائزة نوبل، التي يتفعّل الحديث فيها وعنها دوماً، ويتمّ التنشط في تحليل الأسباب والدوافع والغايات التي تؤدّي إلى منحها لهذا الكاتب أو ذاك، ولأنّ محفوظاً هو أوّل كاتب عربيّ ينالها، والأوحد حتّى الآن، فإنّه يظلّ بمرمى السهام التي تشكّك في كلّ شيء، وفي الوقت نفسه تحتفظ له بمكانته الأدبيّة الرفيعة، وتأصيله للفنّ الروائيّ الذي ساهم بتأسيسه وكان أهمّ روّاده.

عادة الاختلاف على كلّ شيء امتياز الشرقيّ الذي يعكّر عليه صفو أيّامه ويخلخل أيّ تفاهم قد يكون في طريقه إلى التبلور.

يفقد المثقّف خصوصيّته وفرادته، يظلّ الأرخص في عالم الاستهلاك لأنّ بضاعته غير رائجة، وغير مدرّة للأرباح المباشرة، بحيث أنّه يبقى غريباً في كلّ مكان يرتاده، وتكون غربته متعاظمة في داخله.

شكّل مقهى المثقّفين ببؤسه وأوساخه ملتقى لقسم كبير من السوريّين النازحين، يقارب في جوّه إلى حدّ ما أجواء الساروجة في دمشق، ويقترب من مقهى الكمال قليلاً، لكنّه يختلف من حيث الخدمة والنوعيّة، ولأنّ السوريّ يشعر بأنّه مقيم بشكل مؤقّت، فلا ضير أن يماشي تلك الحالة المزرية، ويمكث ساعات ويمضي إلى حيث يقيم، وأيضاً يلازمه شعور الإقامة المؤقّتة دوماً.

من المقهى إلى التفرّق بين جنبات هذه المدينة التي تشكّل قارّة بنفسها. إلى ميدان التحرير للتمتّع بمنظر الخيام والشعارات وبعض التجمّعات الصغيرة التي لا تفتأ تنفضّ. الميترو بحقّ أعظم إنجاز في القاهرة. هكذا أقول كلّما كنت بصدد استقلاله. ولكن ما يحمله في جوفه وهو يرعب بضجيجه، يثير الإعجاب. تتفشّى في الميترو، كما في سيّارات النقل العامّة، ظاهرة قراءة القرآن أو الأدعية، سواء بتمتمة واضحة مسموعة أو حركات متأرجحة بإيقاع ثابت، ولا تسل عن التدبّر الواجب لقراءة القرآن!

6 أكتوبر مدينة ذات رمزيّة معيّنة، تعتبر حديثة وسط صحراء مترامية، بنيت على الطراز الحديث، تتمتّع بالهدوء والترتيب، احتضنت ألوف الأسر السوريّة النازحة، حتّى أنّها باتت تُعرَف بأنّها عاصمة للسوريّين في القاهرة، أسّس فيها النازحون المدارس والبيوت والمطاعم. دخل كثير منهم صلب الحياة العمليّة، وذلك بعد فترة من الانتظار والمتابعة، بحيث أنّهم كانوا مسكونين بالإقامة المؤقّتة وأنّهم سيعودون بين اليوم والآخر بمجرّد إيجاد حلّ ما للبلد، لكنّهم وجدوا أنّ إقامتهم تطول، والمؤقّت يمتدّ ويتحوّل إلى شبه دائم، بحيث يفرض عليهم البحث عن منافذ لتمويل أنفسهم، ولا سيّما أنّ مدّخراتهم بدأت بالنفاد، أو أنّ ما يتمّ التصدّق به عليهم من قبل الجمعيّات لا يكفي، بالتالي لا بدّ من إيجاد أو تأسيس وسائل للإعالة والعمل للتخلّص من جريمة البطالة وتبديد الوقت الذي يقضونه في التحسّر على ما فقدوه في البلد من أرواح وأموال وممتلكات.

على الرغم من أنّه يصعب على أيّ أحد أن يزاحم المصريّين في بلدهم، ذلك أنّ يعانون من وجود فائض في كلّ شيء، وبخاصّة في الطاقات البشريّة غير المستثمرة، فإنّ السوريّ يجاهد كي يبني المناطق التي يسكنها، ويثبت خصوصيّته.

المطبخ السوريّ المنوّع يغيّر في الجوار الذي يقطنه. بدأت سلاسل الأعمال والمتاجر السوريّة بالبروز، في كلّ حيّ أكثر من مطعم للوجبات

والأكلات السوريّة، يقبل عليها السوريّون الذين لم ترق لهم نكهة الأكل المصريّ كثيراً، فبدؤوا بتأسيس بلدهم في منفى مؤقّت يرونه يستطيل...

هناك الكثير من التقاطعات بين الشعبين، لكن هناك الكثير من الفروقات أيضاً، بقدر ما تجمع تفزق، الودّ البلديّ جليّ في احتفاء المصريّ بشقيقه السوريّ، يتعاطف معه، يدعو له، لكنّه في الوقت نفسه منشغل بنفسه وانهياره. ولا يخلو في بعض الأحيان أن يبرز بعض ممّن يستغلّ الحاجة ويبتزّ النازحين. وقد جيّرت الصحافة مسألة تزويج بعض الفتيات لبعض المصريّين وبالغت في تضخيمها وتجييرها لمكتسبات سياسيّة لا تتعلّق بالسوريّ الذي كان الطعمَ فيها. كما أنّ هناك الكثير من الحالات التي استغلّ فيها أصحاب العقارات جهل النازح، وأجّروه البيت بضعف ما يستحقّ، وكأنّهم يحقّقون نصراً عليه.

يتذمّر النازح في أيّ مدينة ينتقل إليها، يبحث عن بيته وسط فوضى المدن ودمار عالمه. ينبغي على السوريّ العودة إلى الأدبيّات الفلسطينيّة، لأنّه سيكون نازح القرن الجديد. التفاصيل تستعاد بطريقة مختلفة، المشترك فيها فقدان البيت والأهل والوطن.

وصلت إلى الإسكندرية مساء. كان المتظاهرون المعارضون للدستور يغلقون الطرقات. اضطررنا إلى الالتفاف حول المدينة والدخول من شوارع فرعية بائسة ومعتمة. كان المطر قد أضاف إليها بؤساً وخطورة. وبعيداً عن مشقات الطريق وإزعاجات السيارات والأزمة الخانقة والزحمة القاهرة، اختصرت الوقت إليها، حاولت التحليق للوصول للفندق، متلهفاً لدفء السرير، مسنلذاً بتخيل نفسي منهكاً على سرير ممتع في غرفة دافئة بعد حمام ساخن...

كانت وجوه الناس متعبة، والأوساخ في الشوارع متراكمة، والاحتقان متصاعداً. العبارات المتناقضة تملأ الجدران والشوارع. مدينة تتأرجح بين نعم ولا، بين أمس مشرق وحاضر مرتهن وغد ضبابي غائم...

هل كنت أبتكر الحيل لأداري غربتي ووحشتي؟

لم ألتفت إلى الأسئلة التي اجتاحتني، ولا إلى الأجوبة التي تزاحمت، ولا إلى التخمينات التي حاولت أن تسرب الفتور إلى اللحظة. أبدي بنفسي أحياناً امتعاضي من تسييسي المبطن للكثير من الأمور، أعتقد أن الكلام يفسد جلالة الموقف، ويفقده سحره وألقه.

لم أكن أصدق متى سأصل إلى الفندق. بسرعة اندسست في السرير، لحظات وهدأ الجو، صخب البحر كان يتناهى من بعيد. الجوع يعوي من دون كلل، أسررت لنفسي بأهمية المرأة في الحياة. خرجت من الفراش، أزحت الستائر، فوجئت بالمنظر الخيالي في جماله، والانقلاب المفاجئ في داخلي. سألت نفسي أكان ما أعيشه واقعاً أم أني أقرؤه في رواية أو أشاهده في فيلم سينمائي؟ خطر لي أن الأشياء الجميلة الساحرة نشاهدها في السينما أو نقرؤها في الروايات، وأنها تظل بعيدة عنا نحلم بها من دون أن نحياها.

شط إسكندرية يا شط الهوى... جينا إسكندرية ورمانا الهوى...

حاولت جاهداً النوم، لكن النوم جافاني، أعدت فتح باب الغرفة المطل على البحر، لفحتني نسمة باردة. عدت للداخل، لبست جاكيتي الجلدي، وشغلت غلاية الماء لأعد لنفسي القهوة، ثم خرجت للجلوس على كرسي خشبي عتيق على الشرفة.

تناهبتني التواريخ وسافر بي سحر المكان. الإسكندرية التي تغنى بها الكثير من الشعراء والفنانون، وكتب عنها الكثير من المؤرخين والروائيين،

تكون مسرحاً للتناقضات، تشهد على زيارتي وخيبتي أيضاً.

فندق فلسطين ذو النجوم الخمسة، يطلّ على البحر، مشهد الزوارق غافية، والنوارس محلّقة، والزبد معانقاً الشاطئ، أثار بي حنيناً غامضاً ودمعاً صامتاً انحدر على وجنتي. لمت نفسي على تفاهتي، لأنّني عادة ما أعكّر صفو اللحظات الساحرة بغباء التذكّر المرير.

في المتنزّه الذي يفرض رسم الدخول على الزائرين، يشمخ فندق فلسطين. المتنزّه الذي كان حدائق الملك فاروق، يحتلّ منطقة استراتيجيّة في الإسكندريّة، يجمع بين الجبل والسهل والبحر، تختصر المباهج والملذّات. يكون متنفّساً للعشّاق الهاربين من صخب المدينة وسجالات المحتجّين، يطلّون على البحر وهم يرتشفون أشواقهم ويكتفون بما تجود عليهم اللمسات والقبل، لأنّهم يختبئون في ظلّ صخرة أو شجرة، أو يحتجبون في كرسيّ سيّارة يركنونها بعيداً عن الأعين. كلّ مَن هناك يراعي غيره، لأنّ تشابه الحال يجمعهم، والتغاضي مريح للجميع.

أفرحني منظر العشّاق بين جنبات المتنزّه، يحتمون بالعتمة الخفيفة، يختلسون القبلات والمتع المبتورة، ويسترقون النظر على الآخرين بين الحركة والأخرى. بدا أنّ جوّاً من التواطؤ يسود بين روّاد المتنزّه.

ابتسمت وأنا ألفظ اسم فلسطين. قلت لنفسي إنّ العرب مهووسون بتحويل هزائمهم إلى انتصارات. بعد أن فقدوا فلسطين على الخارطة، يحاولون بعثها على شكل مخيّمات أو فنادق في عدد من الدول، يخلقون عدّة «فلسطينات» متوهّمة، في حين أنّ فلسطين الحلم قد ضاعت من يدهم. أو كأنّهم يريدون تحويل الاسم إلى ماركة مسجّلة لجميع الحالات، والفندق ذو النجوم الخمسة حريّ باسم لافت جامع. تذكّرت فرع المخابرات الأقذر في سوريا، والذي كان معروفاً بفرع فلسطين.

كان جو الصباح ساحراً، جلست أكثر من ساعة أترقّب هياج البحر المصطخب واقتفاء الزبد الذي يخلّفه على الرمال بعد اصطدامه بها وانحساره عنها، في مدّه وجزره رأيته يقلّدنا، أو كانت ذكرياتي تقلّده، لا فرق. أخرجني برد الصباح من توتّري وخيبتي المسائيّة، عدّلت القهوة المرّة مزاجي، سرّبت التحلية إلى يومي.

أردت التعرّف إلى المدينة واستكشافها سيراً على الأقدام. لم يخلُ تطلّعي إلى الاستكشاف من السذاجة والتبسيط، لأنّ مدينة كالإسكندريّة، تمتدّ على رقعة واسعة يستحيل استكشافها بتلك السهولة المتخيّلة. لكن على الرغم من ذلك أصررت بيني وبين نفسي على المشي قدر الإمكان.

دخلت الشوارع المقابلة للمتنزّه، غصت فيها أخزّن المشاهدات والصور، أقرأ اللافتات. كانت الشمس تبثّ في الأرض المبلّلة بمطر الأمس حرارة تبعث البخار في الأشجار والحيطان والأرض. دخلت مقهى للتبوّل، كان خالياً إلّا من عاملين فقط يوزّعان الكراسي على الطاولات.

لم أسأل عن أيّة نقطة، لأنّي أهيم في المدينة من دون وجهة محدّدة. خطر لي أن أستأجر سيّارة وأذهب لزيارة مكتبتها الشهيرة، لكنّني تراجعت عن الفكرة فوراً، لأنّني أردت أن أقضي هذا اليوم بعيداً عن هوسي الدائم بالكتب والمكتبات، كما لم أرد أن أضيّع على نفسي مشاهدة المدينة التي طالما حلمت بها من خلال الكتابات التي تصوّرها عظيمة مدهشة خلّابة.

استغربت الأزمة المروريّة الخانقة التي بدت في ازدياد. أخبرني النادل ضاحكاً بأنّه لا توجد في الإسكندريّة كلّها إلّا بضع إشارات مرور فقط. وقع الخبر عليّ بغرابة مؤلمة، لم أشأ أن أقارنها بطوكيو التي قيل بأنّها تمكّنت من إلغاء إشارات المرور، لأنّها شقّت الطرقات وبنت الجسور في مسعاها للقضاء على مشكلة المرور.

اخترت مقهى مطلّاً على الشاطئ لأحتسي فيه فنجان قهوة وأرتاح قليلاً من المشي. الجميل في الإسكندريّة أنّه يسهل عليك الوصول إلى الشاطئ. وعلى الرغم من الإهمال الذي لا يقلّ عن غيرها من المناطق في مصر، إلّا أنّها تشهر عظمتها في وجه التاريخ والحاضر.

كان اسم الإسكندرية في ذهني مرتبطاً بالفنّ والتاريخ والجمال.

أعتبر أنّ الفنّ هو المقدّس الأوحد، ولا مقدّسات تكبّله، الفنّ هو الإنسان الذي يبدعه. هو خلاصة الإنسانيّة. هكذا أحلم أن يكون، وحين أرى أنّ هناك مَن يضع قدسيّة شخصيّة تاريخيّة على مِحكّ التشكيك والمناقشة، أندفع إلى البحث عن قدرة الفنّ على إثارة النقاش في أيّ شيء أو فكر وتناوله والنبش في خلفيّات أيّ محتجب.

لكلّ عصر روحه، خيره وشرّه، لكن لا أدري لمَ حين أبحث عن روح عصرنا أراه جثّة بين ركام البشر المتهافتين على التباهي. ماذا عساه يكون روح عصرنا؟ الدماء؟ الثأر؟ اللجوء؟ التشرّد؟ الضياع؟ المحارق؟ أم أنّنا نعيش في عصر دون روح؟ مَن هو المجهول الذي سينقذنا ويتحف الأجيال القادمة بمآسينا؟

لكلّ عصر روحه... ولكلّ عصر ناره المقدّسة. لكلّ امرئ أيضاً عصره وناره المقدّسة.

تذكّرت وأنا على الشاطئ حديثاً دار بيني وبين صديقة متعصّبة لما

تسفيه انتماءها الفينيقي. تقول لي: أوغاريتيّة أنا، أتباهى بفينيقيّتي، كلّ عراقة التاريخ أحملها في قلبي وروحي وممارساتي، هنا البحر أنفتح عليه، أبني أسطورته ويبحر بي إلى المستقبل. وزطونا بالقوميّة البائسة، وتاجروا بها، ما نحن إلّا سلالة الفينيق على هذه الأرض التي تظلّ برسوخها تعزي زيفهم ونفاقهم للحفاظ على تجارتهم وامتيازاتهم.

لم أطلب منها أيّ تبرير أو توضيح، هي تختار المضيّ في الحديث وإدانة الجميع. كانت تحاول أن تنقل إليّ قناعتها بانهيار المشاريع القوميّة وحتّى الوطنيّة التي تمّ إجهاضها، وتنادي بوجوب العودة إلى التاريخ لنستخرج درره ونزيح النقاب عن عظمته.

الاندساس، هذه التركيبة التي كانت موجودة في الذهنيّات باتت ناراً تكوي، ورصاصة تقتل، ونكتة تُروى. عجباً لشظايا الكلمات كيف يمكنها أن تخوض حروباً ضارية في الأذهان وتفتك بالبشر!

قالت لي: أصارحك بأنّني متعصّبة لفينيقيّتي وأدرك أنّك تحمل عصبيّتك في قلبك وروحك، وعلى الرغم من مداراتك وتوريتك وتجميلك للحالة، فهي واضحة لديّ وأدركها لديك تماماً، ولا سيّما حين أتحركش بك وأشكّك بتاريخك وعراقة شعبك وحلمك...

سايرتها في رأيها، وأخبرتها أنّها تستبدّ برأيها وتنظيراتها، فأجابت بأنّ العاجز مَن لا يستبدّ! تدعم واقعيّتها بأشعار وأمثال من التاريخ الوافد، تحاول تنقيته وانتقاء ما يلائمها منه، لتضفيه على عراقتها وتراكمه في درب إحيائها لمكمن هواها التاريخي.

كانت ترى في صورة تاريخها المنكوب، ووجهاً آخر للنكسات التي راكمتها الأنظمة المستبدّة. تفصح لي أنّ الثورات تكشف العورات، وأنّ هذه الثورة كشفت عورات الجميع. تقول: أرجعتنا مئات السنين إلى الوراء، هم عادوا إلى مرحلة زمنيّة بعينها، اختاروا السكنى في تلك الحقبة الدمويّة، أمّا أنا فآثرت الابتعاد إلى حقبة البناء والحضارة، لا حقبة التدمير والاقتتال.

أحياناً أصارح نفسي؛ هل كنّا نحتاج إلى هذا النزف البشريّ كلّه حتّى ننطلق إلى الغد؟ هؤلاء لم يتركوا لنا أيّ خيار. وضعوا الناس بين طريقتين للقتل، وكلّ واحدة منهما تفضي إلى الأخرى. لا أشكّ في أنّنا سنعيش عصوراً ظلاميّة مقبلة. من جهتي أنا أجد خلاصنا في العودة إلى ما قبل التناحرات التي لن تؤدّي إلّا إلى مزيد من الدمار والدماء.

أتذكّر أساها وهي تكرّر لي:

آهٍ لو نعود إلى ما قبل تلك المرحلة، لبلغنا العلا! أنا أسكن مملكة متخيّلة، أعيد بناءها بخيالي وأشواقي. سأحييها لدى الآخرين، وسأتفانى في إحيائها. التاريخ يعيد بنفسه بكثير من الدمويّة والابتذال، هذه هي الدورة التي درج عليها، لكنني سأضع العصي في دواليبه، سأتعكّزه لأرمّم عربته وأقودها... أعلم أنّي صوت خافت في صخب العنف المتعاظم، لكنني صوت ثابت واثق مؤمن. الإيمان بالشيء يبقيه حيّاً. أرى الآن الأعمدة تتشاهق ههنا...

لا حضارة دون دمار ودماء... بهذه الجملة ختمت تنظيراتها وتبريراتها لعصبيّتها المتفاقمة.

وبجملتها التي ظلّت ترنّ في أذني استمررت في اكتشاف إسكندريتي، والتعرّف إلى حضّتي من الإسكندرية العظمى.

«طوبى لمَن يقول أنا تركيّ».

طالعني هذا الشعار في مطار إسطنبول. ألقى إلى الذاكرة حمولة سنين من القهر والإذلال والأوهام. ماذا يعني أن تقول إنّك تركيّ، وتتوهّم الهناءة في مقولتك. سُعار تطويب الجنّة الأرضيّة باسمك يضلّلك. أستذكر أسماء بعض ممّن لم يهنؤوا بعد أن تباهوا بترديدهم هذا الشعار. أتذكّر صورة صديقي الراعي الصغير الذي قتله عسكريّ تركيّ، ربّما كان بريق هذا الشعار الذي كان منقوشاً على محرسه أعماه ودفعه إلى تصفية الطفل ليرعب مدينة برمّتها.

أدرك أنّ القوميّين أرادوا تذكية أوهامهم السلطانيّة، وتعزيز هيمنتهم تحت ستار محدّث يواكب العصر، سعوا إلى صهر الآخرين في نيرانهم، وتخريجهم من حضانتهم الفكريّة وإطلاقهم رُسلَ تحت ستار الحداثة والقوّة والمستقبل، كانت الشعارات جسورهم لتحقيق أحلامهم.

أن يقول أحدهم إنّني تركيّ، ويتباهى بذلك، يعني سلفاً تقليله من شأن الآخرين، وحتّى من شأن مَن ينتمي إليهم، وهذا الانتماء اللفظيّ يفترض انتماء آخر شرساً، يقضي بإقصاء أيّ شعور آخر قد يتناقض معه، وبالتالي يكون الانسلاخ مبتدأ الانخراط المقبول والاندماج المنشود.

الهناءة التي يفترض الشعار تعميمها تظلّ مبتورة، فمَن جاهد لتقمّص الدور من القوميّات الأخرى، ظلّ مدموغاً بختم انتمائه السابق، أي يكون تركيّاً من أصول كرديّة أو عربيّة، وقد يغدو الكثير من هؤلاء مغالين في شوفينيّتهم وعدائهم لبني جلدتهم في سعي حثيث منهم لتأكيد انتمائهم الجديد وترسيخ أنفسهم في عقيدتهم المُعتنقة. وهذه عادة درج عليها «القومجيّون» في المنطقة، تراه يفتخر بقوميّته كأنّها منزلة، يضفي عليها هالات من القداسة، في سعي لتقديس نفسه وتعزيز موقعه، وكلّ واحد يتوهّم السموّ بسبب انتماء وجد نفسه فيه مصادفة.

هذا الشرق المترع بالأوهام يتفنّن في تحويل الأكاذيب إلى أساطير!

إسطنبول اليوم تتبدّى الحائرة بين انتماءاتها. مدن كثيرة تسكنها، تشتمل وتنفتح عليها. إسطنبول عالم في مدينة. أو مدينة العالم. جسر بين القارات والحضارات. مدينة الحوار والصِدام معاً. فيها تتجاور النقائض وترسم مشاهد لوحة غريبة مختلفة خاصّة. التاريخ فيها جاثم على الصدور وحاضر في كلّ زاوية. التاريخ يحكم العلاقات ويرسم دوائر

القرب والبعد، وينظم الرؤى والمخططات. كثيرون تغزّلوا بها وعشقوها كتبوا عنها، وكانت كلّ مرّة تتجسّد بحلّة مختلفة، تحتفظ بحظوة متفرّدة وحضور أخّاذ.

في إسطنبول يغيب الانتماء الضيّق، تتداخل الدوائر والانتماءات. يكون الانفتاح سمتها. كأنّ جغرافيتها الثريّة ومداخلها ومخارجها تلقي بظلالها على أبنائها وسكّانها فتطبعهم بطابع مميّز خاصّ. اسمها يحمّل أهلها أعباء التاريخ والمستقبل. تنتمي إلى الغرب والشرق. غربها خاصّ بها وشرقها كذلك. لا تنطبق عليها تعميمات الآخرين. ما يصحّ على غيرها قد لا يصحّ عليها.

لكلّ امرئ فيها مدينته. تبدو له أسطورة المدن والحضارة بأبّهتها وبذخها وتجدّدها. لا تركد فيها الأرواح، ولا تستنقع النفوس. مياه خلجانها وبحارها تطهّرها باستمرار. هكذا يحلو لبعض عشّاقها توصيفها.

وبما أنّ لكلّ امرئ فيها مدينة، وبما أنّ لي في كلّ مدينة أمرّ بها أو أسكنها حصّتي منها، فكانت لي حصّتي من إسطنبول أيضاً. كانت إسطنبولي الفريدة بمعالمها التاريخيّة ومتاحفها واحتضانها الفصول والأزمنة والجمال والحِسان. أقول لنفسي، كان الأولى بهم رفع شعار طوبى لنا بإسطنبول.

بعد خروجي من أحد فنادق شارع تقسيم. ابتسمت وأنا أكرّر اسم الشارع والساحة. فقد درجت العادة أن تسمّى الساحات والشوارع باسم الوحدة أو الحرّيّة أو أحد الشعارات الطنّانة، أمّا أن تكون أشهر الساحات في إسطنبول مسمّاة باسم التقسيم، فهذا ما يبعث على الغرابة والتساؤل. ربّما هي من مفارقات المدينة وغرائبها الكثيرة. وبعيداً عن المقصود بالاسم ومرجعه فإنّ إحالاته ودلالاته المعاصرة هي التي تطغى على الصورة القديمة والمرجعية الاسمية والتاريخيّة.

رأيت فتاة فاتنة، من ذاك النوع الذي كان يوصف بأنّ «جمالها يدفع للبكاء»، أو «يودي بك إلى السجن». بحسب تعبير بعض الشبّان. شعرها أسود، بشرتها بيضاء صافية، جسدها مكتنز بجماليّة واتّساق. حدّثتها بإنكليزيّة ركيكة، سألتني عن موطني، أخبرتها أنّني من دمشق. أفرحها ذلك، بادرت إلى الحديث معي بعربيّة مفهومة. وحين أخبرتها أنّني من المناطق الكرديّة بالأصل، صمتت. وبعد أن سألتها هل تعرف أحداً من الأكراد، أو تعرف عنهم شيئاً. اكتفت بالتأوّه والتنهيد. ألححت عليها بالحديث، لم تفسح لي المزيد من المجال للاستزادة من حديثها. ربّما

لتتخلّص من عبء الأسئلة، وثقل الأجوبة.

أتذكّر بوح صديقي الأعزب الذي كان يبحث عن حبّه المفقود وهو يقول لي بأنّ الأنثى وحدها قادرة على إضفاء السحر على المدن. أيّة مدينة دون أنثى بليدة باردة جوفاء. حين تحضر الأنثى تحضر معها البهجة والمتعة والنشوة. الأنثى روح الأمكنة. حين تقول اسم مدينة، وتضع نقطة بعده، اعلم أنّ تلك المدينة تفتقر إلى الروح. لا بدّ من أن تكون لك في كل مدينة أنثى، ابحث عنها أو اخترعها. أمّا أن تكون من دون أنثى في مدينة غريبة، فأنت تحمل غربتك المتعاظمة الهالكة معك. الأنثى تبدّد الغربة.

قصدت الخليج. لاحت لي من بعيد القصور السلطانيّة. تشابه متنزّه الإسكندريّة بهيبتها وهيئتها وتربّعها على عرش من السحر الأخّاذ. كنت منشرح الصدر. ردّدت لنفسي أنّ أحفاد محمّد عليّ باشا حكموا مصر، وقبلهم صلاح الدين. استعدت الفكرة الرائجة عند الكرد، وهي أنّ محمّد عليّ باشا كان ينحدر من أصول كرديّة، وكان قائداً في الجيش العثمانيّ، وبعد هذه المعلومة عنه تتقاطع معلوماته مع معلوماته الآخرين عن محمّد عليّ وسلالته. أمّا أصول صلاح الدين الكرديّة فلا يشكّك بها إلّا بعض الموبوئين بلوثة البعث «القومجيّة». والمعيب أيضاً أنّ المناهج المدرسيّة في سوريا كانت تسقيه القائد العربيّ. كأنّ كتاباً مدرسيّاً أو معلومة مغالطة ستقلب الحقائق التاريخيّة! لست بصدد تحليل شخصيّة صلاح الدين ودوره التاريخيّ، بل أشير إلى فكرة متكرّرة عنه لدى كثيرين.

بعد تلك المعلومة البسيطة الملغمة، كنت أشكّ في كلّ شيء وارد في المناهج المدرسيّة، وبخاصّة كتب التاريخ المفعمة بالتزوير والاختلاق والتلفيق. أسأل نفسي: كم من العمل نحتاج لنرمّم فجوات الذاكرة ونصحّح المعلومات المغالطة التي بثّها النظام في عقول الناس حتّى أقنعهم أنّها الحقائق المطلقة؟ عدا كتب التاريخ كانت تلك الكتب المسمّاة بالتربية القوميّة تثير الاشمئزاز وتنفر المرء لما تضمّه بين دفّتيها من تعالٍ مرَضيّ موهوم يعكس الخواء الواقعيّ.

وأنا جالس عند كورنيش الخليج، أستمتع بأمواجه التي تضرب الحائط الإسمنتيّ على بعد خطوات منّي، شعرت بأنّي أجلس عند كورنيش بحيرة خالد في الشارقة. لاحظت ذلك التماهي من قبل الشارقة مع إسطنبول من جهة تصميم الجوامع على الخليج. كانت القباب مضيئة تبثّ الجمال في البحيرة وتكتسب منها الجمال والألق. جوامع متقابلة، ترسم تفاصيل

اللوحة المتكاملة. تزنر الخليج، وترنو إلى العراقة السلطانيّة.

لا يفارقني فيها خيال صالبا، أذكر يلماز غوني بحياته القصيرة الحافلة بالإعجازات. من ضمن الكثير من الكتّاب الأتراك الذي قرأت كتبهم ورواياتهم، يلازمني طيف غوني. أجد صالبا في كلّ زاوية أمرّ بها. أسترجع منعطفات من حياة هذا المخرج الأسطورة، وتحدّيه المستحيل بإنجازاته التي قد يحتاج المرء إلى عمر يضاعف عمره مرّات ليتمكّن من إنجازها. كان بركاناً في هيئة رجل. حقّق ما تعجز مؤسسات عن تحقيقه.

في كلّ مدينة أنتقل إليها، أبكي مدينتي. أبكي حلمي المبذد في غربتي. أبكي نقاط العلّام التي تشير إليها على خارطة العالم.

في إسطنبول ملايين من الكرد. وأنا أتمشى في شوارعها القديمة، كأنّني ذاك الطفل الذي ينتشي بمرآه لسوق المدينة في حلب، بحجارته التي ترصف الطريق، وأزقّته وزواريبه ومحالّه. كان كلّ شيء في تلك الأسواق يحاكي أسواق حلب القديمة، وتشعّباتها الأخرى تستعيد سوق الحميديّة في دمشق.

أستعيد كيف أنّ السلاطين نقلوا إلى مدينتهم المهندسين والمعمارييّن من أنحاء السلطنة كلّها، وكيف أنّهم أرادوا بناء مدينة تجمع جماليّات سلطنتهم المترامية الأطراف، لتمتاز بفرادة وتشهد على براعتهم وتاريخهم.

وأنا أتجوّل فيها، تستوقفني الكثير من المحطّات، أحدّث نفسي بما كان وما قد يكون. فتاة بجانب والدها المقعد. خمّنت أنّه والدها من فارق العمر بينهما والحميميّة التي تجمعهما. تعزف على ناي حزين ألحاناً شجيّة. وقفت عندهما أستمتع باللحن الذي أنساني جماله ألم المشهد. وبما أنّ كان لديّ متّسع من الوقت، جلست بالقرب منهما، لم أحاول التحدّث إليهما، ظنّا أنّي سائح غريب لا غير، ولا سيّما أنّهما معتادان على هذا النوع من الناس. أعطيتهما بعض النقود.

استراحت الفتاة قليلاً. وضعت الناي في حضنها، كأنّها تخبّئ وليدها. اكتفت بصمتها. رمقني والدها بنظرة أفصحت عن أنّهما أنهيا الوصلة، ولن يكون هناك أيّ جديد قبل مرور بعض الوقت. لكنّني تعاميت عن الإيحاء. وأخرجت الخارطة التي كانت بحوزتي لأستطلع الأماكن، وأعرف موقعي.

سألت والدها بكرديّة عذبة عن إمكانيّة الذهاب. أجابها بأنّهما سيذهبان بعد قرابة ساعة. أخبرها أنّه جمع مبلغاً من المال، لم يتسنّ له الوقت ليعدّه، لأنّ هناك سائحاً يجلس بجنبهما ولم يغادر بعد. تمهّلت لأنزع عليهما

دردشتهما الحميمة. لمت نفسي أنّني أتنصّت عليهما من دون أن يعرفا أنّني أفهم ما يقولانه، وفي الوقت نفسه وجدتها فرصة سانحة للتعرّف إليهما من كثب دون أن أحرجهما أو أحرج نفسي.

وبعد دقائق صمت سادت بينهما. رغبت في الحديث معهما بالكرديّة، اشتقت إلى الحديث الكرديّ. شعرت أنّ الكلمات تتدفّق من بين شفتي. وكي لا أحرجهما بأنّي سمعت حديثهما الدائر، اصطنعت التحدّث بالهاتف، والتشاغل بالخارطة.

مَن أيّ منطقة أنتم يا عمّو؟

تفاجآ لسماعهما سؤالي بكرديّة قريبة للغاية من كرديّتهما. اضطربا قليلاً. لكن الرجل تدارك الأمر، وبادر بالإجابة.

من قرى باتمان يا ابن أخي...

عزف ابنتك رائع...

شكراً لك. من أيّ منطقة أنت يا ابن أخي؟

من سوريا يا عمّي... من عامودا..

أهلاً ومرحبا بك... أعانكم الله. تستعيدون ما سبق أن عشناه وعانيناه وندفع ضريبته حتى الآن. كيف الأحوال عندكم الآن؟

بخير... (قلتها على سبيل العادة ولم أعن الخير بمعناه الدقيق).

أيّ خير يا ابن أخي... أرى الحرب تطحنكم، يغرق الهاربون من أتونها في أغوار هذا البحر الظالم. قبل أيّام قليلة غرق قارب يحمل على متنه العشرات منكم. كم تألّمت لهم! شباب في مقتبل العمر، يهربون إلى جنّة أوروبا يحلمون بالخلاص، يلتهمهم وحش البحر. أقسم أنّي بكيت عليهم وما زلت أبكي كلّما ذكرتهم. كأنّما قد كُتب علينا أن نكون وقوداً لغيرنا نحترق في حروبهم، وندفع الضرائب من أرواح شبابنا ومستقبل أبنائنا. ظنّ المساكين أنّهم على أعتاب الجنان، فكان غول البحر الهائج يترصّدهم، فغدوا طعاماً لضواري البحر ووحوشه. لا أنفي أنّ البشر تغلّبوا على وحوش البرّ والبحر بهمجيّتهم وتوحّشهم، لكنّ لا أحد يرى ولا أحد يريد أن يعالج العقد المستعصية، بل ترى الجميع يرشّون البنزين على النار... أبكيهم كأنّني أبكي بيتي وقريتي وأبنائي. كأنّ لعنة المجازر لا تفارقنا. أذكر من أكثر من نصف قرن تناهى إلى مسامعنا أنّ داراً للسينما احترقت في بلدة عامودا، كانت مجزرة ناريّة راح ضحيّتها المئات، وما يزال الغموض يلفّ تلك المجزرة حتى الآن. وقبل أيّام هذه المجزرة المائيّة التي أغرقت القلوب بالحزن والأسى، وراكمت قهرنا وتشتّتنا وضياعنا. كأنّ قدر تلك

المدينة أن تقدم الأضحيات من أبنائها لإشباع غول الموت المتربص بها. بين الحرق والغرق ينوس تاريخها، ويتبدد أبناؤها. قيلت الكثير من الأسباب والأكاذيب، كلّ واحد منهم يحمّل طرفاً مسؤوليّة الحادثة المرعبة. كلّ ذلك لم يعد مهمّاً. بعد الخراب الشامل... وأنا هنا أشاهد الألوف يومياً. هذه المدينة محطّة للذاهبين والراجعين. أنا مع ابنتي ألازمها رغماً عنّي. لا أستطيع العودة إلى قريتي. سمعت أنّهم بدؤوا بإعادة إعمارها بعد أن أحرقوها مع قرابة أربعة ألف قرية أخرى مثلها. يحاولون إرجاع الناس وإغراءهم بالعودة إليها. لكن أين نعود وكيف نعود، أرضي تحوّلت إلى ثكنة عسكريّة، ثمّ أعود إلى قريتي متسوّلاً! الغربة ستار وحجاب يا ابن أخي. هنا نؤمّن لقمتنا واعتدنا على نمط حياتنا. لم يكسر ظهري وقلبي سوى ابنتي هذه التي هي عزائي في هذه الدنيا. أحياناً أفكّر في مصيرها بعدي، وبخاصّة أنا على أعتاب القبر بين ليلة وضحاها. أكاد ألقي بها في هذا الخليج طعماً للحيتان. أستغفر ربّي على هذا التفكير. ثمّ أحياناً أتمنّى لو كنت أنا وإيّاها على متن ذاك القارب الغارق، ولو كان في الإمكان افتداء أولئك الأطفال الذين غرقوا. الحياة بعد موت أبنائك جحيم مستعر. نيران قلبي لا تنطفئ. كلّ يوم يتجدّد فقدي ويتعاظم أساي. حين ألمح أطفالاً وشباباً بعمرهم أشعر بوجودهم في هذه الحياة. أتخيّل أبناءهم وزوجاتهم معي في الدار الكبيرة يسرحون في ساحتها ويمرحون.

لمح صمتي ودمعة انحدرت من عيني. اقتربت منه، أداري بحركتي قهري وأساي، وكي أسمع صوته المؤثّر أكثر. وبخاصّة أنّه بدأ بتخفيض نبرة صوته بشكل لاشعوريّ. الحزن اجتاحه، وأرغمه على التهدئة. لم أرد أن أقطع عليه أفكاره ولا حديثه. لكنّني حين لحظت أنّ صمته قد يطول، بادرته بسؤال عن قريته، وسبب جلائه عنها.

غصّ بحسراته وقال: «يا ابن أخي، هذه الدنيا اختبار دائم. لقد كنت مختار القرية حين اشتدّت المعارك بين الجيش التركيّ والشباب في الجبال. أراد الأتراك منّي أن أنقل إليهم أيّ تحرّك أشكّ به. وحاولوا رشوتي وإرهابي، كان تعاملهم معي بين الترغيب والترهيب، وعدوني بالأراضي والمكانة والحظوة، في مقابل أن أنقل إليهم كلّ التفاصيل وأخترق لهم التنظيم وأوقع بالشباب. رفضت ذلك، مع أنّ لي تحفّظات كثيرة على الشباب، لكنّني لن أتعاون مع التركيّ، ولن أتهاون في دمي. لم يقبلوا أن يبقى أحد على الحياد في حرب مستعرة. وفي نهار استراح فيه عدد من الشباب في القرية، ليغادروا مع حلول المساء، فوجئنا بالصواريخ والمدافع تنهال علينا من كلّ الجهات. أحرقوا كلّ شيء. دمّروا القرية. ارتكبوا

مجزرة بشعة. ومن نجا منا تمّ تعذيبه لأنّه لم يخبر عن الذين قضوا جميعهم في المجزرة. أحرقت القرية، حتى المسجد الوحيد لم يسلم من الحرق. وضعوا الناجين منا في شاحنة، وألقوا بنا في هذه المدن بعد أيام من السفر. وكما ترى، ها نحن هنا، نجترّ أوجاعنا ونحمل وطننا، ونبكي يومنا وغدنا. ابنتي هذه كانت صغيرتي، أما أبنائي الثلاثة الأكبر منها قضوا في القصف. فقدت جميعهم، وفقدت ساقي أيضاً. الآن أنا وابنتي نتساعد ونكمّل بعضنا بعضنا. أذكر نكاتٍ كثيرةً عن مآسي المقعدين، وكلّها تنطبق عليّ بمرارتي وبؤسي وفجيعتي. لا نملك أيّ خيار، إمّا أن نتحدّى أو نموت من الجوع».

- ألن تعود يا عمّي؟!

- أعود؟!! غصة تحرق الروح يا بني. ربّما أوصي بأن تعاد جثّتي عسى أن يضمّني تراب قريتي التي ضمّت رماد أبنائي... وهذا أيضاً حلم يكاد يكون مستحيلاً.

يبدو أنّ أحلام اللاجئين في كلّ مكان يجدون أنفسهم فيه تتحوّل إلى آلام متجذرة تذكّرهم بغربتهم الدائمة.

الطريق إلى هولير

في إسطنبول دار حديث بيني وبين بعض الأصدقاء من الوسط الفنّيّ والأدبيّ. أثار بعضهم مسألة إمكانيّة الاستثمار في كردستان العراق. فكّرت في الصديقة الفنّانة التي أخبرتني أنّها تفكّر جدّيّاً بإمكانيّة استثمار اسمها وتاريخها الفنّيّ والدراميّ في أربيل، فكما علمت أنّهم يحتفون بالأسماء العربيّة التي تقصدهم.

قالت بتهكّم: ربّما يريدون إثبات إخوّتهم وشراكتهم وجيرتهم واستحقاقهم وواجبهم، وربّما يردّون لنا بطريقته الكرديّة الكريمة ما ارتكبناه بحقّهم، سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، سواء كنّا مشاركين في ظلمهم أو صامتين على الجرم الذي اقترف بحقّهم عقوداً.

أخبرتني أنه حانت الفرصة للتوّدد إليهم، وجني ثمار الانتعاش الاقتصاديّ لديهم، ولا سيّما أنّ إقليمهم يتمتّع بأمان وراحة واستقرار، وهو يغدو مقصداً للمستثمرين من دول الجوار. وأنّها علمت أنّ فنّانين كباراً أسّسوا هناك شركات إنتاج، وهذا يمهّد الطريق لها.

تقول بضحكة خبيثة: بإيحاء بسيط من أنوثتي سأعبّد الطريق لشركتي الخاصّة، ولا بأس أن يشاركني فيها أحد الأثرياء الجدد منهم، بل أنا أحتاج إلى شراكة من هذا القبيل. أعتقد أنّ قسماً منهم يحتاج إلى واجهات لتبييض أمواله، وأنا أحتاج إلى مال لتبييض أيّامي وتأمين مستقبلي. هي معادلة تعمّم النفع لجميع الأطراف.

أخبرتني بما أخبرها به صديق لها عن الكُرد أنّهم قوم يبالغون في تقدير الغريب، وهذه شيمة من شيمهم - شيمة تتحوّل إلى شتيمة أحياناً - لكنّه وبكثير من المرارة والألم كان يكرّر لي بأنّهم يعادون أنفسهم وإخوتهم، وأنّهم يبالغون في النيل من بعضهم بعضاً. استرجع لي بعض المحظات التاريخيّة التي وقفوا فيها إلى جانبهم، لكنّهم لم يقابلوهم بما يفرضه عليهم واجب الإخوّة. في الفترة الأخيرة باتوا يستغلّونهم كأوراق ضغط لتعزيز مكانتهم في المنطقة.

كما تقول: إنّ ما يهمّني منهم أن أتمتّع بالسلام والأمان معهم، وأن أتمكّن من إعادة الانطلاق بقوّة من جديد، سأحقّق أحلامي بالتألّق السينمائيّ، وأحلامهم في استدراج الشركاء العرب، نكون أمام معادلة معلومة الأطراف والنيّات والمرامي.

كانت تعيب عليّ مثاليّتي المفرطة حين يتعلّق الأمر بالوطن - الحلم،

وتقول إنّها تعهدني واقعياً فيما عدا ذلك. تراني دونكيشوتياً في صراعي مع غيلان أحلامي المثاليّة وافتراس الواقع لتلك الأوهام. لا أرضى الإقرار معها أنّ الاقتصاد هو دم العصر وروحه الماثلة في المشاريع والاستثمارات. أرفض أن أقتنع أنّ عصب التنمية المقبلة ليس الأدب والفنّ والتربية والعلم كما أتوهّم، بل المال الذي هو سيّد العصر المتوحّش.

كانت تحاول التخفيف عنّي، عساي أتمكّن من التعامل مع المكان هناك بنوع من الحياديّة، تحاول إقناعي باتّخاذ المدينة كمستقرّ للعمل، وأتغاضى عن جوانب الأحلام المجهضة التي تقول إنّنا مللنا منها، والتي تدمّر ولا تعمّر، وإنّنا في رحلة التعمير نبحث عن ملاذٍ آمن لمستقبلنا.

عبّرت لي عن خطّتها بالتسلّل إلى قلب المجتمع المخملي هناك. قالت: لقاء مع هذه الفضائيّة وآخر مع تلك، وقليل من الدعم للقضيّة، وشيء من المدح والإعجاب بالسياسات الحكيمة، والترشيد النوعي المميّز للطاقات، يضعني في صدارة المشهد ويلفت الأنظار، وسأحرص على بثّ رسائلي المشفّرة بين ثنايا كلامي المبطّن. الفترة القصيرة التي عايشت فيها هؤلاء الساسة أكسبتني براعة في التمثيل لم أستطع اكتسابها طيلة سنوات احترافي للتمثيل. الكاميرا تنقص المشاهد السياسيّة ليتمّ إنتاج أفلام غاية في الإقناع والكذب. هناك سأجمع الجانبين. احترافيّتي في التمثيل وما اكتسبته من بدع السياسة التي لم تستطع تضليلي، لكنّني سأتسلّح بها لتضليل الساسة. هم الذين اعتادوا التصريح بأنّه لا أصدقاء لهم سوى الجبال، يطربون حين يسمعون أحداً من المثقّفين أو المفكّرين أو الفنّانين من الجنسيّات الأخرى يحتفي بهم ويمدحهم ويتباهى بمصادقتهم وتاريخهم. أراهم طيّبين إلى حدّ يسهّل لي التغلغل في استثماراتي ومشاريعي.

وتضيف: يمكنني أن أستفيد من عشرات الألوف الذين ألقت بهم الظروف هناك، سيشكّلون جيشاً من الممثّلين الأبرياء، يمكن توظيفهم في بعض المشاريع التي أنوي تقديمها. فكما أخبرني صديقي، هناك الكثير منهم ممّن يعاني الأمرّين، ولا أستطيع نسيان دموعه وهو يحكي لي كيف أنّ هناك المئات ممّن ينامون جائعين في زمنٍ كانوا يسجنون لسنين ويعذّبون أشدّ التعذيب فقط لتلفّظهم باسمه. المنشقّون والهاربون واللاجئون والنازحون غيّروا التركيبة الديمغرافيّة في البلد كما يقول لي، وساهموا في تنشيط الحراك العامّ. يعجبني فيه إباؤه، وأنا أدرك جوهر ما يقول.

الكرد السوريّون يتفوّقون على ملايين الكرد في المناطق الأخرى، وهم دائماً يقدّمون كأضاحٍ على مذابح غيرهم، يفتدون إخوتهم، لكن حين اشتدّت حاجتهم إلى إخوتهم، كان تنكّر العديد منهم لمأساتهم. بل عاملهم بعضهم كغرباء ولاجئين. تصوّر كيف يكون المرء لاجئاً غريباً بين أهله الذين دفع ماله وراحته في الدفاع عنه. كثيرون حلموا بالملاذ هناك، فكانت الغربة المركّبة لهم بالمرصاد.

حين يشتدّ النقاش بيننا، وأنا أحدّثها عن مأساتي وصدمتي ونكبتي، تدمع عيوني بصمت وأنا أسمعها تقول: الحياة معسكر مستمرّ يا صديقي. وكما تكرّر أنت بنفسك هذا العالم هو سوق سوداء. التجربة ستعلّمهم الكثير، وهم على أعتاب دخول عالم المنافسة والقوّة، ولن يجدي التهاون ولا الاستخفاف ولا التوهّم بالقوّة.

المصادفة تكاد تصبح عادة مع الأصدقاء. والجميل في الواقع أنّه ينفتح على الغريب واللامتوقّع دوماً أكثر من الروايات والفنون.

أصرّت تلك الصديقة عليّ أن أرافقها إلى هولير، لكنّني لم أقبل بالأمر. يؤلمني أنّ يعامل بعضهم الكرديّ السوريّ في هولير على أنّه غريب، أو يُنظَر إليه على أنّه مشكوك في أمره، أو أن يتمّ النظر على المجموعة البشريّة النازحة إلى هناك على أنّها جالية كرديّة سوريّة.

الجاليّة الكرديّة في كردستان. وصف يستثير الأسى... وصف يلدغ الذاكرة ويفخّخ المستقبل.

حدّثتها عن بعض وساوسي وتوجّساتي. وحكيت لها أنّها ستكون بمأمن وستقابَل بحفاوة رهيبة، وأنّها ستتصدّر المشهد بسرعة قياسيّة، ولاسيّما أنّ حضورها الفنّيّ مكرّس في النفوس والذواكر. ولم أخفِ عنها أنّ هناك الكثير من المسؤولين الذين كانوا قد أدمنوا قسوة الجبال سيستمتعون بلطفها في التعامل معهم.

أنا لا أستغرب تصرّفات بعض الرجال الكرد؛ ذاك الذي يعدّ حالة متقدّمة من تزمّت الشرقيّ عموماً، تراه يعشق المرأة المنطلقة المتحرّرة، يضحّي بالكثير ليحظى برفقتها ومجالستها، وفي الوقت نفسه يحرص على إبداء اعتكار المزاج والكثير من الجدّيّة في البيت مع نسائه. يحرص على المحافظة على هيبته في البيت في حين أنّه يمثّل التفكّه والظرف والتحضّر خارج حدود محيطه.

أقول لها إنّ البشر ممثّلون بالفطرة، وإنّنا كلّنا ممثّلون في النهاية. الفرق بيننا وبينها أنّها تتقاضى أجراً على تمثيلها في حين أنّنا ندفع

ضرائب كبيرة جزاء تمثيلنا، تكون الضرائب سنواتٍ من أعمارنا المقصوفة.

الواقع مرآة الفنّ أم العكس؟ لا يهمّ، النتيجة أنّ كليهما يُمرئيان بعضهما بعضاً. أستغرب جهلها المطلَق بنا، ولا أستغربه أيضاً في الوقت نفسه، فهي مشغولة بنفسها وجسدها وجمالها ورشاقتها، وككلّ مَن تقع في فخّ الأضواء والشهرة، تعميها الأضواء المسلّطة عليها وتحجب عنها رؤية الأبعاد الأخرى.

أراها سعيدة باكتشافها، حالمة بتجديد رونقها، وبثّ الحياة في مشروعها المستقبلي. الشراكة معها تمثّل وحدة جديدة، الاقتصاد أساس المستقبل وركيزة التفاهم والمحبّة. أدرك مراميها في تجيير الشراكة لإنعاش اسمها، وتخليده بطريقة محدّثة. لا ضير في ذلك، هي ستكسب النقود وهم سيكسبون المتعة والأضواء الماضية والمأمولة أيضاً.

المتعة تباع وتشترى. كلّ شيء يباع ويشترَى، حتّى أنّ الإنسان يشيّأ هناك أيضاً ككثير من الأماكن الأخرى، وهذا أخطر ما في المسألة. القضيّة التي ضحّى من أجلها الملايين، الحلم الذي نهش الأرواح، يتحوّل لدى بعضهم إلى رأس مال يفقد ذاكرته. الخطورة العظمى تتمثّل في فقدان الذاكرة. الذاكرة روح العصر كالبشر المتفرّدين تماماً.

الواقع صادم، وأصدق أنباء من الكتب، كالسيف تماماً، الواقع سيف البشر دوماً. حين استهلّ الشاعر أبو تمام ملحمته بإخباره أنّ السيف أصدق أنباء من الكتب، كان يدرك الحدود التي يرسمها ويقطعها ويفرضها على الواقع، ويرسم بدوره واقعاً جديداً مختلفاً، يتوافق مع حدّته وقوّته.

هي تريد أن أكون مسبارها الكرديّ، كلّ مرّة تكتشف فيّ شيئاً جديداً، تقول لي إنّها تتعرّف فيّ إلى تاريخ من القهر والحزن معاً.

أقول لها إنّ المصيبة الكبرى أنّ الجميع يحاول استغلالنا كأوراق بيده، يريدون لنا الارتهان لسياساتهم وقراراتهم ومصالحهم ونفوذهم. لا يدركون أنّنا لن نرضى أن نكون ورقة ضغط أو ابتزاز أو مسرح محاسبة. هذه الجبال التي تمنحنا التجذّر والحرّيّة، تتكفّل بحمايتنا من أنفسنا أيضاً.

حدّثتها عن المراحل الحرجة التي مرّ بها الإخوة الذين تبادلوا سموم العداء الشرس القاتل في كردستان، ولم أخفِ عنها الصراعات التي ما زالت مستعرة بين التقسيمات الاجتماعيّة والسياسيّة واللغويّة، ولا تفشّي الروح القبائليّة والعشائريّة. والأفظع استمرار ختان النساء، وارتفاع أعداد المنتحرات بين النساء هناك. صارحتها أنّ الكثيرين لا يريدون التذكير بتلك الأيّام السوداء التي تلت المجازر التي اقترفها الطاغية بحقّ إخوتنا هناك،

ولا الأحداث السوداء التي تقع بين الفترة والأخرى، وكأنّ من شأن عدم الخوض فيها القضاء عليها أو الإشارة إلى عدم وقوعها من أساسه.

كلّ مرّة أراها تصحّح الاسم، يسبقها لسانها فتقول شمال العراق، فتصوّب لنفسها مستدركة، أقصد كردستان. وتتبعها بطلب العفو بطريقتها الجميلة.

لا أعرف كيف أوصل لها حالات مستعصية نعيشها دون أن نجد لها تفسيرات مقنعة. لم أجد داعياً لإخبارها أنّ الكرديّ يصفح عن الآخر ويؤاخيه، لكنّه يحتفظ بجمر الأسى في قلبه على أخيه، وهو مستعدّ أن يكون سيف غيره البثار ورأس الحربة في أيّ معركة يخوضها، إلّا أنّه يظلّ عدوّ نفسه.

ألا يرمز للكرديّ بطائر الحجل المعروف بإيقاعه بأخيه الحجل؟!

يحلو للكرديّ أن يشعر بأنّ التاريخ ينبئه أنّه شيّد أمجاد غيره تحت مسمّيات وشعارات شتّى، لكنّه غفل عن تشييد تاريخه المستقلّ، لذلك ترى التداخل وتجيير التاريخ الذي يكون صدى للواقع وإسقاطاته.

نجد أنفسنا أمام حالة عكسيّة، إشكاليّة التاريخ ولعناته تلاحقنا. حين نضطّر إلى كشف حساب ما أمام أنفسنا والآخرين، نجد أنّنا كنّا الوقود في كلّ المعارك التي خاضها غيرنا، وفرق العملة المهدور فيها، كانت دماؤنا أرخص الدماء...

تريدني أن أتحلّى بشيء من المرونة والواقعيّة لأتمكّن من مواكبة التجدّد والتطوّر. هي محقّة في رأيها وطرحها، لكنّني لا أستطيع تمثيل ذلك حين يتعلّق الأمر بنا. تريدني أن أتخلّى عن أوهام الجبال، لأتخطّى عتبة البورصات وأدخل جحور الأفاعي.

الشركات غيلان الواقع والمستقبل، الأنوثة وحدها قادرة على أن تروّض الوحوش البشريّة الضاريّة. هكذا تشبّه الواقع، وأتّفق معها إلى حدّ كبير، لكن كيف سأتمكّن من ترويض الثورة التي تجتاحني وتبقيني ساكناً في مخيّمات الحزن والبؤس والقهر، في حين أنّ هناك متاجرة تتمّ بتشرّدي وصفقات تعقد على حساب أساي وقهري؟

تذكّرني بتلك الجملة التي كنت أكرّرها لها: «هذا زمان لا كما يتخيّلون، بمشيئة الملّاح تجري الريح والتيّار يغلبه السفين». والتي كان يكرّرها لنا أحد مدرّسي اللغة العربية. وأتذكّر ما أكرّره لها حين يتعلّق الحديث بالجبال ورمزيّتها في النفوس والأرواح، وأقول لها إنّني أؤمن بأنّ مياه البحار مهما فاضت وهاجت وماجت فلن تغرق ذرى الجبال. أعيش في

أوهامي ومثاليتي، وسأحاول التوفيق والمواءمة بينها وبين الواقع الذي يفترس الأحلام والأوهام معاً...

أربيل كما تقول هي، وهوليز كما أصحّح لها ونحن نضحك، ستكون وجهة جديدة. بريق النفط ولمعانه يمثّنان أواصر الأخوّة مع الشركاء والجيران، وخطاب الكراهية في تصاعد واستعار هناك... وهنا... و«الله يستر».

ذهبت لحضور حفلة مفترضة للرقص اللاتيني، بعد أن وصلتني دعوة من صديقة من إحدى دول أمريكا اللاتينية، ظننت على إثرها أنّ هناك حفلة للرقص اللاتيني، قبل أن يتبيّن لي عند وصولي إلى المكان أنّها حصّة تدريبيّة لا غير. التقت عيوني بعيون بعض النساء السوريّات والعربيّات ممّن كنّ يحاولن التمرّن على الرقص، وما إن كدت أن أتخطّى عتبة الباب نحو داخل الصالة المخصّصة للرقص، والمعارة من إحدى الكنائس، حتّى تراجعت، وأخبرت صديقتي أنّني ظننت بأنّ الدعوة للحفلة وليس للحصّة التدريبيّة.

حاولت الصديقة؛ مدرّبة الرقص أن تبقيني، وأخبرتني أنّ المتمرّنات سيقدّمن عرضاً في نهاية التمرين، لكنّني انسحبت مباشرة وأخبرتها أنّني قد أعود لاحقاً، لكنّ انسحابي كان نهائيّاً، لم أرد إحراج النسوة السوريّات والعربيّات وهنّ يحاولن تطويع أجسادهنّ وتمرينها على الرقص اللاتينيّ، وتحاشيت أن أنغّص عليهنّ فرحتهنّ بإحدى المتع الجسدية المثيرة التي حرمن من ممارستها في بلادهنّ بهذه الصيغة أو تلك.

كان هناك في القاعة بضعة رجال، عرفت واحداً منهم، دعاني بإلحاح أن أنضمّ إليهم، لم يعرف حساسيّة الموقف بالنسبة إلى زميلاته اللاتي سيكون حضوري بمثابة قيد لهنّ، تعامل بعفويّة بدت لي عدوّ شخصيّات كثير من الوافدين الهاربين من مجتمعاتنا الشرقيّة التي تعلي من شأن التمثيل والاستعارة والمواربة والإخفاء والاختباء.

لا أفكر كثيراً في أنّ وجود رجال آخرين في القاعة وتمرّنهم على الرقص إلى جانب النساء والفتيات يمكن أن يشكّل إحراجاً لمن أعرفهنّ، ذلك أنّ الغريب يبقى غريباً، ولا يستطلع خفايا تاريخ المرء ولا خلفيّته الثقافيّة والفكريّة والاجتماعيّة والتدينيّة، وكيف أنّ المرء يبقى محرجاً ممّن يعرفهم لا ممّن يكون معهم ويقدّم لهم نفسه بشخصيّته الجديدة التي يحاول تقمّصها أو إبرازها وتصديرها.

يمكنني تحليل نظرة الثقة والبؤس والأسى والخيبة والصدمة واللعنة في عيون أولئك النساء اللاتي صادفتهنّ في درس الرقص الذي لم أحضره، بل كانت مجرّد رؤيتهنّ لي كفيلة بتعكير صفوهنّ وإعادتهنّ إلى قوقعة اجتماعيّة يسعين إلى تجاوزها والتغلّب على عقباتها وخطوطها الوهميّة التي ما تزال تمارس تأثيراً قويّاً فيهنّ وفي أساليب حياتهنّ في ملاجئهنّ.

حين يرى الآخر الغريب جسد إحداهنّ في تمايلاتها فإنّه لن ينبش في

ما وراء الحركات والسكنات، لن يستغرق في التلصص على ما كان محجوباً وبدا مباحاً للنظر بعد طول تقييد، كما أنّه لن يعرف أحداً من الوسط الاجتماعي الذي تنتمي إليه اللاجئة، وبالتالي لن يسبّب لها أيّ أذى بثرثرته عنها وعن رقصها، أي أنّ الأمر لن يتجاوز قاعة الرقص ولن يحتاج إلى تأويلات تجعله وبالاً عليها. أمّا أنا، لا أقصد شخصي بل أقصد ما أمثّله كفرد جزءاً من المجتمع الذي تنتمي إليه والذي تدور في فلكه، قد أسبّب لها، من وجهة نظرها، إحراجاً بثرثرة محتملة قد تعرّضها لألسنة حاقدة، أو تنال من سمعتها وتتّهما اتّهامات ملفّقة.

أتساءل في نفسي لماذا يكون وجود أحدنا محرجاً للآخر في أوقات سعادته المفترضة، وممارسته نشاطاً من أنشطته المحبّبة، ولماذا يكون اللاجئ ذئب اللاجئ، يبقيه أسير أحكامه السابقة التي يحملها كأعباء لا يمكن التخلّص منها.

أتساءل عن بئر الأسرار الذي يمثّله الغريب لأحدنا، وكيف أنّه يكون موضع ترحيب في الوقت الذي يوضع القريب دريئة للتأثيم والنيل من الماضي والتعتيم على الذاكرة، وكيف أنّ الغربة تبعد الغريب وتؤثر الغريب في أحيان بعينها، حين تشتدّ الحاجة إلى التصالح مع الذات والجسد، ومحاولة الخروج من رعب الوساوس التي يحملها اللاجئ في داخله ويعظّمها بالتراكم.

إثر انسحابي من القاعة، على الرغم من أنّني أستمتع بالتفرّج على الرقص، وأجده متعة قصوى، وكنت قد كتبت فصلاً بعنوان «الرواية والرقص» في كتابي «الرواية والحياة» ضمّنته بعض جوانب عشقي للرقص، وكيف أنّه يشكّل هويّة مستقلّة، وعلى الرغم من أنّني لا أجيد الرقص إلّا أنّني أجيد الاستمتاع بمشاهدته. أخذتني أفكاري إلى حالات مررت بها أو عاينتها عن قرب، تذكّرت صديقة كانت تمضي إلى المسبح في الصباح الباكر، في الوقت الذي يخلو من اللاجئين ممّن تعرفهم، ولم يكن هناك أيّ بأس في الرجال الآخرين الذين قد يرون جسدها بلباس المسبح.

كما تذكّرت مفارقات جرت مع صديق عربيّ مسلم تعرف إلى فتاة عربيّة مسلمة في مدينته الإنكليزية الصغيرة، وكيف حار في ترتيب مواعيده معها، إذ أنّها كانت تتوجّس من مرافقته إلى بيته، كما لا تسمح له بزيارتها في بيتها، وكانت علاقتهما في بداياتها، وتمّ وأدها جزاء المشقّات التي كانت تعترضهما، كما أنّ العلاقة لم تكن قد تطوّرت إلى حبّ بعد، وكان الشقاء الأعظم يكمن في البحث عن ملاذ لترتيب اللقاء، فالمقاهي

أمكنة مستباحة للجاليات العربيّة والمسلمة، ولا تخلو من أحد ما يمكن أن يتعرّف إليهما، ويمكن بعد ذلك أن يثرثر بمشاهدته لهما، ويفسح مجالاً للفضوليّين كي يبالغوا في تأويلاتهم وتقديراتهم لمستوى العلاقة، وبالتالي النيل من سمعة الفتاة بالدرجة الأولى، وقد يكون التمادي في التحرّش بها بطريقة ما، على اعتبار أنّها لا ترفض الخروج مع الشباب إلى أماكن عامّة. كما أنّ البارات تعدّ مشكلة للفتاة، لأنّها محجّبة، وقد يلتقط لها بعض السكارى أو الفضوليّين صورة وينشرها بطريقة ما نائلاً من سمعة المسلمات والمحجّبات من خلالها. كثرة الحسابات أفقدت علاقتهما الناشئة قيمتها ومعناها فآثر كلّ طرف الابتعاد والاقتصار على التواصل في العالم الافتراضي، وكأنّهما مقيمان في قارّتين مختلفتين بعيدتين.

ربطت بين التقاء عيني وأنا على عتبة باب القاعة لم أخطها بعد نحو الداخل بعيون بعضهنّ، وما يمكن أن تختصره تلك النظرة من بؤس حال وفكر وفعل ورثناه ونقلناه معنا إلى عالمنا الجديد، وكيف أنّ التحرّر من سطوة الماضي والذاكرة يكاد يكون مستحيلاً، وكيف أنّ اللاجئ ذئب اللاجئ، يتربّص به من حيث لا يدري ولا يخطّط، قد يوقع به مصادفة وقد يعكّر صفو لحظاته التي يهندس فرادتها وتميّزها.

يتكرّر موقف الإحراج الذي يوقع به بعض اللاجئين أنفسهم حين يتلاقون في سوق الأحد، وهو السوق الشعبيّ الذي يقام في أدنبرة، ويكون مكاناً لبيع الأدوات المستعملة بأسعار رخيصة، يرتادها كثيرون من المقيمين في المدينة من أهلها ومن سكّانها سواء كانوا أوروبيّين أو مهاجرين أو لاجئين من مختلف الجنسيات، أي أنّ السوق يكون ملتقى الأمم بمعنى ما، ويكون مختصراً لعالم كامل، تتلاقى فيه مختلف الثقافات والأشكال والألوان.

حين يلتقي السوريّ بالسوريّ يشعر كلّ منهما بنوع من الحرج لا يفصح عنه، يحاول أن يداري عينيه كي لا تلتقي بعيون الآخر، وإن التقت عيونهما، يحاول أن يحيّي على خجل وبسرعة، ثمّ يكمل طريقه وكأنّه في عالم آخر، أو كأنّهما يكادان لا يعرفان بعضهما بعضاً.

في محاولتي لتفسير هذه الظاهرة المتمثّلة في التوجّس والريبة والتشكيك المنتشرة بين اللاجئين من أبناء البلد نفسه، يمكن التوقّف عند الازدواجيّة والتناقض اللذين يسمان حياة اللاجئ في واقعه، فقد يدّعي الترفّع عن ممارسات أو أفعال في حين أنّه يتكالب عليها في الواقع، وهذا ما يبقي بعضهم أسرى أوهامهم وتناقضاتهم التي تبعدهم عن ذواتهم

ومحيطهم وتفعّل الاغتراب في داخلهم أكثر.

يعيش كثير من اللاجئين في مستنقع الحرمان، يحرمون أنفسهم من الاستمتاع بالمكان وسحره، أو بالثقافة الجديدة وفرادتها وتميزها، ينغلقون على أنفسهم، يخشون الانخراط والتواصل، يقعون فريسة شكوكهم بالآخرين وانعدام ثقتهم بأنفسهم، وفي المقابل يمثلون دوراً نقيضاً حين يتواصلون مع ذويهم أو معارفهم في بلدانهم، يتباهون بوجودهم في ملاجئهم، ويستمتعون بالإطراء ونظرات التعظيم والإكبار والحسد في أعين كثيرين منهم.

الذئاب المنفردة، أو الضالّة، تعبير يبدو أقرب لعنوان أدبي مثير، لكنّه في الواقع التوصيف الإعلاميّ الذي راج عن إرهابيّين منفردين يسرحون ويمرحون بحرّيّة وطلاقة في رحاب العالم، يخطّطون لأعمالهم الإرهابيّة منفردين أو بالتواصل مع جماعات إرهابيّة تموّلهم، وهؤلاء يكونون رأس حربة تفجير برميل البارود المتأهّب الموقوت المتأهّب للإيداء بما ومن حوله.

من المثير للأسى والسخرية في آن أن تنتشر نظرة ضيقة الأفق بين عدد من أبناء المجتمعات الحاضنة للاجئين، من أولئك الذين وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة مع مخاوفهم، وحاولوا تجسيد تلك المخاوف؛ التي تحوّلت لدى بعضهم إلى وساوس، في صور وأشكال مَن يصادفونهم بين ظهرانيهم، وكأنّهم أمام امتحان حياتيّ يوميّ عسير، فقد يبدؤون بالنظر إلى اللاجئ بينهم على أنّه ذئب منفرد ضالّ يمكن أن ينقلب عليهم أو يودي بهم في أيّ وقت، وما انتظاره إلّا تحيّناً للفرصة للانقضاض عليهم في الوقت المناسب. وقد يتمادون في تشكيكهم فيعمّمون الصورة التي صاغها الإعلام المتطرّف لهم وقدّمها على أنّها بذور إرهاب تنمو في بيئتهم وعالمهم.

أذكر قصّة بعنوان «عميان» لإدواردو غاليانو (1940 – 2015) في كتابه «صياد القصص» يحكي فيها عن رؤية الأوروبيين السابقة لعالم أمريكا اللاتينية، وكيف أنهم كانوا يطلقون أحكاماً مسبقة لا تمتّ إلى الواقع والتاريخ والعلم والإنسانيّة بأية صلة، يتساءل عن كيفية رؤية الأوروبيين لهم في القرن السادس عشر؟ ويجيب بأنّهم كانوا يرون أميركا من خلال عيني تيودور دي بري. ويصفه بأنّه الفنّان الذي من مدينة لياج، لم يذهب إلى أميركا قط، وكان أوّل من رسم سكّان العالم الجديد. ويشير إلى أنّ أعمال حفره كانت الترجمة الغرافية لمدوّنات الغزاة التأريخية.

وتراه يؤكّد أنه كما تظهر تلك الصور، فإنّ لحوم الغزاة الأوروبيين، المذهّبة على جمر الشواء، كانت هي الطبق المفضّل للمتوحّشين الأمريكيّين. ثمّ يتأسّف لتلك الصورة البائسة المقدّمة على طبق التحايل والتضليل، يقول مكذّباً الفنّان تيودور دي بري ورؤيته العنصرية ومن خلفه أولئك الذين تبنّوا نظرته تلك: ولكن عذراً للإزعاج، هل كانوا هنوداً أولئك الجوعى المتلهّفين إلى اللحم البشري؟ في أعمال حفر دي بري يظهر الهنود جميعهم صلعاناً. لم يكن في أميركا أيّ هندي أصلع.

يتبنّى بعضهم اليوم مزاعم تلفيقيّة عن الإرهاب الذي يحمله اللاجئون في أرواحهم وذهنيّاتهم أنّى حلّوا وارتحلوا، وكيف أنّهم بصدد التهيئة للقيام بعملياتهم الإرهابيّة المفترضة، وذلك في تقييد استباقي وتجريم مستغرب بناء على التخمين والظنون وتأثيم الخلفيّة الثقافيّة والاجتماعيّة والدينيّة.

ربّما يكون السعي الأعمى إلى تحويل اللاجئين في عالم اليوم إلى هنودٍ معاصرين منتشرين في أنحاء المعمورة، يحملون آثامهم خلفهم، تلك الآثام التي هي نتيجة لآثام الأنظمة المستبدّة ورعاتها من دول الغرب، ويوضعون كسبب مباشر للفتن في العالم، والخدعة الإعلاميّة في تحويل الضحيّة إلى جلّاد، والحمل إلى ذئب مفترض ينبغي النيل منه قبل أن يشتدّ عوده.

في بريطانيا بدأت قواقع بشريّة بالنموّ والاتّساع على هامش الحياة البريطانيّة، وفي مختلف المدن، وبخاصّة الكبرى منها، إذ يقتصر بعض أبناء الجاليات الإسلاميّة على تكتّلاتهم فيما بينهم، يخلقون فضاءهم على أرض لا يخفي قسم منهم دنسها المزعوم، وأنّ أهلها لا يتّقون الله في ممارساتهم الخارجة عن إطار الدين. يجدون أنفسهم غرباء العصر، الدعاة الذين يقع على عاتقهم همّ التبشير، في حين أنّهم يعيشون تغرّبهم واغترابهم المزمنين في فضاء الحرّيّة التي حرموا منها في بلدانهم الطاردة لهم.

ما يدعو إلى الاستغراب هو بثّ خطاب لا يخلو من الكراهيّة ضدّ المجتمع من قبل بعض المقيمين في قواقعهم المنغلقة على ذاتها، والتوهّم بالشعور بتفوّق على أفراده الذين يصفونهم بالضلال، ومن ثمّ يكون التمهيد لخلق بيئة ترعى صغار الذئاب وتدسّ السموم في أذهانهم.

لا أشكّ في أنّ تحرير هؤلاء من قواقعهم المغلقة وضياعهم يحتاج إلى ثورة فكريّة تنقذهم من أنفسهم وشرورهم المتعاظمة، وتدفعهم إلى اللجوء إلى إنسانيّتهم وانفتاحهم لا تقوقعهم وأوهامهم وخشيتهم من الذات والآخر.

حرّرني اللجوء من كثير من الأوهام التي كانت تستوطن خيالي وتفكيري، منها ما كان يدور عن عالمي في الشرق، وأخرى عن العالم الذي وصلت إليه في الغرب، والخيوط التي تربط بين العالمين وتشكّل جسور تواصل وتفاعل بينهما. ومنها ما كان يدور عن الثورة والتضحيات المقدّمة، وعن الانتماء لوطن أو قوميّة.

لا تنتهي الثورة أو تموت، قد يستشهد ثوّارٌ، وقد يتغيّر ثوّارٌ آخرون ويصبحون تجّاراً، وقد يتآمر عليها القريب والبعيد، لكنّها تبقى ثورة ضدّ الطغيان والإجرام، ثورة الإنسان في بحثه عن الحرّيّة المنشودة. لا شكّ في أنّ الثورة التي تمّ تحويلها إلى حرب شاملة على الشعب السوريّ، وضع النظام فيها البلد رهينة قيود احتلالات متعدّدة، إيرانيّ وروسيّ وأمريكيّ، كلّفت الشعب السوريّ تضحيات وخسائر لا تقدّر، سواء من ناحية الشهداء أو مشوّهي الحرب، نفسياً وجسديّاً، أو من ناحية تدمير المدن التي يحتاج ترميمها أو إعادة إعمارها إلى عقود، لكنّ الحرّيّة تستحقّ ما يبذل في سبيلها، لأنّ الارتكان لظلم الأوغاد من شأنه أن يبقي البلاد رهينة التدمير لقرون وقرون، ولن تتسامح أجيال الغد مع الأجيال المستسلمة لعار الاستبداد.

في سياق الذئبيّة والاستذئاب والضلال، قد يُعدّ الكاتب اللاجئ، أو اللاجئ الكاتب، من وجهة نظر بعض الكتّاب المُطيعين للمستبدّ الموالين له، ذئباً منفرداً، وعليه فإنّه إن نقد ظاهرة ما في مجتمعه الجديد أو القديم، فإنّه قد يوصف من المنقودين بأنّه ليس إلّا كاتباً انتهازيّاً وصوليّاً، متخفّياً في المنطقة الرماديّة المضلّلة بين الانتماء لمكان والانسلاخ عن آخر، لاعباً على النقائض والمصطلحات. وإذا نقد روائيّاً انتهازيّاً وصوليّاً قد يُوصَف بأنّه يغار من نجاحاته الروائيّة وشهرته الخلّبيّة المبنيّة على علاقات وتنفيعات متشعّبة في وسط فاسد، ولا سيّما في نظام الفساد الذي أرسى دعائم مستنقعات عديدة في ميادين فنّية وأدبيّة وصحافيّة وثقافيّة، وكما قد يوصف نقده بأنّه لا يتعدّى «عداوة الكار». لكن حقيقة الأوبئة التي تصادفها في عالم الفساد مثيرة للاشمئزاز وتدفع المرء إلى تفضيل عزلته المحمودة، مع تعزيات مؤجّلة حين الحاجة للتوظيف الروائيّ لها، على توريط نفسه في معارك ضدّ كثرة فاسدة مُفسدة.

أسرّ لنفسي أحياناً أنّني لو كتبت رأيي الصريح في كثير من الأعمال الأدبيّة التي تصدر لأصبحت عدوّ الأعداء المتقاتلين جميعهم، ولاتّفق المتعاركون فيما بينهم على محاربتي معاً، مع ترحيل خلافاتهم لوقت آخر، أو الاستمرار فيها بوتيرتها المعهودة، وتخصيص التعاون على محاربة عدوّ مشترك أغدوه «أنا الناقد» المحوّل إلى ذئب ضالّ في نظرهم.

هل يمكن ترويض الذئاب المنفردة في بيئة يتنامى فيها التشدّد ويتصاعد التطرّف؟ هل يقوم الغرب بدور ترويض هذه الذئاب المفترضة الضالّة أم أنّه سيقوم بدفعها إلى الاستشراس أكثر وتحويلها إلى قنابل متفجّرة في محيطها، أو يرسلها إلى أرض الفتن والحروب والنيران

المشتعلة هناك في الشرق المُبتلى بأوهامه وحكّامه وثرواته؟

كم هو بائس أن يتمّ النظر إلى بعض اللاجئين، أو كلّهم، على أنّهم ذئاب منفردة قد تنقضّ على مجتمعاتها الجديدة لتنهش خيراتها وتفتّت تركيبتها في أيّة فرصة أو عند أيّ تحريض على الفتنة والكراهية من قبل أشخاص في هذه الضفّة أو تلك!

الذات في محنتها، ومحبتها..

لا أريد للكتابة أن تكون تصفية حساب مع أحد، لا أريد أن أكتب كتابة فضائحيّة، وإن كان الواقع يعجّ بالفضائح من حولنا، لا أريد تحديد أسماء وتعرية أصحابها بكشف أوراقهم أو ممارساتهم التي يعتبرونها شطارة وفهلوة للحظوة ببعض الأشياء، أو ببعض التقدير الآنيّ...

تمنحني الروايات فضاء واسعاً للحرّيّة بنقل كثير من الأشياء والأحداث والأفكار على ألسنة الشخصيّات، أو تحميلها إيّاها، بحيث يكون التخييل المفترض قناعاً من الأقنعة التي ألجأ إليها كروائيّ في لعبة الإخفاء والتعرية، أمّا أن أتوجّه بطريقة مباشرة، وبالاسم والصفة والتاريخ إلى بعضهم، فهذا ما قد أصنّفه بيني وبين نفسي الاندفاع بغريزة الانتقام، وجاهداً أسعى إلى التخفيف والتخفّف من مشاعر الحقد التي راكمها الزمن، وتكفّلت الغربة بإلقائها إلى زوايا قصيّة في الذاكرة، وأبقتها محاصرة هناك.

هل السيرة قيد بمعنى ما؟

هل أكتب رغبة في تعرية ذاتي وغيري أمام مراياي الداخلية وأمام القرّاء الذين قد تستهوي بعضهم نماذج من الكتابة الفضائحية؟ هل يكون في تشبيه الكتابة بأنها فنّ الاستعراء نوع من المبالغة أو الإيهام أو الاتّهام؟ وهل من الممكن أساساً الجمع بين الكتابة والتعرّي في سياق التشبيه والمقابلة؟ هل من تشابه بين الأدوات والغايات في الحالتين؟ هل يكفي توصيف كلّ منهما بالفنّ ليحضرا في ميدان الإبداع الإنسانيّ؟ هل يتعرّى الكاتب وهو يدوّن أجزاء من سيرته أو حين يسرّبها في أعماله؟ هل من جامع بين الكتابة والعري؟

يكون الحديث عن العري في بعض الأحيان إشارة إلى الفضيحة المرافقة، تلك التي يشتمل عليها بشكل مضمر أو معلَن، كما قد يوصف في أثناء النيل من الآخر بأنّه مصدر عار متفاقم، طالما أنّه أظهر المخبوء وكشف السرّيّ والدفين، وكأنّ التعتيم هو المقابل الذي يستوفي شروط الإكساء والإخفاء والتقنيع.

قد يحضر سؤال ما إن كان العري قناعاً يكشف ما وراءه، أو ما إن كان هنالك من شيء يخفى بعد التعرّي، وهو سؤال يستبطن تأويلات للأقنعة الفنية والكتابية، وإشارات إلى الأسباب والدوافع التي قد تساهم في بلورة رداء من الكلمات لتزيين العري، أو تأثيث فضائه الفنّيّ بتقنيات الكتابة والفنّ.

أذكر توصيف البيروفي ماريو بارغاس يوسا؛ الحائز جائزة نوبل 2010 للعلاقة بين العري والكتابة، وإشارته إلى أنّ الكتابة طقس يشبه فنّ التعرّي. ويسترسل في وصفه بأنّ الطقس يشابه، من زاوية ما، حالة الفتاة التي تحت أضواء كاشفة، تنزع ملابسها وتظهر، واحداً تلو الواحد، لتكشف مفاتنها المخبوءة، ويعتقد أنّ الكاتب كذلك يعرّي حميميته علناً، عن طريق نتاجه الأدبي.

ويستدرك يوسا بأنّ هناك اختلافات بين التعرّيين، ذلك أنّ ما يظهر الكاتب منه ليس مفاتنه المخبوءة، كتلك الفتاة المنطلقة، وإنّما ما يصفه بالشياطين التي تعذبه وتصيبه بالهوس، الجزء الأبشع منه: أشواقه، ذنوبه، ضغائنه. ويعتقد أنّ الفرق الآخر هو أنه، في فنّ التعرّي، تكون الفتاة مرتدية ثيابها في البداية، فتصير عارية في النهاية. بينما الأمر معكوس في حالة الرواية: في البداية يكون الروائي عارياً، ثم يصبح كاسياً.

وتراه يؤكّد أنّ التجارب الشخصية التي كانت الحافز الأوّل لكتابة القصّة، تبقى مقنّعة بشكل خبيث في أثناء العملية الإبداعية، بحيث لا أحد، ولا حتى الكاتب نفسه أحياناً كثيرة، في وسعه، عندما ينتهي من عمله الأدبي أن يسمع بسهولة ذلك القلب السيرذاتي الذي ينبض حتماً في ذلك الخيال كلّه. يطلق يوسف توصيفه: «إنّ الكتابة هي فنّ التعرّي بشكل معكوس. إنّ الكتّاب جميعاً يمارسون الاستعراء على نحو سرّيّ».

وفي هذا السياق أذكر إشارة الأرجنتيني لويس غروس في كتابه «ما لا يُدرك» إلى أنّ فعل كتابة اليوميات هو استحضار للأرواح من منطلق إحساس ما بالذنب. كذلك تمكّن رؤيته كنفاق عجيب أو رهان على المستقبل المحدوس الذي يسمّيه البعض «الأجيال القادمة». واعتقاده أنّها بوجه عامّ علامة من علامات الضعف، تحلّل الشعور ولكنّها لا تحلّل السبب. كلّ هذا يمكن أن يكون له علاقة بالطابع الذي تكتسبه اليوميّات كوعاء للبقايا، وكرهان أيضاً على مستقبل غريب وطارئ. وتراه يقول: إنّ الأدب هو التكثّف الأقصى لوجود موسوم بشعلة مزدوجة من الحياة والموت. إنّ الفنّ، بحكم تعريفه، يناقض الحياة. ولأسباب حتميّة فإنّه يتغذّى عليها. ليس هناك من خيار آخر، لكن في هذه المفارقة بالذات تكمن سلطته.

هل يكون التعرّي وسيلة من وسائل الفنّ والكتابة للتحرّي عمّا وراء العري ذاته؟ هل يكون العري أحد أقنعة الكاتب في لعبة الإيحاء والتوليف؟

لا يخفى أنّ العري والكتابة ثنائية تكمّل تأثيث فضاء الفنّ بما يبقي جذوته متّقدة وباعثة على النبش والتأويل. وهنا لا أريد للسيرة أن تكون

قيداً، أو فخّاً...

أقنع نفسي بالقول: لا تسل عمّن جرحك، ابحث عن مداواة جراحك بنفسك، والزمن يكفل بترميم الجروح وتصفية الحسابات، أمّا أن تنشغل بنفسك في البحث عن سبل لإرواء غريزة الانتقام فهذا ما يخرجك عن مسار الحلم والأمل والعمل ويضعك في مضمار صراع لا ينتهي مع الذات والمحيط، ستشعر بنفسك محمّلاً بأعباء يبقيها بحثك عن الثأر متعاظمة مستعرة في وجدانك وروحك... لا يمكن لأحدنا أن يبرأ من ندوب الروح إلّا بالتعالي عليها، والبحث عن سبل أخرى للخلاص.

ينتابني بين الفترة والأخرى شعور باللاجدوى، بلا جدوى أيّ فعل وأيّ شيء، أشعر حينها بفراغ يستوطنني ويقهرني، أشعر بغربة عن ذاتي، أحاول أن أتماسك وأبتدع لنفسي ذرائع المقاومة والاستمرار، أشحذ همّة نفسي، تكون ذاتي اليائسة أكثر صلابة وعناداً من أيّة محاولة للتقوية والتأميل. أترك نفسي في أرجوحة اليأس واللاجدوى، لا شيء سوى الفراغ. أفكّر في أولئك الذين وصلوا إلى مراتب عليا في مجالاتهم، في أولئك الذين بلغوا المجد والشهرة في عالم الكتابة، ثمّ اعتزلوا وانعزلوا، أغبطهم على جرأتهم وصدقهم مع ذاتهم.

ليس من السهولة بمكان أن تستعيد إيمانك المفقود بالأفكار التي كنت تؤمن بها، والأشخاص الذين كنت تثق بهم، عليك حينها أن تخترع لنفسك سبلاً جديدة لبلورة إيمان مختلف بذاتك وعالمك. ربّما يساورك شعور أنّك تقف عارياً في مهبّ إعصار مدوّ وسط ميدان مزدحم بالبشر الغرباء الذين يكتفون بإلقاء نظرة سريعة عليك، ولا يشغلون أنفسهم بعبء التفكير في حالتك، وما إن كان ذلك جنوناً أو احتجاجاً أو أيّ شيء آخر.

أخرج إلى البحر، أصرخ ملء صوتي، أشعر براحة غريبة تفاجئني بعد إطلاقي عدّة صرخات...

هيثم حسين

كاتب وروائي سوريّ كرديّ، من مواليد الحسكة، عامودا 1978م، مقيم في المملكة المتحدة/ إدنبرة. عضو في جمعية المؤلّفين في بريطانيا، وفي نادي القلم الإسكتلنديّ، وفي رابطة الكتاب السوريين. تخرّج من معهد إعداد المدرّسين – قسم اللغة العربية في الحسكة سنة 1998م.

يكتب في عدد من الدوريات العربية وعمل مراسلاً لشبكة الجزيرة نت (القسم الثقافي) لسنوات منذ 2012 – 2017م. مؤسّس ومدير موقع «الرواية نت».

صدر له:

- «آرام سليل الأوجاع المكابرة»، ط1: دار الينابيع، السويد 2006، ط2: دار النهرين، دمشق 2010.

- «رهائن الخطيئة» ط1: دار التكوين، بيروت - دمشق 2009.

- «إبرة الرعب» منشورات ضفاف بيروت، الاختلاف الجزائر 2013.

- «عشبة ضارّة في الفردوس»، منشورات مسكيلياني، ومنشورات ميارة، تونس 2017م.

- «الرواية بين التلغيم والتلغيز»، ط1: دار نون، سوريا 2011.

- «الرواية والحياة». صدر ككتاب مرفق مع مجلة الرافد الإماراتيّة في شهر مارس 2013م.

- «الروائيّ يقرع طبول الحرب»، دار ورق، دبي 2014.

- «الشخصيّة الروائيّة... مسبار الكشف والانطلاق» دار نون، الإمارات، 2015.

«مَن يقتل مِمو؟» مجموعة مسرحيّات مترجمة عن الكردية للمؤلّف بشير ملا. دار أماردا، بيروت 2007.